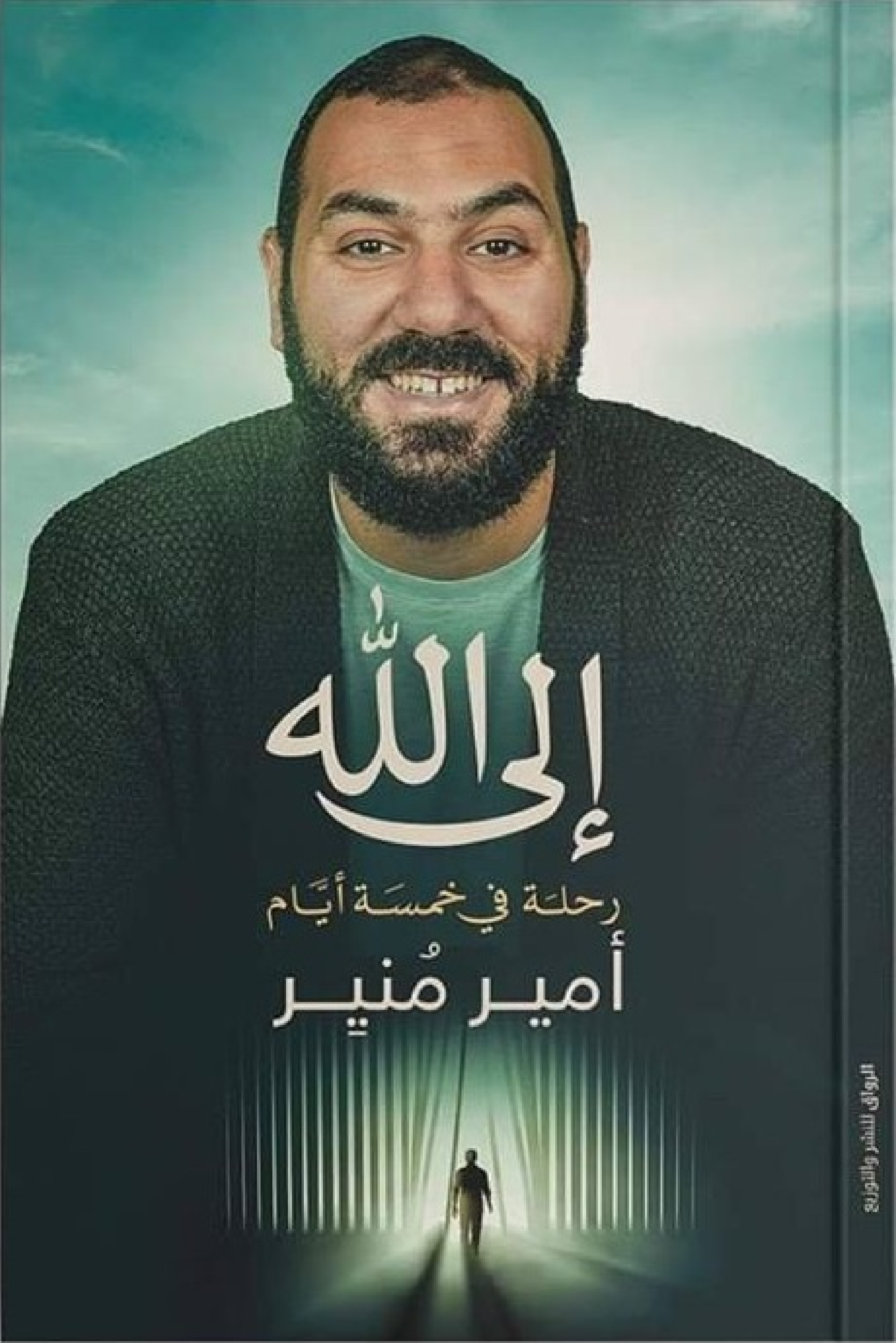

إلى الله
رحلة في خمسة أيام
أمير مُنير
الرواق للنشر والتوزيع


إلى الله
رحلة في خمسة أيام

إلى الله (رحلة في خمسة أيام)

أمير منير

■ الطبعة الأولى .... يناير 2020

التصحيح اللغوي: أحمد الغانم

تصميم الغلاف: كريم آدم

صورة الغلاف: عبد الله مسعد

رقم الإيداع: 2020/1742

الترقيم الدولي: 5 - 095 - 824 - 977 - 978



186 عمارات امتداد رمسيس 2 – أمام أرض المعارض – مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing



أمير مُنير

الرواق للنشر والتوزيع

إليه.. أبي – رحمه الله – حبيبي ومثلي الأعلى، من علمني الحياة.

إليها.. أمي وحبيبتي وسبب وجودي..

إليها.. زوجتي وقرة عيني، من أنا بدونها لا شيء.

إليهم.. أولادي، روح قلبي وسرّ سعادتي.

إليهم.. إخوتي، سندي في الدنيا.

إليكم أنتم.. يا من أحبكم في الله.

هذا الكتاب صديقك الجديد، ورفيقك الناصح في طريقك إلى الله، ولهذا إن أردت حسن صحبته أنصحك بالتالي:

١ـ ابدأ القراءة بسم الله مستعينًا به؛ متوكلًا عليه، واجعل نيتك ورغبتك في القرب منه سبحانه تقود شغفك طوال الرحلة.

٢ـ كل يوم من الأيام الخمسة ينتهي بواجب عملي وتواصل ضروري بينك وبينه، فلا تنتقل من يوم إلى آخر إلا بعد انتهاء قيامك بواجبك حتى تتم الاستفادة من كل يوم.

٣ـ لا تقرأ الكتاب دفعة واحدة، وإن فعلتَ فاجعلها قراءتك الأولى وعد إليه مرة أخرى، تفاعل معه وتفكّر في كل يوم والهدف منه حتى نصل بسلام إلى وجهتنا.

٤ـ بعد أن تنتهي من القراءة ضعه في مكان تعرفه جيدًا، يسهل وصولك إليه، وكلما نسيتَ لِمَ بدأتَ أو حدتَ عن الطريق أو تساءلتَ ماذا يجب عليك فعله، عد إليه وستجده ينتظرك ليمدّ لك يد المساعدة.

٥ـ لا تنسني من دعائك، فأنا - كما تعلم - أحبك في الله.

المقدمة

تجربة العائدين إلى الحياة، دائمًا ما كنت أنجذب إلى عناوين كهذه، أي قناة وثائقية يكفيها أن تعرض موضوعًا كهذا حتى تحصل على انتباهي حتى ينتهي العرض.

حكايات مشوّقة، كقصة ذلك الشاب الذي تعرض لحادث طريق، وإذا به يرى نفسه ممدّدًا على الأسفلت وحوله الناس، ولكنه لاحظ أنه رأى نفسه بعين الطائر، فأدرك حينها أن روحه قد فارقت جسده وأنه ينظر إلى نفسه الآن من خلالها.

تتوالى الأحداث، ويحكي كيف أنه دخل إلى كهف مظلم وبآخره نور، ثم يقص علينا رحلته وما رأى في هذا الكهف من أحداث يدّعي أنه مر بها إلى أن وصل إلى النور، وما إن وصل إليه حتى وجد نفسه يفتح عينيه ممدّدًا على سرير في المستشفى وقد استعاد وعيه.

مات ثم عاد! هكذا يدّعي، وجعل يقدم نصائحه بناء على ما رآه في كهفه المزعوم.

كثيرٌ يُكذّبون هذه القصص، بل وينعتون أصحابها بالنصّابين، ويتهمونهم باختلاق القصة من أولها لآخرها، ورغم هذا بقي لهذه القصص أثر في نفسي.

وهذا الأثر ليس لأني صدّقتها، ولكن لأني أيضًا **عائد إلى الحياة!** ليس الأمر كما فهمتَ، ولهذا دعني أوضّح لك.

عشت طويلًا بقلب ميت بعيدًا عن الله، أسير في الرحلة إليه بلا هدف ولا هدى، كل يوم يمر يقربني من نهاية الرحلة أكثر، وأنا غير عابئ بالرحلة أصلًا فضلًا عن نتيجتها.

ثم يشاء الله وتمر بي أحداث تعيد نبض الحياة إلى قلبي وترفع غشاوة الدنيا عنه، فأبصرتُ ما لم أكن أبصره من حقيقة الرحلة، وتعلمتُ ما لم أكن أعلمه عن الطريق إلى الله وعقبات السير فيه.

وإذ بحياتي تنقلب رأسًا على عقب، أنهزم وأنتصر، أقع وأقوم، أستسلم وأقاوم، وأجتهد أن يكون همي الأول أن تنتهي بي الرحلة إلى حيث رضا الله والجنة.

وإن كان هؤلاء حكوا قصص عودتهم إلى الحياة -وظني أنهم يختلقونها- فقد قررت وأنا بكامل قواي العقلية أن أشاركك قصة عودة قلبي إلى الحياة، وأبوح لك ببعض أسرار الرحلة، وأحكي لك عن العقبات والمعينات، وأن أترك بين يديك ما تحتاج في رحلتك **إلى الله**.

فلو سمحت لي بذلك -وهذا من كرم أخلاقك- فأنا أنتظرك حتى نبدأ اليوم الأول!

- أهلًا وسهلًا

لا، لم تُزعجني بالطبع، في الواقع كنت أنتظرك.

دعني قبل أن نبدأ، أسألك: أينَ تُحب أن تجلس؟! قد تطُول جلستنا حتى الصباح!

هل تحب هذا الكرسي أم هذه الأريكة؟ لا أظن كرسي الكسل (ليزي بوي) مناسبًا!

على العموم هو بيتك؛ فاختر مكانك المفضل.

واضح أنك تحب القراءة ليلًا وهذه بدايةٌ جيدة، أن ألتقي خفاشًا مثلي يطير طوال الليل ولا يحب النهار كثيرًا، وإن كنت أرغب في تغيير خفاشيتي لأعود إلى طباع البشر، هؤلاء الذين يستمتعون بضوء النهار ويشربون قهوة الصباح ويقولون لبعضهم: صباحُ الخير، أما إن كنت من نادي محبي أشعة الشمس، وتقرأ صباحًا فلا عليك ما زلت أحبك، وتستطيع أن تكمل جلستك معي.

ظني أنك تحتاج إلى مشروب، لا أريد أن يقطع جلستنا شيء، هل تحب الشاي أم القهوة؟

- منذ صغري ولا أحب أن أجد نفسي محكومًا بشيء؛ ولهذا كرهت التدخين ولا أحب الشاي والقهوة كثيرًا، ولكن دعك مني وحضّر مشروبك المفضل، وتعال لنبدأ حديثنا.

هل تعلم أن الإضاءة الجيدة أثناء القراءة تحافظ على بصرك؟!
معلومات إضافية مجانية.

أنا أحبك كما تعلم وأخاف عليك أو في الحقيقة على جلستنا، وهذه ليست رواية رعب من رواياتك المفضلة حتى تعيش أجواءها في هذا النور الخافت، ولا أريد الإرهاق لعينيك؛ فاضبط الإضاءة كما تحب.

- دعني أكن صريحًا معك من البداية..

لا تنتظر مني حلًا سحريًا في النهاية!

حقيقةً هذه الجلسة لن تغير فيك شيئًا ما لم تقرر التغيير بنفسك، وتتخذ خطوات العودة!

هل كل من قرأ كتاب (كيف تصبح مليونيرًا) قد أصبح مليونيرًا؟! ما لم يعمل ويجتهد ويغامر ويتحمل لن يصبح مليونيرًا، ولو بعد ألف سنةٍ ضوئية، فإن الأرض لا تمشي بجالس!

(ديل كارنيجي) الذي كتب كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) انتشرت شائعات عقب وفاته أنه مات منتحرًا؛ لإصابته باكتئاب حاد!

يبدو أنه لم يتبع خطوات كتابه، وهاجمه القلق حتى قتله، ولم يلتفت إلى كونه المؤلف!

لذلك دعني أقل لك: إن كنت دعوتني إلى هنا حتى نتكلم كلامًا سينتهي بمجرد جلستنا، مجرد ترويح عن نفسك من عناء العمل أو هربًا من طلبات خطيبتك وأمها أو بعد انتهائكِ من الكلام عن العالم وسكانه ونشاطاتهم اليومية مع صديقتكِ المفضلة! -من الآخر لو لم تكن عندك نية التغيير- فاسمح لي بالانصراف.

حسنًا، أرى أنك مُصرٌ على إتمام جلستنا!

أسعدتني؛ فهذا ما كنت أنتظره منك، رأيت في عينيك الرغبة منذ اللحظة الأولى، ولكني أحببت فقط أن أتأكد ليطمئن قلبي.

ما رأيك أن تكتب تعهدًا على نفسك قبل أن نبدأ؟

لا تَخَفْ إنه من نسخة واحدة لك لا أستطيع أن أقاضيك به، وعِدني أنك ستعود إليه لتتذكر كلما نسيت لماذا بدأت، وإلى أين تريد أن تصل!



أتعهد أنا الموقع أدناه، أني قد قررت وأنا بكامل قواي العقلية أن أكمل جلستي مع المدعو.................. حتى نهايتها دون شكوى أو تذمر منه أبدًا، وأتعهد أن أتبع الخطوات المذكورة قدر طاقتي، وإن حِدت عن الطريق لعارض ما؛ سأجتهد في العودة إليه، وأن أبْذلَ قصارى جهدي وألا أستعجل النتائج، وأن أصبر على الطريق مهما كانت صعوبته، وهذا إقرار مني بذلك.

التوقيع:..................................

- جميييييييييييل، جاهز؟ هل ينقصك شيء؟ متأكد؟ إذًا، هيا بنا.

-انتظر هنا! أنت لم تسألني هيا بنا إلى أين، حقيقة أشكر لك ثقتك، ولكن لا تذهب مع كل من قال لك: هيا بنا.

- ألم يعلموك صغيرًا ألَّا تذهب مع الغرباء، ولكني لستُ غريبًا مثل أي غريب، لا ينفعك وربما يضرك، أنا دليلك في الرحلة ورفيق دربك.

إلى أين؟ ها قد بدأت الأسئلة!

إنها رحلة إليه -سبحانه وتعالى- رحلة إلى الله.



اليوم الأول

أن ترى بعين قلبك

«لكل إنسان أربع أعين، عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه، وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئًا، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينْفعه نظره شيئًا»

الإمام: مجاهد بن جبر

«اللي حضرتك سامعه ده هو صوت قلب البيبي».

كانت هذه اللحظة من أهم لحظات حياتي صوت قلب ابنتي الأولى، صوت القلب، هذه الدقَّات المنتظمة هي إعلان واضح عن الحياة ،صوت يقول: أنا هنا، هأنَذا قد خلقت وجئت إلى دنياكم.

تدفقت في قلبي كل أحاسيس الأبوة مع هذا الصوت، حبٌ غير مبرر مع اضطراب مخلوط بكثير من القلق والخوف على مصير هذا القادم إلى رحلة لا يعلم عنها شيئا، تخيَّل معي عوامة صغيرة من المطاط بين أمواج المحيط ورياحه العاصفة والمطلوب منها أن تكمل الرحلة وتصل في سلام.

ولكن ما أجمل هذا الصوت، صوت دقات القلب، قلبُها.

«الحمد لله دقات القلب منتظمة».

كان هذا كل همي كلما زرت أبي المريض - رحمه الله، وقد مات في مرضه الأخير- تراه مستلقيًا على سريره الأبيض لا تظهر عليه علامات الحياة في غيبوبته إلا من رسم متعرج على هذا الجهاز المرعب! هذا الرسم الذي يُعْلِمك أن الأمل ما زال قائمًا بإذن الله، رسمٌ يعني الحياة وتنتهي الحياة باستقامته التي تُعلمك بموت القلب.

وتذكر المراجع الطبية الحالات التي عاشت بلا قلب حقيقي لفترة ذكر الأساطير، فتحكي لنا عن (ستان لاركن) الذي عاش بغير قلبٍ حقيقي لمدة ما يقرب من سنتين حاملًا على ظهره قلبًا صناعيًا يزن ستة كيلوجرامات حتى وجدوا له متبرعًا بالقلب ونقلَ له القلب ليعيش بعدها حياةً طبيعية.

ولكن ما لم تَذْكُرْهُ المراجع الطبية هؤلاء الذين يعيشون بقلوب عمياء.

قلب لا يعقل

-انتبه فأنا أسمعك بوضوح تقول: آااااااااااااه أنت منهم بقى وهتفتي في العلم؟

قلب أعمى مين يا عم؟ هي القلوب بقى فيها مفتح وأعمى دلوقتي؟!

– يا سيدي، مش بفتي ولا حاجة، وأعدك من هنا إلى نهاية جلستنا ألا أخفيك سرًا، ولا أذكر خبرًا إلا وقد ذكرت سنده، اتفقنا؟!

جميييييييييل، إذاً تعال كي أحدثك عن القلب الأعمى.

قال الله عز وجل: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»[1]

من الأمثال الشعبية القديمة: «لا يعرف الجمرة من التمرة»، دائمًا ما أشعر أن وراء أمثال الأجداد هذه الكثير من الحكمة والتجربة، هي أعمق مما تبدو عليه وكأنها شفرة خفية تحمل في فك رموزها حلًا لكثير من مشاكلنا، ورسالة من الماضي إلينا أن انتبهوا، ليس الأمر كما يبدو عليه.

---

(١) سورة الحج:٤٦

تعال مثلًا نرى هذا المثل بعين الخيال، طفلٌ صغيرٌ أمامه تمرة سمراء ليس فيها ما يجذب انتباهه ولا يشعره بالاهتمام، مجرد جسم مجعد منطفيء لا إغراء فيه، لم يتذوقها ولم يستمتع بجمال طعمها، لم يسمَعْ عن فوائدها ولا يعرف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحبها.

وفي الناحية الأخرى يلتمع في عينيه النور الأخَّاذ لهذه الجمرة المتقدة، ولونها الذهبي المتوهج الذي يزداد مع هبوب الهواء، ويُشعل في رأسه الرغبة في الإمساك بها هذا الرذاذ اللامع حولها، لا عَجَب أنه من الطبيعي أنه سيمسك بالجمرة ما لم نمنعه منها، ولا يعقل حقيقة أنه لو أمسكها، لأحرقت كفيه الصغيرتين.

ولكن دعنا من الطفل الآن، هل سمعت عن أسطورة حورية البحر؟ إذًا دعني أقصها عليك.

حورية البحر أسطورة تحكي عن كائن خلَّاب، نصف فتاة ونصف سمكة، جميلة هي كأجمل أحلام صباك، شعرها طويل جدًا يفوق سواده سواد ليل البحر، فيظهر خلاله لامعًا براقًا كقمر أسود يتلألأ بين الأمواج، صوتُها يذهب بالعقول من جمال تفاصيله وأنوثته الناعمة.

كانت حورية البحر تظهر للبحَّار في ظلام البحر تُغني له، وتكلمه عن سعادة من يقبل حبَّها ويختار العيش بجوارها، هي التي تحب بلا سبب وتعطي بلا انقطاع، هي الجميلة التي لا تكبر ولا تتغير على حبيبها، هي راحته من تعبِ الإبحار هي اختياره الأفضل.

فإن اختارها -وظني أن كثيًرا منا لو كان مكانه لاختارها؛ فهي اختيار رائع للوهلة الأولى- تحوَّلت إلى وحش والتهمته.

والمدهشُ في الأمر، أن الأسطورةَ تقول أن البحَّارة كانوا يعلمون خبرها ويعرفون ما تفعل، ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا يختارونها وحولهم صرخاتُ المحذرين: انتبهوا، أنتم الآن تستجيبون لحورية البحر، ولكن من يأبه؟

«أيوة يعني أيه علاقة العيل والتمرة والجمرة بالبحار وحورية البحر، والجو اللي أنت معيشنا فيه ده؟!»

-اصبر يا عم بقى هقولك أهوه، العاقلُ في اللغة هو مَن يعرف حقيقة الأشياء وطبيعتها، يرى ما وراء الشكل واللون والزينة، لا يغتَّر بجمال البدايات، يُفرق بين النافع والضار، حتى ولو لبس الضار فِراءَ النافع، ذكيٌ يرى بعين قلبه.

دعنا نعود الآن إلى الطفل والبحار، كلاهما لم يعقلْ، لم يعرف الحقيقة رغم وضوحها، كلاهما انساق وراء بريق، بريقٌ رآه بعينيه وعميت عما وراءه عين قلبه.

ولكن يسهل علينا أن نعذر الطفل ونفهم موقفه فهو مازال يُجرِّب حواسه، يستكشف الأشياء، يتعرف عليها، يعيش الأحاسيس، ولأول مرة يفهم معنى الضد، هذا ساخن وهذا بارد، هذا حلو وهذا مر، هذا ضار وهذا نافع، يدرب عين قلبه أن تعقل؛ فترى ما وراء الأشياء.

أما البحَّار كيف نعذره؟ هذا الذي يعرفُ الحورية حق المعرفة، كم حذروه منها، كم سمع قصتها، كم رآها بعينيه تغوي بحارين حتى اختطفتهم، كيف استجاب لها وسْط صرخات من حوله؟! كيف لم ير وجهها المخيف البادي تحت خصلات شعرها الرائع؟ كيف؟

والإجابة ببساطة: لم يعقلْ قلبه؛ فخدعه بصره فرأى الشر خيرًا، وبحث عن لذة الحياة في أحضان الموت متعجبًا من صرخات من حوله قائلًا: ماهم لا يرون ما أرى؟ هل هم عميان؟!

قلب أعمى

قُمْ معي،هو تطبيق سريع،لا تخف.. اتبعني.

أَغمِضْ عَيْنَيْكَ قليلًا -يا أخي خدني على قد عقلي، وأغمضها قليلًا- والآن ابْدَأ بالدوران حول نفسك سريعًا حتى تفقد إحداثيات غرفتك، والآن حاولْ أنْ تمشي -وبدون أن تفتح عينيك- في أرجاء غرفتك التي تحفظ أركانها عن ظهر قلب دون أن ترتطم بشيء ما أو تسقط شيئًا ما، ولكن لا تُطِل المحاولة، بمجرد أن تشعر بالضياع وعدم معرفة اتجاهاتك أو مع أول ارتطام خفيف، افتح عينيك وتعال، صدقني لا أطيق أن أراك في الجبس.

فقدانك لبصرك للحظات كان كافيًا أن تتعرض للخطر حتى وأنت في غرفتك، مجرد عدم الرؤية شكَّل تهديدًا حقيقيًا لك في مساحة أمانك وأرض نفوذك، فما بالك بالوضع خارجها.

ولكن هناك ما هو أخطر من فقدان البصر، وهو أن تفقدَ عينَ القلب.

فاقد البصر يعلم جيدًا عن نفسه أنه لا يرى، لا يكابر، ولا يدَّعي أن الخلل في عينيك أنت، هو يعلم حاله ويرضى به ويعمل عليه!

يتدرب كيف يسير، كيف يسمع ما حوله ويحلِّل ما يسمعه، كيف يمشي معتمدًا على حواسه الأخرى؟ ومع الوقت يعوضه الله -سبحانه- بقدرات خاصة تعينه على دنياه حتى أنك تراه من بعيد لا تستطيع أن تحكم عليه، هل هو كفيف أم بصير!

أما خطورة عمى القلب فتكمن في أنه عمى خفي، خفي على صاحبه، جلي لكل ذي قلب يعقل، صاحبه يرى نفسه مبصرًا، بل مبصرًا أكثر من كل من حوله، هو وحده يدرك حقيقة الأشياء ويعلم كنهها ويرى ما وراءها، ولا يدري لماذا لا يرون ما يرى؟! لماذا لا يفهمون دوافعه ولا يقدرون وجه نظره؟! لا بد أن قلوبهم عمياء!



عمى القلب أن تكون الحقيقة أمامك بكل تفاصيلها واضحة، وضع الله لك الدليل تلو الآخر، قرأت الآيات، سمعت القصص، وعشتها بنفسك في بعض الأحيان، رأيت النهايات ثم بعد كلِّ ذلك تختار أن تمشي في طريق الهلاك.. هلاكك أنت، فأي عمى أخطر من عمى القلب؟

حلوة وملعونة

«موباااايل أي فون ١١ برو الأصلي الجديد أبو ٣ كاميرات، لو اتصلت بينا النهارده هتدفع ١٦٠٠ جنيه بس وتحصل على قطعتين بسعر واحدة، ومش بس كده! هتاخد عليهم طقم حلل التفاحة الشقية المدهش!

«اتصل يلا مستني أيه؟»".

كم هم نصابون! نعم هم نصابون، يبيعون الأصلي في التوكيل بالآلاف وسعره في الشركة الذهبية الأمينة بـ ٨٠٠ جنيه وعليه طقم حلل، كم هي صفقة رابحة!

لماذا تنظر إلي هكذا؟ هل تتعجب من تصديقي لإعلان الشركة الذهبية؟ عندك حق هو فعلًا لا يُصدَّق ولكن اعذرني، فحماس المعلن وتكراره لصفات المحمول الرائعة كاد أن يخدعني، ولكن دعني أسألك

سؤالًا ماذا لو كان الإعلان كالتالي:

«موبايل سيفون ١١ برو أبو ٣ كاميرات، هو شكله تحفة بس مضروب الصراحة يعني الـ ٣ كاميرات مش هيكملوا شهر، بص هو الموبايل كله على بعضه مش هيكمل شهر، من الآخر أنت هتدفع ١٦٠٠ جنيه في طقم حلل ميسواش ٢٠ جنيه، مستني إيه؟ اتصل الآن».

هل كنت ستتعجب إذا صدقته؟ خلاص خلاص متغلطش.

هل تذكر علبة الشيكولاتة الغالية التي تحتفظ فيها أمهاتنا بكل شيء إلا الشيكولاتة، ومع ذلك في كل مرة نرى بداخلها الخيوط والإبر والدبابيس، وهيَ تنظر إلينا مبتسمة في تشفٍّ قائلة: «تاني؟ أنت مابتحرمش؟» نتعجب ونُصاب بالإحباط.

علبة الأيس كريم التي كلَّما فتحناها؛ وجدنا فيها بصلًا مفرومًا، ومع ذلك لا نتوقف عن فتحها.

العجبُ كل العجب يا صديقي، أننا والدنيا كالمشتري من الإعلان الثاني -إعلان السيفون- وكالذي يفتح علبتي الشيكولاتة والأيس كريم منتظرًا حلوى لن يحصل عليها أبدًا.

دعني أوضح لك، تعال معي..

حقيقة الدنيا

قال الله تعالى في وصف الدنيا:

«اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ»[1]

نداء لنا جميعًا، يا بني آدم، احذروا الدنيا، جميلة هي، ستغويكم بحلال ومباح وحرام، ستُعجبكم كمثل مزارعين مروا على أرض قد أحياها مطر السماء بإذن الله، فانبهروا بجمال نباتها، وتعجَّبوا من روعته ولكن فاتهم -وهم يعلمون- أن ينظروا إلى حقيقة الأمر ونهايته، خريف سيأتي لا محالة واصفرار لا مفر منه ثم لا شيء.. مجرد حطام.

والدنيا كذلك، متع كثيرة ومغريات طوال الليل والنهار، أحلام نلهثُ وراءها طوال الوقت، زواج، وعيال ومال، ومنصب، وسيارة، وبيت، أو محرمات غرقنا فيها بحثًا عن السعادة واللذة، وفي النهاية اصفرار لخضارها ومتعها ثم لا شيء.. مجرد حطام.

وبعد الحطام يأتي الحساب، كم أخذت، بحق أم بغير حق، حلال أم حرام؟ هل كان الله في حسبانك، هل قاومت شهواتك، هل كنت تائبًا أوابًا أم مصرًا على ذنبك؟ متع زال نعيمها وتحولت لذتها ومتعتها إلى حطامٍ وتحاسب عليها!

---

(١) سورة الحديد: ٢٠

احذروا، فالعذاب شديد على مجرد متعة زائلة، أما الخبر الرائع في الأمر، أن الذي سيُحَاسِبُنا هو الله الذي هو أرحم بنا من أمهاتنا وآبائنا، فإن عِشْنَا في الدنيا على طاعته والتوبة إليه كلما وقعنا في الذنب؛ فزنا بالمغفرة والرضوان.

هل رأيت وضوحًا أكثر من هذا؟ عدسةٌ مكبرةٌ تُوضع على عين قلبك من أول لحظة حتى ترى الدنيا على حقيقتها وبأدق تفاصيلها، امتحان تدخله ومعك الكتاب والحل مذكور فيه أكثر من مرة، هل يعقل أن ترسب؟

ذكر لنا –سبحانه وتعالى– بكل وضوح:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ»[1]

ومع أنك تعلم تمام العلم أنه عدوك، وأن الدنيا هي اختبارك، يأتي الشيطان فيمسحُ بيده على عين قلبك ليطفئ نورها ليريك ما يرى، وهذا هو دوره الحقيقي وهدفه الذي ليس له غيره، أن يغيِّر فطرةً قد فَطَرَكَ الله عليها، وأن يعدك بغير ما وعدك الله، أن يزين لك الدنيا ويزخرفها ويُقدمها لك على أنها النعيم الذي لا يزول والسعادة التي لا تنتهي، حتى تغرق في شهواتها لا تفرق في ذلك بين حلال وحرام حتى يصل بك إلى النار.. فهل تستجيبُ له؟

هو من أجل ذلك لا يترك طريقًا قد يوصله إلى قلبك إلا سلكه، وصدقني يا صديقي، هو يعرف أدق أسرارك، يعرفك أكثر من نفسك، يعرف حبَّك

---

(١) سورة فاطر:٦

للموسيقى وأي نوع تفضل ويعرف فتاة أحلامك ومواصفاتها، يعرف تطلعاتك وطموحاتك، إلى أين تحب أن تسافر، وماذا تحب أن تعمل!

يعرف حتى أنك لا تحب السبانخ في حين تنسى أمك كل مرة، حتى الأسئلة التي لا تعرف إجاباتها عن نفسك هو يعرفها، يجري في دمك كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**»[1]

«بصوا بقى الدنيا حلوة، وحلوة أوي كمان، مين اللي قال إن شهواتنا حرام، ها؟! شوية الشيوخ ورجال الدين اللي أكل عيشهم أنهم يخوفوكم من الدنيا.. حرام حرام، هو عندهم كلمة غير حرام؟».

«وتقولهم: طب مين اللي قال حرام؟ يقعد بقى يجيبلك في أحاديث متعرفش صحيحة ولا ضعيفة ويفسر الآيات على كيفه وزي ما يخدم مصلحته، ويجيبلك آراء شوية ناس يقولك الفقهاء والعلماء، وأستغفر الله أستغفر الله، يعني كأنهم مبيغلطوش، عيشوا وتمتعوا مفيش حرام، مفيش ممنوع، فيه حرية، وبعدين بصوا للناس من حواليكم الدنيا كلها كده، يعني ربنا هيعذب كل دول؟! وبيني وبينكم كده أنتم أحسن من غيركم كتيييييير.. الدنيا حلوة»

محاولةٌ منه كي يخدعَ من استطاع ليشتري الدنيا بالآخرة، ليشتري العذاب بالمغفرة والرضوان، ليبيع جنته بحثًا عن قطعة سعادة في علبة الدنيا، ويتعجبُ عندما لا يجدها!

فهل يُعقل أن تصدق عدوك؟

---

(١) صحيح البخاري

مشهد بلا أبطال

أتدري لمن يكون أشد العقاب؟

أشد العقاب لمن صدَّق عدوه واتبع طريقه، أن يرى بعينيه عدوه وهو يتبرأ منه!

يقول الله عزوجل: «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۞ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۞ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۞ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۞ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۞ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»[1]

مشهدٌ صادم، دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وسيق أهل النار إلى جهنم، كلٌّ عرف الحقيقة واستلم نتيجة امتحانه، وإذ بأهلِ النار يتلفتون حولهم.. إبليس أين أنت؟! ألم نكن نتبعك؟! لم تركتنا هنا؟! على الأقل اشهد أنك السبب فيما نحن فيه! إبليييييييييس.

وفجأة يُنصب منبر من نار، ويأذن الله لإبليس أن يُلقي خطبته الأخيرة، الخطبة التي سمعوها في الدنيا أو قرأوها ولكن لم ينتبهوا إليها، مشهدٌ عاشوه من قبل في كتاب الله، وهم سالمون حتى يعرفوا حقيقة الخدعة ونهاية الأمر فلا يتبعوا شيطانهم، ولكن عمى قلوبهم أوصلهم إلى أن يكونوا هم أصحاب المشهد، وليس في هذا المشهد أبطال.

(١) سورة إبراهيم:٢٢

هذه هي النهاية.. إنَّ الله قد أعلمكم الحقيقة، كلَّمكم عن الجنة والنار، وعد المتقين بالجنة ليعملوا لها، وتوعَّدَ الكافرين بالنار ليهربوا منها إلى الجنة، أما أنا فخدعتكم.. قلت لكم: لا بعث ولا جنة ولا نار

لا حرام ولا ذنب أنتم أحرار، تلومونني؟! لا تلوموني فلم أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولم أفعل شيئًا إلا أن قلت لكم ففعلتم وأمرتكم فأطعتم فهل أنا المخطيء الآن؟! لا، بل أنتم الذين اتبعتموني!

هل تنتظرون مني أن أنقذكم؟ لا أملك لنفسي ذلك فهل أملكه لكم؟!

أنا وأنتم هنا إلى لأبد.

وهنا تنتهي خطبةُ الملعون، وهو يكشف لأتباعه عن وجههِ الحقيقي، وجهُ إبليس الذي عاش الدنيا لينتقم من آدم، ينتقمُ من هذا الذي فضَّله الله عليه؛ فاشتعل بنيران كبره وحقده الذي وصل من آدم إلى كل أبناء آدم حتى قيام الساعة.

صور من واقعٍ آت وضعنا الله فيها، لنعيش الأمر على حقيقته التي ستكون، فيسهل علينا الاختيار إذا ما خُيِّرنا بين دنيانا وآخرتنا.

لكن وللأسف يا صديقي، رغم كل ذلك كثير قد صدَّقوا عدوهم وساروا بقلب أعمى نحو هاوية قد علموا وجودها، وتيقنُوا من نهايتها كبحار الحورية لا يستمعون إلى صرخات من حولهم، وأيُّ هزيمة أسوأ من تلك التي قد علمت فيها عدوك، واطلعت على خطته، ورأيت عاقبتها بنفسك؟

الحمد لله أننا ما زلنا في الدنيا –حتى كتابتي لهذه السطور، وقراءتك لها– وبالتالي فمازال الاختيار بأيدينا حتى ولو هزمنا الشيطان في بعض الجولات، ولو اتبعناه لبعض الوقت ظانين أنَّ السعادة في طريقه، ولو سلَّمنا له وسرنا خلفه بقلوب عمياء.



حرب الشيطان مع بني آدم لا تنتهي حتى الممات، هي جولةٌ بعد جولة، والفائز من ينتصر في آخرها، ودور الشيطان أن يجعلك تظن بعد الهزيمة الأولى أن الأمر قد انتهى.

«تتوبوا ميييين وبعد إيه؟! بعد العك ده كله بعد الذنوب ديه كلها؟! الموضوع خلص يا حبيبي أنت وهي، ربنا هيقبلكم إزاي بعد اللي عملتوه؟! فامشوا وأنتم ساكتين، أقول: شمال، تقولوا: حاضر، أقول: شمال برضه تقولوا: حاضر، ومسمعش موضوع التوبة ده تاني، مفهوم؟»

ستسمع هذا الصوت بداخلك كلَّما قرَّرت التوبة والعودة، صوتٌ يُصيبك باليأس، يغلق في وجهك أبواب رحمة الله التي لم تُغلق قط، فلا تستمع إليه.

لا تيأس

وسُبحان من كتب على نفسه الرحمة رغم أنه قد أعلمنا بحقيقة الأمر ووضع بين أيدينا الامتحان وحله معه، إلا أنه قد وعدنا بالمغفرة إن عدنا وتبنا مهما كان الذنب، ومهما كانت الجريمة.

يقول تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(1)

يغفرُ الذنوب جميعًا.. كلها! بلا استثناء لمن تاب وعاد مهما طال به الزمن، ذلك هو قانون العفو الرباني.

جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- صحابي يسأله، فقال: «أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا أَتَاهَا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: «فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟» قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ»، قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى»(2)

لم يترك ذنبًا إلا فعله، غدر وفجر الزمان الطويل، اتبع نفسه وهواه، تاه في طرقات الدنيا بحثًا عن سراب السعادة الموعود، وعده الشيطان فأخلف وعده كعادته، ولكن منَّ الله عليه فكشف عن عين قلبه الغشاوة فأبصر وانطلق يطلب العفو والمغفرة، لم يتأخر أو يُسوِّف أو يستسلم،

---

(1) سورة الزمر:٥٣

(2) صحيح الترغيب والترهيب

والقانون لا يتغير، تفعل الخير وتترك الذنب؛ يُغفر لك ويجعل سيئاتك حسنات!

لا تتعجبْ يا صديقي، إنه غفور رحيم.

قال الله عزوجل: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»[1]

والأعجبُ يا صديقي أن الله لا يترك من اختار بنفسه أن يتوه في طرقات الدنيا، من اتبع هواه وشيطانه بكامل قواه العقلية، بل يُظهر له المرة تلو الأخرى طريق العودة، يرفع عن عين قلبه الغشاوة التي وضعها بيده؛ حتى يُبصر عاقبة الأمر لعله يرجع، يصبر عليه ويستره ويُمهله ثم يرفع عنه الغشاوة ثانية ويعطيه الفرصة حتى يعود؛ فهل يعود؟

كم مرة سمعت عن مجموعة أصدقاء مات صاحب لهم على معصية؟ فكانت اللحظة التي ظهرت لهم الدنيا على حقيقتها، تاب منهم من تاب، ومنهم من استمرَّ على ما كان عليه!

هل حكوا لك قصة هذا الذي رأى في الحلم أنه يُعذب في النار على ذنوبه؛ فاستيقظ وقد قرر التوبة؟!

هل قصَّ عليك أحدهم تلك اللحظة التي وجد فيها قلبه فجأة، وبغير سبب يسأل ما هذا البعد عن الله الذي قد وصلنا إليه ومتى نتوب؟! فقررَّ العودة إلى الله!

ظني أنك لم تسمع فقط، ولكن قد تكون واحدًا ممن تعرضوا لما فات، لَحْظَةُ مِنّة وسَبْق فضل من الله سبحانه وتعالى يذكرك به حتى ترجعَ

(١) سورة الفرقان: ٧٠

إليه، عصرةُ القلب وضيق النفس من البعد عنه سبحانه تدعوك لتعود! الروح بين جنبيك تصرخ فيك أن ترحمها بالاتصال به تبارك وتعالى.

ولكن انتبه، هذه اللحظة تشبه مُنبه هواتفنا الذي نضبطه مع المواعيد الهامة، يرن لفترة ثم يسكت وقد نقوم سريعًا ونسكته ونعود للنوم مرة أخرى، ولا ندري هل أسكتناه تمامًا فيفوتنا الموعد، أم ضغطنا على إعادة التنبيه ولنا فرصة أخرى أن نستيقظ وندرك الموعد؟ هي كذلك لا تدوم إلى الأبد -مجرد لحظة- فإما أن تنتبه لها وتستيقظ من نوم الغفلة والبعد عن الله، وإما أن تذهب عنك وتعود إلى نومك لا تعلم هل كانت آخر إنذار أم ما زالت هناك فرصة أخرى؟!

ولِمَ تنتظر فرصةً أخرى؟ لم لا تستغل الفرصة الأولى وتتبعها مثل ما فعل هو فرأى الدنيا بعين قلبه وانطلق في الطريق إلى الله؟ من هو؟

واضح أني قد بدأت أنسى كثيرًا، زهايمر في الثلاثينات من العمر! ولكن دعك من حالتي الصحية وتعال كي أقصَّ عليك قصته.

سؤال

توارت الشمس في خجل خلف السحب معلنةً هزيمتها هذه الليلة، ولكنها توعدت الليل بصبح جديد بعد ساعات، وعمل الليل بجد في إزالة ضوئها راسمًا لوحة خلابة من الألوان الساحرة -سبحان من خلقها- التي سرعان ما تختفي ليظهر مكانها سواده لا يبدده إلا ضوء خافت لهلال رفيع يُنبئنا بقرب نهاية الشهر!

كان في خروجة من إياهم مع صاحبته الجميلة، تقابلا في نفس الكافيه الذي اعتادا أن يلتقيا فيه، أفطرا سويًا ثم جلسا كعادتهما، تضحك على نكاته، تُسلم عليه بطريقة (كفك) عقب كل نكتة، يغازلها فتلتمع عيناها وتبتسم في سعادة لا تخفى عليه؛ فيزيد في مغازلتها طلبًا للمزيد من لمعان عينيها.

هل لاحظت كلمة أفطرا على بُعد ثلاثة أسطر من هنا؟ ولكن كيف يطلق على وجبة في وقت المغرب إفطار؟!

نعم، كما حزرت أنت فقد كان هذا في شهر رمضان المعظم.

كان ككل تائه لا يعرف عن شهر رمضان إلا أنه يصوم النهار نائمًا بعد سهر للصبح ثم يستيقظُ قبل المغرب بقليل ليتناول بعدها إفطارًا يُنهي به عذاب صيامه هذه الدقائق القليلة، وطبعًا يكون ذلك بعد أن يكسر صيامه على سجائره المفضلة.

عاد من خروجته قاصدًا أصدقاءه ليقضي ما بقي من الليل بصحبتهم على القهوة، ولا مانع من (بولة استميشن) في جو من دخان الشيشة المحبب إلى نفسه مع بعض أنفاس الحشيش لزوم الدماغ والسعادة.

وفي طريقه مرَّ على أحد المساجد، صوتُ القرآن يخرج من مكبرات الصوت يداعب أذنيه التي علاها صدأ سنوات البعد عن القرآن، ومشهدُ المصلين خارج المسجد كان مهيبًا غريبًا!

«هو زحمة ليه كده، اشمعنى النهارده يعني؟»

قالها في نفسه متعجبًا، ثم أكملَ طريقه وصورة المصلين لا تفارق مخيلته حتى وصل إلى وجهته.

سور مدرسة (طبري الحجاز) في ضاحية مصر الجديدة، مدرستهم الثانوية ومكان لقائهم الدائم الذي لم يتغير منذ تخرجوا في هذه المدرسة.

كانوا في انتظاره، وكان قد تأخر عليهم كعادته.

- إيه يا جدعان المساجد مالها مليانة كده النهارده؟! الشعب كله أسلم فجأة ولا إيه؟ قالها، وهو يضحك متهكمًا.

ردَّ عليه صديقه الأول: يا معلم، دي ليلة سبعة وعشرين رمضان.

فردَّ قائلًا: أيوة يعني بيبيعوا إيه يعني؟!

ضحكوا جميعًا من سؤاله وأجابه صديقه: يا أبو جهل ليلة ٢٧، يعني ليلة القدر.

قال ثالثهم: طب بجد يا جدعان مش كنَّا رحنا صلينا ركعتين بدل ما هنولع في جهنم بالمنظر ده.

فأصابت جملته -على غير المتوقع- استحسانًا منهم، واتفقوا على أن يذهبوا إلى صلاة التهجد؛ ليحضروا ختم القرآن ليلة التاسع والعشرين من رمضان، وبعد أن اتفقوا، ذهبوا ليُكملوا ليلتهم في حديقة قريبة اعتادوا أن يذهبوا إليها لشرب المخدرات بعيدًا عن العيون.

وتر

الليلة هي ليلة التاسع والعشرين من رمضان، نسمات الهواء ترطب الجو الحار ونسمات الرحمة ترطب الأنفس التي جاءت تطلب رضا الله.

كلما اقتربت، سمعت صوت الإمام، ما أجمل صوته الندي والجزء التاسع والعشرين وما به من وصف للجنة والنار وذكر للثواب والعقاب بآياته القصيرة العظيمة الأثر، الشديدة الوقع تملأ الأفق لتضفي الخشوع على المشهد.

وضع سجادة الصلاة خارج المسجد، ودخل في الصلاة لأول مرة

منذ زمن باحثًا عمَّا يجعل كل هؤلاء يأتون إلى هنا ويتركون وراءهم من متع الدنيا ما هو به خبير.

«هو الشيخ مش هيركع ولا إيه؟! يا جدعان، هو الشيخ نسي؟»

مرَّت عليه الصلاة ثقيلة وكانت كل ركعة يركعها عُمرٌ يمرعلى الفاضي، حتى وصل إلى الوتر.

لم يصدقْ أنه وقف كل هذه المدة بلا نتيجة لبحثه، ولا جواب لسؤاله، لماذا يأتي هؤلاء إلى هنا؟!

فكَّر أن يغادر قبل الوتر، ولكنه قرَّر أن يُكمل؛ لعله يجد إجابةً على سؤاله، وسرَّه ركوع الشيخ سريعًا، ولكنه لم يكن يعلم ما ينتظره، فقد كان الشيخ بعد ختام القرآن يدعوا دعاءً طويلًا جميلًا يناجي فيه مولاه، ويثني فيه على ربه ويسأله من خيريّ الدنيا والآخرة.

تلك حالةٌ يعيشها من دخل المسجد بقلبٍ مُقْبلٍ على الله، أما هو فقد كانت وصلةً جديدةً من التعذيب.

«إيدي وجعتني ورجلي باظت وضهري راح، منك لله يا عم الشيخ منك لله»، كان هذا لسان حاله طوال الدعاء، وما زاد من غيظه، استغراق من حوله في بكاء خاشع.

صوت آمين المفعمة بالبكاء كانت لا تزيده إلا غضبًا، ولكنها أنبتت في داخله سؤالا

«هي الناس ديّه بتعيط كده ليه؟!»

سلَّم الإمام من الوتر، ويسهل عليك أن تستشعر السكينة التي

عمت الأرجاء، احمرارُ الأعين الذي يوشي بدمع سال طلبًا للمغفرة والرحمة، نظر الأصدقاء إلى بعضهم وقاموا في صمت، وهم يسيرون بلا هدى لم يقطعه إلا صوت أحدهم قائلًا: مش يلا بينا نتسحر بقى؟

وافق الجميع إلا صاحبنا، ردَّ قائلًا: لا يا جدعان، أنا تعبت جدًا وعايز أروح.

تركهم وقرَّرَ السير إلى بيته القريب من المسجد، وظلَّ السؤال الذي نبت بداخله ينمو وينمو:

«هي الناس ديه بتعيط كده ليه؟»

عادَ إلى منزله وعلامات الحيرة ظاهرة عليه، تناول سحوره شاردًا ثم تناول هاتف المنزل وطلب رقم صاحبته.

هو: ألو.. ازيك يا حبيبتي، قالها بصوت لم تعتده منه.

هي: إيه يا حبيبي، مكلمتنيش ليه من بدري ومال صوتك؟

هو: موضوع عجيب كده حصل النهارده في الصلاة، مش عارف لازق فيَّا ليه؟!

سمعت كلمة الصلاة وظهر التعجب على ملامحها وودت لو سألته: صلاة إيه؟ أنت مين بالظبط؟!

ولكنها ابتلعت سؤالها لِمَا كان في صوته من هم وجدية.

وأجابته قائلة: موضوع إيه يا حبيبي، خير؟

هو: في الصلاة النهارده كل الناس حواليا كانوا بيبكوا أوي، بكاء من القلب، وأنا في وسطهم زهقان مش عارف أحس باللي هما حاسين بيه، آمين كانت بتطلع في الدعاء من جوه وأنا ولا شاعر بأي حاجة

ليه كده؟!

هي: حبيبي مالك إيه الكلام الغريب ده؟ عادي يعني ممكن يكونوا بيعيطوا عشان أي حاجة، وأنت مالك بيعيطوا ليه؟

ردَّ وكأنه لم يسمعها، وكأنه يُكلم نفسه: هو أنا اللي نضيف أوي كده وهما اللي مليانين ذنوب ولا هما اللي نضاف وأنا اللي قذر أوي كده لدرجة إني محستش؟

أغلقَ في وجهها الهاتف مرددًا: أنا اللي بعيد أوي، أنا اللي قلبي قذر أوي لدرجة إنه مبقاش يحس.

جَلسَ في غرفته وحيدًا تُحدثُه نفسه: أنا مَالي مش فاهم حاجة ليه؟! أنا ليه متضايق دلوقتي؟ طب المفروض أعمل إيه؟ مش عارف، مش عارف.

«الله أكبر، الله أكبر».

أذان الفجر، هذا الأذان بالذات ليس كغيره؛ لأنه الوحيد الذي يذكرك فيه المؤذن بأهمية الصلاة قائلًا: الصلاة خير من النوم.

هي خيرٌ من النوم فعلًا، ولكنه لم يكن نائمًا بل كان سارحًا مع أفكاره حين دق الأذان باب قلبه: أنا هنزل أصلي الفجر.

تستطيع أن ترى التعجب في عيني أمه عندما رأته يخرج من غرفته، وهو الذي كان يدخلها بعد السحور، لا يخرج إلا قبل المغرب بثوان تكفي بالكاد أن يمسك بكوب العصير قبل أن يضرب مدفع الإفطار! كانت قبل هذه النظرة مستغرقة في وصلة دعائها اليومي الذي لا ينقطع أبدًا، تتوسل إلى الله باكية أن يُصلح ابنها الذي فشلت معه كل الطرق.

- يا رب، اتقفلت كل الأبواب ومليش إلا بابك.. يا رب أنت عالم أنا حاولت إزاي معاه.. يا رب، اهد ابني ودله على طريقك ووقفله ولاد الحلال، واكفيه شر ولاد الحرام.

قَطَعت دعاءها عندما رأته، واختلط ما بقي من البكاء في صوتها مع القلق الذي نبت في قلبها، فخرجت كلماتها خائفة مترددة: أنت رايح فين يا عمر؟

- أنا رايح المسجد يا ماما، أجابها وهو يفتحُ باب المنزل مغلقًا الباب غير مكترث لنظراتها القلقة!

دخل عمر المسجد المجاور لمنزله مباشرة، مجرد زاوية صغيرة نظيفة عطرة الرائحة يُصلي فيها كبار السن مع القليل من الشباب، يؤمهم في الصلاة أحدُ سكانِ المنطقةِ حيث لم يَكُنْ لها إمام راتب، ولكن ما حدثَ بعد الصلاة كانَ غير ذلك.

لم يكنْ يعلم أن من عادة جارهم إمام المسجد أن يُعطي درسًا بعد الصلاة من أول شهر رمضان، يحكي فيه قصةً أو يقدم فيه موعظةً حتى تشرق الشمس.

وجد نفسه يجلس أمام الرجل، وقد بدأ قصة اليوم بصوت رخيم تسمع فيه الحكمة وتلمس فيه الشغف بما يقص.

قاتل محتمل

«شمس مكة لها طبيعة خاصة جدًا، تشعر أن في مكة لكل مواطن شمس، شديدة الحرارة، شديدة الإضاءة تهزم خيوطُها أي ظل يحاول أن ينقذك منها.

الزمان: أيام الإسلام الأولى، اسم محمد ينتشر بين الناس، لا حديث في مكة إلا عن هذا الذي يقول إنه نبي.

شريفٌ هو بينهم يعلمون نسبه وصدقه وأمانته، ولكنه جاء بما يهدم عروشهم ويهدد تجارتهم الدينية فكيف يتبعونه!

ترى بعينيك في هذا المشهد حبات العرق وهي تغطي جسد بطلنا العاري الجذع، قوي مفتول العضلات يمسك بيده سياطًا، وأمامَه جارية قد أعياها التعذيب، تريد أن تسقط على الأرض من الإعياء ولكن يحولُ بينها وبين السقوط هذا الحبل الثخين الذي يشدها إلى جذع رُبَطِتْ فيه بشدة.

«هل مازلتِ مصرة على اتباعك لمحمد؟!»

قالها وهو ينهج من جرَّاء تعذيبه لها، ولكن كان لصوته وهيئته هيبة واضحة.

ارتعدت خوفًا منه، ولكنها قالت في ثبات: والله لو أزهقت روحي ألف مرة ما تركت دينه أبدًا.

لم يرد عليها بلسانه ولكن بضربة سوط سددها لها بقوة أفقدتها الوعي؛ فغابت في ثبات أسكت صرخاتها التي ترددت في جنبات صحراء مكة.

«والله لقد مللت من تعذيبك، ولولا الملل ما توقفت».

قالها لبقايا المرأة التي كانت أمامه وتركها عائدًا إلى قبيلته التي هو أحد أسيادها (بني عدي).

- مرحبًا بسفير قريش.

قالها أحدُهم، وهو يدعوه إلى شرب كأس خمر طال اشتياقه لها بعد وصلة التعذيب التي أنهكته، ولك أن تتخيل أنَّ سفير قريش وممثلها الرسمي بين القبائل يعذب الجارية بنفسه، وهذا قد يوضح لك كم كان يكره الإسلام.

نعم يكره الإسلام الذي وضعه في صراع نفسي لا يدركه إلا هو!

هو السفير القائد مسموع الكلمة، هو الذي يَهابُه العرب ويكفي ذكر اسمه حتى يخاف الأبطال.

كيف يترك كل ذلك ويضحي به ويصبح مجرد تابع لمحمد؟!

يعلم تمام العلم أن محمدًا صادق لا يكذب، وأمين لا يخون، فهل يكون حقًا نبيًا كما يزعم؟

من أين خرجت بهذا يا محمد؟ من أين جئت بهذا الدين؟!

ست سنوات يا محمد تدعو لدينك هذا حتى قسمت مكة إلى قسمين، من يتبعك ويقبل دعوتك ويقول بقولك ويتبع دينك، ومن يُعاديك ويعذب أتباعك وينهى عن اتباعك، أنت السبب يا محمد أنت من فرَّقت بين الرجل وزوجته، والأم وابنها، والسيد وعبده.

وذات يوم بينما هو في ناديه بين السادة، إذ جاءهم رجل يلهث

تقاتل رئته لتحصل على حقها في بعض الأوكسجين، يظهر في وجهه الفزع ولا يتمالك نفسه وهو يحكي لهم بصوت متقطع: يا قوم، مصيبة! مصيبة عظيمة، أسلمَ حمزة بن عبد المطلب!

اتسعت أعين السادة من المفاجأة؛ فحمزة بن عبد المطلب هو من هو في الشجاعة والقوة والمقام بين قومه، وبالفعل إسلامه -لو صح الخبر- مصيبة عظيمة لهم!

أكمل الرجل قائلًا: كان محمد يقف وحيدًا عند جبل الصفا، عندما رآه عمرو بن هشام (وعمرو بن هشام هو أبو جهل)، فذهب إليه وسبَّه ونالَ منه كما شاء، ومحمد لا يحرك ساكنًا ولا يرد، حتى ضربه عمرو بحجر؛ فشجَّ رأسه وسال منه الدم.

ذهب عمرو إلى الرجال عند الكعبة يتفاخر بينهم بما فعل بمحمد، ولكن فجأة وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث، إذ حضر حمزة وكان عائدًا لتوه من الصيد كعادته، صائدُ الأسود جاء محملًا بغضبه، ترى الشرر يتطاير من عينيه، وما إن رأى (عمرو بن هشام) حتى أخرج القوسَ وضربَه في وجهه ضربة سال الدم من وجهه على إثرها، وقال له: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟! فرُد عليَّ ذلك إن استطعت.

سَرى الصمت في جلسة السادة وصار لغة حديثهم، الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض دون كلمة، وكأنهم يتناقلون الخبر بالتخاطر العقلي، أسلم حمزة!

أي هزيمة لقريش وأي نصر لمحمد، حمزة الشريف القوي الشجاع ذو القدر والمكانة والهيبة عند قريش وبين العرب جميعًا أسلم! وليس

هذا فحسب بل نال من مكانة أبي جهل سيد قريش، هذا السيد القوي المهاب يُضرب على مرأى ومسمع من الجميع، والذي ضربه مسلم!

قام بطلُنا دون أن يفصح عما بداخله وقد نبتت في نفسه فكرة سقاها شيطانه وصراعه النفسي، ثلاثة أيام لا تغيب تلك الصورة عن مخيلته!

حمزة يضرب خاله أبا جهل، ويهينه أمام الجميع.

حمزة يُعلن إسلامه، ويقف بجوار محمد يناصره ويُساند دعوته.

لماذا أسلمت يا حمزة؟

كيف حِدْتَ عن طريقنا؟

كيف يسحر محمدٌ رجلًا عاقلًا مثلك؟

إلى متى سيُفَرِّقُ محمدٌ بيننا وبين من نحب؟!

هل سنترك محمدًا يسيطر على قريش، يجب أن تنتهي هذه المهزلة.

«سأقتل محمدا»

قالها في نفسه وانطلق إلى داره، واختار أكثر سيوفه حدة، وانطلق إلى غايته!

ها هو تراه بوضوح، وعيناه تفضحانه، شهوة القتل فيهما لا يُخطئها الأعمى.

كان لا يخشى أحدًا ويهابه الجميع، فكلمّا لقي أحدهم، وسأله إلى أين؟ أجاب بوضوح: سأنهي أمرَ محمد اليوم.

مرَّ بطل قصتنا على رجل من قومه اسمه (نُعيم بن عبد الله)، وكان نُعيم قد أسلم ولكنه يُخفي إسلامه سأله نعيم: أين تريد؟

ردَّ عليه والحقد يقطر من كلماته: أريد محمدًا هذا الذي فرَّق بيننا وبين أحبتنا..

هذا الذي زرع الشك في قلوبنا من ديننا ودين أجدادنا؛ سأقتله!

خاف نعيم على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأراد صرف بطلنا إلى طريق آخر، فقال له: والله لقد غرَّتك نفسك، أترى بني عبد مناف يتركوك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؟

ثم نظر في عينيه، وأضاف بقوة قصد بها أن يهزَّ كيانه:

- أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

اهتز كيان بطلنا بالفعل، وكأنك ترى بعينيك اتساع حدقتيه والعرق الذي شقَّ جبينه مُظهِرًا ما أصابه من الغضب عند سماع الخبر، فسأل نعيمًا بحدة قائلًا: أي أهل بيتي يا هذا؟

قال له نعيم بثبات وهو يضغط على كلماته حتى يزيده غضبًا على غضبه: أختك وزوجها ابن عمك قد أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما.

دار في نفس نعيم: هو لن يقتل أخته، ولكنه سينشغل بها حتى أُخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أمره.

وحدث ما أراد نعيم، ونسي بطلنا ما كان قد عزم عليه من قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- وانطلق يريد بيت أخته فاطمة.

في هذه اللحظة كان في بيت أخته وزوجها سيدنا خبَّاب بن الأرت -رضي الله عنه- يعلمهما القرآن!

اقترب بطلنا من البيت؛ فسمع أصواتهم الخافتة تقرأ كتاب الله فلم يتمالك نفسه وبدأ عراكه مع باب البيت.

ضرباته القوية كادت تخلع الباب، وصوته الجهوري قد وصل إلى أقصى أطراف الأرض، وهو يأمرهم بفتح الباب، قام زوج أخته إلى الباب ليفتحه، وما إن فتحه حتى دخل بطلنا إلى الدار مندفعًا بغضبه الذي أعماه.

-ماذا كنتم تفعلون.. ها؟! ما هذا الصوت الذي كنت أسمعه؟! قالها بطُلنا بصوت كالرعد الهادر خلع قلبي أخته وزوجها.

ورغم هذا ردَّت أخته في ثبات: ما سمعت شيئًا.

قال لها: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه.

ولم يتمالك نفسه، وكان غضبُه كالبالون يمتلئ مع كل نفس حتى انفجر، فانطلق إلى زوجها يُبرحه ضربًا، كم كان قوي البنية مخيفًا، وكم كان زوجها ضعيفًا.

قامت أخته بكل شجاعة فوقفت بينه وبين زوجها تدافع عنه، فرفع يده نحوها، وهو الذي يُحبها حبًا عظيمًا، ولكن أي عمى يفوق عمى القلب، وأي عقل يبقى مع الغضب!

لطمها على وجهها لطمةً، قذفتها إلى الخلف؛ فسقطت وسال الدم على وجهها، رأى الدم على وجه أخته الحبيبة، فبدأ غضبه يتوارى خلف قلقه عليها.

وفي هذه اللحظة قام زوجها من على الأرض، ووقف أمامه يتحداه، وقال في عزة: نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

أمسكَت أخته بوجهه، ونظرت في عينيه والدم يثور في وجنتيها؛ فيزيد قلقُه عليها ويرى القوة والتحدي في عينيها فيعجب من قوتها، وقالت: وقد كان ذلك على رغم أنفك.

مؤمن رغم أنفه

وأتت اللحظة، اللحظة التي رفع الله فيها غشاوة العمى عن قلبه، من أين أتوا بكل هذه القوة والتحدي؟

كيف لهذا الدين أن يغيَّرهم هكذا؟

يدافعون عن دينهم بأرواحهم وبكل سهولة وبغير تفكير!

هل أنا على حق وهم على باطل، قد سحرهم محمد؟

أم هم على حق وأنا على باطل؟ أخشى على نفسي ومالي وسفارة قريش من الضياع.

لِمَ لا أفتح قلبي، وأسمع لهم، وأبحث عن الحق؟!

دارت كل هذه الأسئلة في عقله، بل قل في قلبه، وإذا به يجلس وينظر إليهم في انكسار مفاجئ ويقول: أروني هذا الكتاب الذي تقرأونه!

نظرت إليه أخته، وقد رأت بقلبها التغيُّر الذي ظهر على أخيها وقالت: يا أخي، هذا الكتابُ لا يمسُّه إلا طاهر وأنت مشرك نجس، يجب أن تغتسل حتى تمسه.

ضربة أخرى أصابت عمى قلبه، مشرك نجس!

أنا لا أريد أن أبقى على نجاستي!

قام بطُلنا في هدوء عجيب استجابةً للنور الذي بدأ بالسطوع في قلبه واغتسل ثم عاد، وأعطته فاطمة أخته الصحيفة حتى يقرأها.

بدأ يقرأ بلسانه وعقله وقلبه «**بسم الله الرحمن الرحيم**»

ياااااه ما أجمل هذا الوصف الرحمن الرحيم، أسماء طيبة طاهرة، قالها في نفسه ثم أكمل القراءة:

«**طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)**»[١]

تزلزل قلبه، وزالت الغشاوة عنه، انهارت جبال الشرك فيه خاشعة متصدعة من خشية الله، وجد نفسه يقول: ما أحسن هذا الكلام! ما أجمله!

نظر الجميع إليه غير مصدقين ما حدث، سبحانك يا رب، هذا الذي قد ناصب الإسلام العداء!

هذا الذي جاء يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم.

كيف تحول قلبه في لحظات؟

هل يسلم؟

كان سيدنا خبَّاب بن الأرت قد اختبأ عند دخول بطلنا دار أخته، ولكنه عندما سمع ما سمع ورأى ما رأى خرج إليه من مخبئه وقال

---

(١) سورة طه

له: يا ابن العم، والله إني لأرجو أن يكون الله قد اختصك بدعوة نبيه، فإني سمعته بالأمس وهو يدعو أن يؤيد الله الإسلام بك أو بأبي الحكم بن هشام.

اتسعت عيناه حين سمع دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- له وسأله: فأين رسول الله؟

قال خبَّاب: إنه في دار (الأرقم بن أبي الأرقم).

قام بطلنا يقصد دار الأرقم بحثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن بقلب غير الذي بدأ به رحلته، وما إن وصل حتى طرق الباب سائلًا عن رسول الله.

نظر أحد أصحاب النبي فرآه، ومعه سيفه، فرجع إلى النبي والخوف يقطر من حروف كلماته، وقال: يا رسول الله، إنه يسأل عنك متوشحًا سيفه.

تساءل الصحابة، هل يريد أن يقتل النبي؟

قام لهم أسد الله القوي العظيم حمزة بن عبد المطلب، وقال: فأذن له فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله: «ائذنوا له».

فتحوا له فدخل إلى تلك الدار المباركة التي شهدت نشأة الإسلام وبداية دعوته، ثمَّ أدخلوه إلى غرفة جانبية وقام له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما إن رآه رسولنا الكريم ذو الهيبة والوقار؛ حتى أمسكه بشدة من ردائه ثم جذبه إليه جذبةً قويةً وقال: «ما جاء بك؟»

وعندها نظر بطلنا إلى رسول الله نظرة حب وإجلال وقال بصوت منخفض: يا رسولَ الله جئت لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله.

نظر إليه النبي في سعادة لا تُوصف وجعل يقول: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر».

عرف الصحابة بإسلامه، فدخلوا عليه وقد فاضَتْ السعادة في الدار حتى فرح الهواء حول الدار بإسلام بطلنا العظيم، دخل الصحابة يهنئونه على إسلامه، أمَّا هو فكان معهم بجسده، ولكن قلبه يسجد لله شكرًا على تلك اللحظة.. لحظة الإبصار! وكم مرت لحظة كتلك على غيره من المشركين فما استجابوا ولا أسلموا.

كان إسلامه لحظةً فارقةً في تاريخ الإسلام.. عمر!

سمعها عمر، وكان قد استغرق بكل كيانه في قصة الإمام؛ فانتبه ونظر وظهر في عينيه الدفاع عن نفسه وكأنه يقول: نعم أنا معك أتابع القصة، هذا الشرود إنما هو شرود في التفاصيل لا عنها.

انتبه أن الإمام لا يعرفه، فكيف يعرف اسمه؟

وقبل أن يكملَ أسئلته في نفسه إذا بالإمام يُكمل: نعم يا سادة، بطل قصتنا هو الفاروق أمير المؤمنين العظيم المبشَّر بالجنة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- انظروا كيف تحول من عدو للإسلام يعذب المسلمين! محب للخمر والشهوات، خرج وهو يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم، هذا البطلُ الزاهدُ العابد الذي حكم الدنيا؛ فامتلأت الدنيا على يديه عدلًا ونورًا، وانتشر الإسلام في أرجائها، وكل ذلك بدأ عندما استجاب للحظة الإبصار ولم يُفوّتها، سار وراء النور؛ فوصل

إلى الله، فاللهم ارفع عن أعيننا غشاوة الدنيا، وارفع عن قلوبنا عمى الشهوات واجعلنا نُبصر بقلوبنا الطريق إليك.

وهكذا انتهت قصتنا اليوم، جزاكم الله خيرًا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قام المصلُّون كي يصلوا صلاة الضحى بعد الدرس طلبًا للأجر، وقام عمر كي يصلي معهم، وهو لا يعلم أي صلاة تلك، ولكنه فعل مثلهم ثم انصرف عائدًا إلى داره القريب تتردَّد في رأسه جملة الإمام: «**وكل ذلك بدأ عندما استجاب للحظة الإبصار ولم يُفوّتها، سار وراء النور فوصل إلى الله**».

هل هي مصادفة أنه عمر، والقصة عن عمر؟

أم إنَّ هذه رسالة أخرى من الله، ولحظة أخرى من الإبصار قد ساقها الله إلى قلبه حتى يرى أكثر وأكثر.

«حاضر يا رب، أنا مش هفوّت اللحظة ديّه، ومش هرجع تاني زي ما كنت وأوعدك من النهارده هعمل كل اللي يقربني منك، وعد يا رب».

من هنا بدأت حكاية عمر، ومن هنا انطلق!

لكن هل سيكمل الطريق؟

كانت هذه قصته يا صديقي، ولكن ماذا عنك أنت، كم لحظة كتلك مرت عليك؟!

وفاة حبيب أو صديق، كلمة من أحدهم لمست شيئا ما بداخلك، سؤال نبت من العدم في ذهنك؟

«إلى متى البعدُ عن الله؟!»

والسؤال: هل استجبت لها؟! وإن استجبت، هل أكملت الطريق؟!

سأترك لك هذه السطور القادمة؛ لتكتب فيها بخط يدك ما يمليه عليك قلبك من ذكرى تلك اللحظات، ولا تحزن إذا فاتت بغير استجابة منك، المهم أن تحيي هذه الذكرى في قلبك ولنلتقي في الجلسة القادمة لنعلم كيف سنكمل الرحلة؟

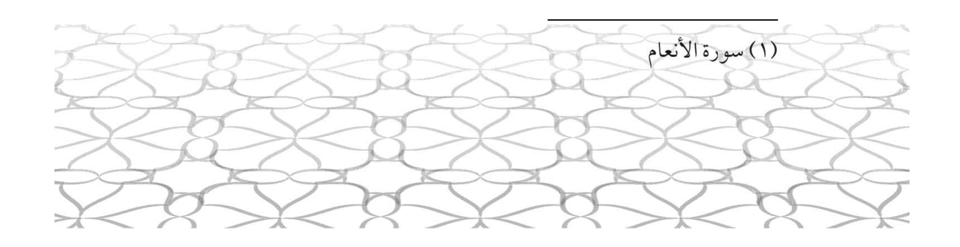


اليوم الثاني

أن تختار الطريق

«وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١)

(١) سورة الأنعام



ها قد عدت، كنت أعلم أنك لن تتأخر.

هل تعلم أني أملك تلك الحاسة؟ ذلك الصوت بداخلي أخبرني أنك لن تتأخر..

وكالعادة لم يكذبني.

ما رأيُك أن نبدأ جلستنا الثانية؟

أنت تعلم القواعد جيدًا، مكانك المفضل، ومشروبك المنعش، والإضاءة المناسبة، حسنًا، هكذا لا ينقصنا شيء، هيا بنا نكمل الرحلة.

انتهينا في جلستنا الأولى عند ذكرى تلك اللحظات التي أرسلها الله إليك حتى ترفع عن قلبك غشاوة الدنيا، وتنثر في صدرك بذور العودة اليه سبحانه!

لا عليك إن استجبت لها في حينها أو لم تستجب! فليست كل البذور مثل بعضها؛ فمنها ما ينبت في أقل من يوم، ومنها ما ينبت بعد أكثر من سنة!

هل سمعت عن شجرة الخيزران (البامبو) الصينية؟ شجرةٌ عجيبة بحق! أربع سنوات بعد الغرس والسقيا والاهتمام، ولا يظهر منها فوق سطح الأرض إلا نبتةً صغيرةً لا تتوقع أن ترى مكانها شجرة عملاقة يومًا ما!

و لكن بعد هذه السنوات تنمو هذه الشجرة فجأة أربعة وعشرين مترًا دفعة واحدة، وكأنها تعوض ما فاتها، فما أدراك أنك لست خيزران؟

قد تكون، فهنيئا لك أنك أحييت ذكرى تلك اللحظة في قلبك،

ودعنا لا نفلتها هذه المرة، ولنجعلها نقطة البداية في طريق الوصول إليه سبحانه؛ كي نعوض ما فات من أعمارنا.

نعم هناك طريق لابد لك أن تسلكه حتى تصل، فكم من عبد استجاب للحظة الإبصار، ولكنه انطلق في غير الطريق المطلوب؛ فتاه ولم يصل إلَّا إلى نهاية مسدودة؛ فإما أصابه الإحباط، فعاد قبل أن يُكمل الطريق أو أصرَّ على أنه قد وصل إلى الطريق الصحيح، كالذى تاه في الصحراء؛ فرفض أن يقبل حقيقة الأمر، ونظر إلى سراب في نهاية الطريق، فأصر على أنه قد وصل إلى غايته، والحقيقة أنه يُطارد سرابًا!

والجميل في طريقنا أنَّ الإشارات التى تدل عليه واضحة لا لبس فيها، لا تشبه تلك التى نراها فوق الجسور في بلادنا.

تعرفها؟ تلك التى تختفي عندما تحتاجها! تسيرُ في طريقك فتجد اللافتة تُرشدك إلى إكمال الطريق مباشرة، لا تنحرف يمينًا ولا شمالًا، وإذا بك بعد أمتار قليلة تواجه مفترق طرق، لا وفقكِ الله أيتها اللافتة! إلى أين أذهب وكيف أصل؟!

فتعال يا صديقى، نعرف الطريق فلا نتوه؛ فنكون كالذي أُحبط من التيه؛ فعاد من حيث بدأ، أو كهذا الذي طارد سرابًا لن يصل إليه ولو عاش عمره كله يجري بكل ما أُوتي من قوة.

مفترق الطرق

تخيَّل معي طريقين، الطريقُ الأول ترى على يمينه شلالات من ماء فضي تنساب بين جبال يكسوها اللون الأخضر، وعلى شماله غابة من أشجار عملاقة يُنافس خضارها خضار كسوة الجبال، يمتد ظلها فلا يسمح لخيوط الشمس أن تمر إلى الطريق إلَّا على استحياء، راسمًا لوحة خلَّابة من الظل والنور بطول الطريق.

أمَّا الطريق الآخر فهو طريق صعب، الأرض غير معبَّدة للسير، حقول الشوك تنتشر هنا وهناك، كل ما تراه صخورًا ورمالًا طوال الطريق، الشمس تفرض سطوتها، فلا صوت يعلو فوق صوت سيل خيوطها وهى تنهمرعليه، فأي الطرقين تختار؟

أظن أن الاختيار سهل يا صديقى، نفسك وبدون تفكير ستختار الطريق الأول، فأي مجنون هذا الذي يبيع طريقًا فيه تلك المتعة والراحة كي يشتري طريقًا مُرهقًا لا يكسوه إلا التعب والمشقة؟!

عندك ألف حق، ولكن دعني أعترف أني قد أخفيت عنك قبل السؤال معلومةً قد تغير اختيارك تمامًا.

الطريق الأول الذي يشبه الجنة، طريق مسدود لا تجدُ في نهايته شيئًا، لا يوصلك إلى مكان، ولا يحقق لك غاية.

وأمَّا الطريق الآخر، ففي نهايته تجد بيت أحلامك ومستقر راحتك، تجد أمانك وسعادتك.

والآن دعني أكرر عليك السؤال، أي الطريقين تختار؟

هل ستقول لي سأختار طريق الشلالات والغابات؟

لا أظنك ستفعل، بل بالطبع ستختار الطريق الذي يُوصلك إلى وجهتك ولو كان صعبًا، فما فائدة جمال الطريق إن لم يصل بك إلى وجهتك!

وماذا ستقول لو أخبرتك أن طبيعة كل طريق هي في الأصل غير ما ترى؟

فالطريق الأول، جماله جمال خادع، إذا دخلته اختفى وظهرت مكانه الأشواك والأهوال، والطريق الآخر إذا نظرت إلى أحجاره بعين قلبك، وجدتها سبائك الذهب وترابه الزعفران، وحقول الشوك أزهارٌ نادرة تنثر عبيرها في الأجواء.

هذه حقيقة الطريقين، طريق الشيطان ذو الصورة الخادعة، زخرف أخفى خلفه القبح بذاته، وشمٌ رُسِم لِيُخفي جرحًا مفتوحًا لم يطهّر؛ فأخفى في باطنه القيح والصديد.

وطريقُ الله الذي شوَّهه الشيطان في أعين كثير من الناس، فظنَّت

أنفسهم قبح الطريق؛ فلم يروا من الورد إلا الشوك وزكمت أنوفهم عن رائحة المسك وعَميَت أعينُ قلوبهم؛ فتساوى عندهم الظلام والنور.

«حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»

هكذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ووصف لنا طريقي الجنة والنار.

الشهوات

انظرْ إلى النار، هل تراها؟ لا ياصديقي إنك لن تراها، ولكنك سترى الشهوات التي تزين أول الطريق إليها، سترى جمال الشهوة يغلف بابها فلن ترى ما خلف الباب من الأهوال.

الشهوة، ما أجمل تلك الكلمة التي تعبر مباشرة عن كل ما تطلبه النفس وتميل إليه!

الأمرُ الذي نرجو حدوثه نقول عنه: تشتهيه أنفسنا، وإذا أعجبنا الطعام قلنا: طعام شهي.

ها هي الشهوة على الباب تدعوك، فهل تدخل؟! هذا هو الاختبار يا صديقي.

أن تُمتحن بما تشتهيه نفسك، فتخيَّل معي لو أن الله تعالى نهانا عن شيء تكرهه أنفسنا، فأين الاختبار؟

لا تأكلوا اللحم العفن، ولا تشربوا من ماء الصرف الصحي!

في الأصل لم نكن لنفعل، فلمَ النهي وأي اختبار هنا؟!

و لكن انتبه، فنهي الله تعالى لنا ليس عن مطلق الشهوة، ولكنه نهي عن الحصول على ما نشتهيه من طريق حرام.



ومن تمام الاختبار يا صديقى حرية الاختيار، ألهمنا الله تعالى الفجور والتقوى، وعرفنا الخير والشر وترك لنا الاختيار، فإما أن تُغذي في نفسك نبتة الخير فتنمو حتى تصير درعًا يحميك من الفتن، وإما أن تُسمِّن فيها وحش الشر حتى يأكل روحك؛ فلا تعرف المعروف من المنكر، هو اختيارك الحر الذي عليه حسابك المنتظر!

فالعلاقة بين الرجل والمرأة شهوة، والمال شهوة، والقوة شهوة، والسيطرة شهوة. وأنت حر والاختيار لك، فهل تصبر على طريق طويل مُجهد حتى تصل إلى ما تشتهيه، أم تختصر الطريق إلى حرام ينتهي بك إلى شهوتك في غير مشقة ظاهرة، بابٌ ظاهره الشهوة وباطنه النار، فلا تنخدع.

المكاره (الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية)

وكذلك إذا نظرت إلى طريق الجنة ستجد على بابه المكاره -أوامر ضد شهواتنا ورغباتنا ونواهٍ عن محرمات نشتهيها- ولكنها تخفي خلفها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فإذا رأيت لافتة المكاره على الباب فاعلم أنه الباب المطلوب، هذا الباب الخشبي العتيق يُخفي خلفه قصرًا عظيمًا من الذهب الخالص، فلا تجعل نفور نفسك من قدم الباب يحول بينك وبين أن تسكن القصر! ولكن لتسكن القصر لابد لك من الصبر.

الصبر.. كلمةٌ دائمًا ما نسمعها عند الشدائد والمحن، اصبر على ابتلائك، اصبر على فقرك، اصبر على مرضك، دائمًا نربط الصبر بالبلاء!

والحق أن هناك صبران أعظم بكثير من الصبر على البلاء، وهما طريقك إلى الجنة، **الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية.**

فالصبر على البلاء، صبرٌ على شيء قُدِرعليك لا يدَ لك فيه، ولا تستطيع أن تصرفه عن نفسك، فأي يد لك في الفقر أوالمرض أوالفقد أوالضعف؟

وأي قوة لديك كي تصرف البلاء عن نفسك؟ عبدٌ مبتلى، ومن تمام عبوديته أن يشكرَ سيَّده، ويصبرعلى امتحانه ويستعين بسيده على ما أُبتلي به.

أما الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، فهما محض اختيار لصاحبهما، هو يملك أن يصبر أو لا يصبر، هو حرٌ مُختار لفعله مُتحمل لنتيجته، فها هو المسجد وها هي الحانة، فاختياره للمسجد، وصبره عن متع الحانات اختيارٌ لا جبر فيه.

ولهذا كان صبره هنا أعظم من صبره على البلاء.

وتعال نتأمل سويًا قصة يوسف -عليه السلام- ونقارن بين صبره حين ألقاه إخوته في البئر، وبين صبره حين دعته امرأة العزيز لنفهم الفرق.

الصبر على البلاء في قصة يوسف هو صبره على إلقاء إخوته له في البئر وصبره على تفريقهم بينه وبين أبيه، وصبره على بيعه وتحوله إلى عبد مملوك، إذا نظرت لرأيت أن كل هذه الأمور قد قدَّرها الله عليه فلا هي باختياره، ولا يد له فيها وليس في مقدوره -وهو العبد الصالح- إلا الرضا بها والصبر عليها.

أما الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته، فيتجلى في مشهد امرأة العزيز حين راودته عن نفسه، هي سيدته وهو عبد مملوك عندها، وهي التي تدعوه، امرأة جميلة ذات منصب، وهو شاب فتي أعزب ذو شهوة ولا رقيب ولا شاهد، وفوق كل ذلك فإنها تهدده بالسجن إن لم يستجب لها، كل الظروف مهيأة فمَا الذي منعه؟! منعه اختياره بكامل إرادته للصبرعلى طاعة الله والصبرعن معصيته، فلو شاء ما صبر ولأنفذ شهوته.

صبرٌ على صعوبته، يدلُّ على تمام الحب مع تمام الخوف من الله والرغبة في ما عنده من الجزاء.

أنواع الصبر على الطاعة

و لكن انتبه يا صديقي، فالصبر على الطاعة ليس بالأمر الهين، فهو يحوي في طيَّاته الصبرعلى أمورعدة:

الصبر على المداومة: بغير ملل يؤدى إلى الانقطاع، وأنت تعلم مشقة هذا الأمر بدون أن أخبرك، فكم مرة شكوت إلى من حولك صعوبة الانتظام في الصلاة؟!

وكم مرة أحسستِ رغم حبكِ لحجابكِ بصعوبة ارتدائه على نفسك؟!

الصبر على مقاومة الرياء: فمن طبيعة النفس أنها تحب الثناء، تُحبُّ أن ترى الإعجاب في أعين الناس، فتجد نفسك بعد العمل الصالح الذي قُمتَ به سرًا طالبًا لرضا الرب العلي؛ تدعوك لتُحدثَّ به من حولك، فإذا حدَّثت بِهِ من حولك؛ شكروا لك فِعلك وأثنوا عليك؛ فتفرح بالثناء وتتعلق به وتتحول نيتك من عمل لنَيْلِ رضا الله إلى عمل لِنَيْلِ ثناء الناس؛ فينتصر الرياء.

فأي صبر أشد على النفس من إخفاء العمل عن الخلق طلبًا لرضا رب الخلق.

الصبر على التعلم: فلابد في الرحلة إلى الله من تعلُم، والتعلمُ لابدَّ له من عِلْم ومُعَلِم، فالصبرُ على العلم وما يحتاجه من وقتٍ ومجهود، والصبر على المُعلِم لشدته أو لكونه أصغر في السن مثلًا أو لغير ذلك من الأمور التي يصعب على نفس المُتعَلِم تحملها؛ لهو صبرٌ عظيم!

الصبر على قلة الصحبة: وهو أمر نلمسه يوميًا في حياتنا، إذا صلَّيت، أطلقوا عليك (عم الشيخ)، وتصبح مادةً للسخرية بمجرد أن تغضَّ بصرك في حضرتهم!

متمسكة بحجابكِ، «يا بنتى أنتِ لسه صغيرة، عيشي شبابك»، وهكذا.

الصبر على العداء: «لم يأتِ أحد بمثل ما جئت به إلا عودي»، قالها ورقة بن نوفل للنبي -صلى الله عليه وسلم- أول ما نزلت عليه الرسالة، وهذه حقيقة الأمر.

أعداء كُثُر من شياطين الإنس والجن سيقفون لك ويُظهرون العداوة؛ فقط لأنك قرَّرت السير في طريق الله!

ولهذا، فالصابرون على الطاعة هم القلة، وأكثر الناس لا يصبرون.

قال الله: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا»[١]

اقتلوا أنفسكم!! كم هو أمر شديد على النفس أن تقرِّر نهايتها بنفسها، ولكن لو أمر الله بهذا؛ وجب على العبد الطائع الامتثال لسيده المحبوب.

هل تتذكر قصة ذبح إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما السلام؟

أمرٌ من الله لنبيه في رؤيا «يا إبراهيم اذبح اسماعيل»، فما كان من العبد المحب إلا أن يطيع، ولكن الأعجب من هذا هو رد فعل إسماعيل عليه السلام: «يا أبت، افعل ما تؤمر».

أطاع أمر ربه على صعوبته، وامتثل لأبيه في هدوء عجيب؛ ولهذا نجَّاه الله واستحق مكانته عنده.

قليل هم الطائعون الصابرون؛ ولهذا كان جزاؤهم عظيم.

«وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۞ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا»[٢]

(١) سورة النساء

(٢) سورة النساء

انظر يا صديقي، كيف ترتقي الطاعةُ بصاحبها من وسط عامة العباد وترفع مكانته لتجعله في الجنة جارًا لأنبياء الله الذين ربطوا الأرض بوحي السماء، وللصديقين من عباد الله الذين اتبعوا الهدى فتَبِعُوا الأنبياء فكانوا صحابتهم وخاصتهم، ويُحشر ببركتها مع الشهداء الذين ضحُّوا بأرواحهم في سبيل الله؛ فنالوا بذلك المقام العالي والمكانة العظيمة، ويعيش بفضل طاعته مع الصالحين الذين عبدوا الله كما أراد؛ فكانوا عنده من المُكرمين.

تخيَّل أن يكون جزاء صبرك على الطريق أن تجلس كل يوم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الجنة تراه وتسمعه، يُناديك باسمك ويضحك لك، ترى بعينيك أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وسادتنا الصحابة الكرام، تسمع منهم قصصَ الأيام الأولى للإسلام، بطولاتهم وتضحياتهم، تسألهم ويجيبونك وتجاذبهم أطراف الحديث كما نفعل أنا وأنت الآن، فأي فوز وأي جائزة.

وليست صعوبة الصبر وحدها ياصديقى هى السبب في قلة من يستجيب، ولكن الأمر أخطر من ذلك، فبين جنبيك يسكن أحد ألد أعدائك ويبيت كل ليلة، يُراقبك ويعلم ما تحب بل ويتحكم فيه، يقود تفكيرك إلى حيث يريد، هل تحب أن تعرفه؟

حسنًا، انظر في المرآة.

نعم، عدوك هو نفسك!

النفس

ما هذه النظرة التي ظهَرت في عينيك؟ لا تخف، فالسيطرة على الأمر تحتاج الى معرفة ومجهود، فإذا عرفت عدوَّك جيدًا وجاهدته صابرًا مستعينًا بالله؛ انتصرت عليه لا محالة! «فخليك جامد كده متكسفناش».

تعال، نتعرف عليه أولًا:

النفس واحدة، ولكن لها ثلاثة أوصاف، وصفها الله لنا في كتابه الكريم.

نفس مطمئنة

«يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي»[1]

(١) سورة الفجر

هذه النفس هي الهدف الذي سنسعى إليه، نفسٌ تُحب الطاعة، وتجد الراحة في العبادة، متعلقة بربها، تعبد الله بإحسان، فلا تجد الراحة والاطمئنان إلا ساجدةً بين يديه.

إذا قلت لها: هيَّا إلى الصلاة؛ صلَّت بلا تعب، بل تجد راحتها؛ فتطلب منكَ المزيد.

إذا أمرتيها بالحجاب طلبت منكِ الستر أكثر وأكثر، تطمئن بالذكر والصلاة والطاعات وتعيش على ذلك حتى تلقى ربها، فيجزيها الجنة ويرضيها كما أرضته سبحانه.

النفس اللوامة

«لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة»

يُقسم الله بالنفس اللوامة، ولا يقسم سبحانه إلا بعظيم، وعظمة هذه النفس أنها هي التي تُذكرك كلما ابتعدت عن طريق الله، جهاز إنذار جعله الله بداخل كل واحد فينا يصرخ فيه أن يستقيم كلَّما حاد عن الطريق.

أيُّ رب عظيم كريم هذا الذي يضع برحمته في داخلنا ما يُذكرنا به إذا نسينا، ويضبط اتجاهنا إذا تهنا عن الهدف وانشغلنا بمتع زائلة عن رضاه سبحانه وتعالى.

ولكن خطورة الأمر تكمن في أن هذه النفس تستجيب لطلبك؛

فتفعل ما تطلبه منها بغير سؤال، تلومك على ذنبك وبُعدك عن الله فإذا استجبت لها واجتهدت في توبتك وعودتك إلى الله -تبارك وتعالى- فكأنك تأمرها أن تعمل أكثر وأكثر فتصبح مساعدك الأمين وناصحك المحب الذي يظهر كلَّما احتجته، أما إذا استقبلت لومها بتجاهل ونصيحتها بلا مبالاة، فكأنك تطلب منها أن تصمت؛ فيخفت صوتها رويدًا رويدًا حتى تسكت تمامًا وتتركك خلفها فريسةً للنوع الثالث.

النفس الأمارة بالسوء

«وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء»

ها هو عدوك اللدود، النفسُ الأمارة بالسوء، على عكس النفس المطمئنة التي تعيش بين الناس، ولكنها ساجدة تحت العرش تطلب الرضا وتتحرك بالحب والخجل منه -تبارك وتعالى- تأتي هذه النفس التي تتعلق بأصلها الطيني، تُحركها الشهوة واللذة فلا ترى الغيب ولا تتأثر بوعود الآخرة، شرهة في تحصيل كل ما هو دنيا ولا يهمها من أين تحصل عليه ولا كيف! حلال كان أو حرام، تجدها سريعة الغضب لأقل الأسباب، سيئة الخلق لا تعرف أدبًا ولا احترامًا، غافلة عن متعة الطاعة والقرب من الله وعن شكر نعمه سبحانه وتعالى، وتخوض في أعراض الخلق لا تحفظ لهم حرمةً ولا تعرف لهم قدرًا، لا يهمها إيذاء الناس لو كان لها في ذلك مصلحة، تبحث عن رفعتها في الاستهزاء بالآخرين والحط من قدرهم، عدوٌ خفيٌ ما أخطره، فهل ستترك له القيادة؟!

إذًا، فالنفس وكأنها جهاز واحد وله ثلاثة أنماط، ما زلت لا تفهمني! إذًا دعني أضرب لك مثالًا:

انظر إلى مكيف الهواء الذي في غرفتك، إن كنت من الأشخاص الذين يملكون واحدًا في غرفهم -اللهم بارك- وإلا تخيله معي في صمت، ستجد فيه أنماطًا مختلفة.

نفسُ الجهاز به النمط البارد والساخن والجاف، وما ينقل بين هذه الأنماط هو جهاز التحكم.

وكما يتضح لك من وصف كل حال للنفس، لا سبيل إلى أن تكمل السير في الطريق إلى الله إلَّا لو زكَّينا تلك الأمارة بالسوء وجاهدناها؛ كي تنبت تلك المطمئنة المحبة الطائعة.

الآن، وقد وعينا جدية الأمر، فتعال معي نعرف كيف نمسك بأيدينا جهاز التحكم في النفس؟!

جهاد النفس

«وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا»[1]

هدية لك من الله حتى تطمئنَّ وتعلم أن جهادك لنفسك آخره الهدى، وهذا وعدٌ من الله، فلتقرأ الأسطر القادمة وكلك حسن ظن به أنه سينصرك على نفسك ويجعلك على صورة لم تكن تتخيلها من قبل.

نعم هو جهاد، قال صلى الله عليه وسلم: «والمجاهدُ من جاهد نفسه في طاعة الله»

وأول جهادك ضد تلك الأمارة بالسوء، أن تحيي نفسك اللوامة، أن تعطيها قبلة الحياة؛ فتبادلك الأمر، وتردَّ لك الجميل فتحيي قلبك.

(١) سورة العنكبوت

إحياء النفس اللوامة

كيف نحيي النفس اللوامة؟

يقول الله:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ»

ومن أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه:

«**حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم**».

هل تتذكر آخر مرة وقفت أمام المرآة تحاسب نفسك على شيء؟

متى كانت آخر مرة سألتها عن فعلها، حلال هو أم حرام؟

يُرضي الله أم يُغضبه؟

كم مرة أمسكت بقلمِكَ تُدوّن ذنوب يومك؛ لتحاسب نفسك عليها؟

هل فعلتَ ذلك من قبل أصلًا؟

تلك هي المشكلة ياصديقي، كثير منَّا يمضي في الدنيا أعوامًا كثيرة، وقد ينقضي عمره كله، وهو يسير بلا هدى ولم يلتفت ولا مرة ليسأل: هل أنا على الطريق؟

تخيَّل معي هذا السائق الذي خرج من بيته يركب سيارته، ولا يعلم إلى أين سيذهب ولا أي طريق سيسلك؛ فقادها إلى لا شيء؛ حتى انتهى وقودها وسط صحراء لا حياة فيها ولا نجاة، فأي حماقة هذه! فهل تكون مثله؟

حتى لا تكون مثله يا صديقي، فواجب عليك أن تبدأ بحساب نفسك، حساب تعرف به هل أنت على الطريق؟ أم أنَّ الأمر يحتاج إلى المراجعة.

سأقترح عليك طريقة للمحاسبة، وسنتعلم سويًا كيف نستخدمها، ولكن تذكَّر أن الهدف من محاسبة النفس ليس جلدها وغرس اليأس فيها من الوصول إلى رضا الله، ولكن لنقف على حقيقة أنفسنا فنلومها على التقصير في حق الله كي نشجعها على السير إليه بتصحيح أخطائها ودفعها إلى المزيد من الاطمئنان في رحاب العبودية بين يدي الله.

والفارق بين جلد النفس ومحاسبتها شاسع، يا صديقي.

فالأول (جلد النفس) يُرَّسِخُ في نفسك الإحساس بالضعف والهزيمة، يُنْبِتُ في داخلك ازدراء نفسك واحتقارها، يؤدي بك مع الوقت إلى كراهيتها، وقد يؤدي بك إلى أن تؤذي نفسك أوتفقد الأمل فيها؛ فتتركها للضياع.

أما الثاني (محاسبة النفس) فهو تقييم موضوعي لنقاط القوة والضعف بغير احتقار للنفس أوتقليل منها؛ فيعرف المرءُ نقاطَ ضعفه التي يجب العمل عليها ونقاط قوته التي يستطيع أن يرتكز عليها؛ فيستعد للتحدي ويبدأ جهاده مستعينًا بالله وآخذًا بالأسباب، وهويعلم أخطاء ماضيه وأسبابها؛ فلا يُؤكل من حيث يُؤكل كل مرة، فيكون هذا الحساب سبيله للنصر وطريقه للتغيير.

لا مزيد من «أنا فاشل، أنا لا شيء، أنا عمري ما هتغير، مفيش فايدة»، ونعم للمزيد من «أين الخطأ؟ كيف سنصلحه؟»

والآن، تعال إلى طريقة المحاسبة المقترحة.

نموذج محاسبة النفس

في البداية سنكتب بعض الأسئلة لأنفسنا حتى نحدد المطلوب من الطاعات التي نريد أن نعتادها، ونسجل المعاصي التى نرغب في الإقلاع عنها؛ لنحاسب أنفسنا عليها يوميًا.

(ملحوظة: الأسئلة التالية نموذج للمحاسبة، وتستطيع أن تتخذه مثالًا وتغيَّر فيه ما شئت).

ما الطاعات التي أريد المحافظة عليها؟ (طاعات أحاسب نفسي عليها يوميًا)

١- الصلوات المكتوبة (الفجر، الظهر، العصر، المغرب، العشاء)

٢- سنن الصلاة (ركعتان قبل الفجر، أربع ركعات قبل الظهر وركعتان بعده، ركعتان بعد المغرب، ركعتان بعد العشاء).

٣- سنّة الضحى وقيام الليل.

٤- صيام الإثنين والخميس.

٥- صلة الرحم.

٦- بر الوالدين.

(لك أن تضيف من الطاعات ما شئت، ولكن ملحوظة هامة: اختر ما يناسب مرحلتك فإذا كنت لا تصلِّي مثلًا، فالمهم الآن أن تلتزم بالصلوات المكتوبة، لا أن تحاول الالتزام بالسنن حتى لا تُثْقِلُ على نفسك في البداية، ولهذا فاختر بعناية ما ستُحاسبُ عليه نفسك).

ما المعاصي التى أريد التخلص منها؟ (معاصي أحاسب نفسي عليها يوميًا)

١- الكذب.

٢- الغيبة.

٣- إطلاق البصر.

(ولك أن تُضيف ما شئت من المعاصي، واجعل أكثرها تأثيرًا عليك في أعلى القائمة)

بعد أن حددنا الطاعات المطلوب الالتزام بها والمعاصي المراد التخلص منها، يأتي نموذج الأسئلة اليومية للمحاسبة، وطريقة التقييم ومراجعة النتائج، والبحث عن طرق تحسينها.

قواعد هامة

١- التقييم من ١٠ درجات على حسب مدى التزامك بالمطلوب.

٢- تعطي نفسك العلامة الكاملة في حالة الالتزام التام، ثم تقل حتى تصل إلى الصفر في حالة عدم الالتزام تمامًا.

مثال على طريقة تقسيم الدرجات:

كم تعطي نفسك على التزامك بصلاة الفجر مثلا؟

- في حالة الصلاة في المسجد ١٠ درجات (للرجال).

- في حالة الصلاة على الوقت في المنزل ٧ درجات (للرجال).

١٠ درجات (للنساء).

- في حالة تأخير الصلاة، ولكنك صليتها داخل وقتها ٥ درجات

- في حالة الصلاة قضاء، درجتان.

- في حالة عدم الصلاة صفر.

يأتي بعد التقييم، السؤال التالي:

فى حالة التقييم بأقل من ١٠ درجات، فما السبب؟

ثم السؤال الأخير:

كيف نحسن هذه الدرجة؟

مثال توضيحي

لنفترض مثلًا أني تأخرت عن صلاة المغرب وصليتها قبل العشاء بعشر دقائق.

- كم تعطي نفسك على التزامك بصلاة المغرب؟

(٥ درجات)

- في حالة التقييم بأقل من ١٠ درجات، فما هو السبب؟

- كنت مشغولًا؛ فلم أنتبه إلى دخول وقت المغرب.

- كيف نحسن هذه الدرجة؟

- أرى أن أضبط المنبه على موعد الأذان لكل صلاة؛ حتى أعلم دخول الوقت.

وهكذا نفعل في كلِّ طاعة أو معصية، نضع تقييمًا تدريجيًا من ١٠ درجات، نقيِّم النتيجة، نبحث عن السبب ثم نبحث عن كيفية التطوير.

في أول الأمر لن يكون الأمر سهلًا، وقد تجد صعوبة في وضع التقييم أو لا تجد سببًا للنتيجة أو حتى يصعب عليك إيجاد طريقة

للتطوير والتحسين، وهنا أنصحك أن تُشارك أحد أصدقائك في الأمر، وتتبادلا الأفكار، وأن تكونا عونًا لبعضكما في إيجاد الأسباب وسبل التطوير، فاختر أحد أصدقائك وتواصل معه الآن، واشرح له الفكرة، وابدآ سويًا، ولا تفقد صبرك وتيأس من نفسك، فمجرد تعديل بسيط كل فترة؛ سيؤدي إلى فرق عظيم مع مرور الزمن!

هل سمعت عن أثر الفراشة؟

دون الدخول في تفاصيل كثيرة، يكفي أن تنظر إلى هذا الفرق الحسابي المدهش

تخيَّل أن الرقم ٠,٩٩ فعل (طاعة نريد أن نفعلها مثلا) كررناه ثلاثمائة وخمس وستين مرة وكأنه شيء نفعله يوميًا لمدة سنة، لكان التعبير الحسابي عنه كالتالي:

$$٠,٩٩^{٣٦٥} = ٠,٠٣$$

تعال نتخيل لو أننا أحرزنا تحسنًا طفيفا جدًا في هذا الفعل فجعلناه ١,٠١ وكررناه لمدة عام أيضًا، لأصبح التعبير الحسابي عنه كالتالي:

$$١,٠١^{٣٦٥} = ٣٧,٧$$

عملية حسابية بها فرق طفيف، مجرد ٠,٠٢ بين الرقمين، ولكنه عندما تراكم ثلاثمائة وخمس وستين مرة -عدد أيام السنة- صار الفرقُ كبيرًا جدًا، فلا تستهن بالفرق البسيط!

هذا هو المطلوب من حسابنا اليومي، اكتشاف نقاط الضعف والعمل عليها، وإحداث فرق طفيف كل يوم، وانظر إلى نفسك بعد عام؛ وتعجَّب من التغيير.

وهكذا لو انتظمنا على حسابنا هذا وصبرنا عليه؛ ستُبعَثُ أنفسنا اللوامة من جديد؛ لتأخذ بأيدينا كي نعبرَ الجسرَ من النفسِ الأمارةِ بالسوءِ لنصلَ إلى تلك النفس المطمئنة المرغوبة، ولكن لا تترُكْ نفسك اللوامة وحيدة في هذا الجهاد بل يجب عليك أن تساعدها في تأديب نفسك الأمارة بالسوء!

أحب أن تسألني: كيف؟

وسأجيبك.

تربية النفس الأمارة بالسوء

يقول الله: «فَأَمَّا مَن طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى»[(١)]

إذًا، فطريقك إلى الجنة في تربية هذه الأمارة بالسوء حتى تنتهي وتعود إلى اطمئنانها، فتُخالف هواها وأحلامها الوضيعة؛ لتنطلق إلى نعيم قرب الله.

فإليك ياصديقي بعض الاقتراحات في كيفية تربيتها، ولكن قبل أن تقرأها، اطلبْ العونَ من الله وادع أن يوفقك..

(اللهم انصرنا على أنفسنا، وزكّها، واجعلها كما تحب وترضى).

(١) سورة النازعات

١. خالف هواها

النفسُ الأمارة تُحب الراحة والمباح كما تحب الحرام؛ ولذا وجب عليك مخالفتها في ذلك كله؛ حتى تنضبط.

خذ من الراحة ما يكفيك ولا تزد، وخذ من المباح ما يسليك ولا يلهيك، فإن نمت سبع ساعات مثلًا فيكفيك ذلك ولا تطلب المزيد، وإن لعبت ساعة في يومك، فهذا مناسب لترويح روحك، أما ما دون ذلك من الأوقات فاشغلها بالطاعات وما يفيدها ويقويها من شئون الدنيا، واجبرها على ذلك، ولا أظن أنني في حاجة لإخبارك أن تقاومها إذا دعتك للحرام من الأفعال والأقوال، وجاهدها في ذلك أشد جهاد، فالنفس كالطفل الرضيع، إذا أردت أن تفطمه، منعته من الرضاعة وعوَّدته على ذلك حتى يعتاد.

ولكن لا تنس أنه لابد لكل منا من استراحة، إجازة لا يتبع فيها القواعد ولا يفعل فيها المألوف، وفي هذه الاستراحات من الجيد خرق القوانين المباح خرقها، فتنام زيادة عن المعتاد أو تسهر أكثر من الطبيعي، تلعب ساعات أكثر دون أن تلهيك عن فروضك وطاعاتك، وفي هذه الاستراحات استرخ واستمتع ولا تَلُمْ نفسك، فهذا مهمٌ لها حتى تُجدد طاقتها، وبالطبع هذا لا ينطبق على فعل المحرمات، فما هو حرام في حياتك اليومية يظل حرامًا في الإجازات.

ولكن ماذا لو غلبتك نفسُك؛ فأقعدتك عن طاعة أو دفعتك إلى الحرام؟

٢. عاقب نفسك الأمارة

أحد الصالحين كان ذنبه الغِيبة، وكلَّما قرَّر أن يتوب وجد نفسه يغتاب أحدهم حتى قرر أن يصوم كلَّما وقع في الغيبة، ولكنه لم يتوقف فقال: وجدتني أغتاب وأصوم ولم أتوقف عن الغيبة، إذًا فالصوم لا يؤدب نفسي، وقرر أنه كلَّما اغتاب، أخرج صدقةً عقابًا لنفسه الأمارة، وقال: غلبني حب المال؛ فتوقفت عن الغيبة.

وهذه هي الفكرة، أن تختار أصعب عبادة على نفسك الأمارة بالسوء وتجعلها عقابًا لها. فمثلًا، لو كان يصعب عليك قيام الليل فخذ قرارًا، كلَّما غلبتك نفسك على ذنب، تقوم ساعةً من الليل، وجرِّب، فإن أطاعتك نفسك فذاك، وإلا فجرِّب طاعة أخرى، وهكذا حتى تؤدب نفسك الأمارة.

٣. إخلاص النية

«أما أنا بقى ابتديت أصلي وأصوم وأبطل ذنوب ياجماعة»

«يا حاج ياللي هناك، عرفت أنا بعمل إيه، ها؟»

«يا حاجة أنا بتوب أهوه، واخدة بالك؟»

إيَّاك وأن تطلب رضا الناس عما تفعل أو تنتظر منهم شكرًا أو تشجيعًا، فالسير في الطريق إما أن يكون خالصًا لوجه الله، وإما أن تحصل على لا شيء!

ذكروا للنبي -صلى الله عليه وسلم- رجلًا يقاتل في سبيل الله يطلب الأجر والذكر، أي الأجر من الله والثناء والرضا من الناس؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «لا شيء له!»

رغم جهاده، إلَّا أنه عاد بلا شيء، فانتبه!

ما تفعله يجب أن يكون لله، لا كي يقولوا عنك ما يرضيك ولا ليسعدهم أو يرضيهم عنك، فقط لله، فإن تبع ذلك ثناؤهم عليك بدون طلب منك ولا قصد رضاهم عنك، فذلك فضل الله عليك.

أسمع سؤالك جيدًا «وما علاقة ذلك بتربية النفس الأمارة بالسوء؟»

يقول الله: «**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**»(١)

زادهم الله هدى ونصرهم على أنفسهم الأمَّارة بالسوء نتيجة لإيمانهم في البداية، والإيمان هو إخلاص العمل لله، فلو أخلصت العملَ طالبًا به وجه الله فقط؛ وفقك ونصرك على نفسك الأمارة.

٤. اتبع سبيل النبي

«لِمَ كل هذه التغييرات المطلوبة؟ انظر إلى فلان الداعية وفلان صديقك المحتَرم، كلاهما يفعل ما تطلب مني أن أنتهي عنه وفي نفس الوقت هما متدينان، فلِمَ لا تفعل مثلهما؟ ولا يتغير فينا شيء وتصبح متدينًا في نفس الوقت؟»

---

(١) سورة الكهف

هكذا ستقول لك نفسك الأمارة، إذا رأت مقاومتك ورغبتك في التغيير، وستضرب لك الأمثلة -وبالمناسبة ستكون أمثلة حقيقية- وستحاول إقناعك، فلا تفعل.

أنماط التدين كثيرة، وقد أخبرنا بذلك النبى صلى الله عليه وسلم:

«وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»

فِرَقٌ شتى وطرق مختلفة، وكلٌ يدّعي الصواب الخالص، ونفسك الأمارة ستجعلك تميل إلى الأسهل، إلى ما يساير هواها، وفي نفس الوقت تُخدر ضميرك، فلا تنخدع.

لا تنخدع بمن يتبع هذه الطريقة أو تلك، ولا تشغل نفسك بأعمالهم، فالحق لا يُعرف بمن يفعله، فهو حق ولو لم يفعله أحدهم، والباطل يظل باطلًا حتى لو فعله من اشتهر بين الناس بالتقوى.

أدِّبْ نفسك وألزمها باتباع سنة النبي فحسب، فهو وحده ممثل هذا الدين بشكل مطلق، هو وحده المعصوم من الخطأ، فانظر إلى قوله وفعله وقل وافعل مثله، ولو صَعُبَ على نفسك.

٥. اجعل هدفك عظيمًا وتعلق به

سأل النبى -صلى الله عليه وسلم- سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي يومًا، فقال: «سلني يا ربيعة؟»، النبي يقول له: اسألنى أي شيء تريده وسأعطيه لك، أتخيل لو أني مكانه وكنت أعاني نفس ما يعاني من

الوحدة وضيق الحال؛ لقلت له يارسول الله، أُريد دارًا وزوجة ولا مانع من بعض المال، ولكن ربيعة قال: «أسألك مرافقتك في الجنة».

قال صلى الله عليه وسلم: « أوغير ذلك؟»

قال: «هو ذاك».

تخيَّلوا أن النبي ظل يسأله شهرًا نفس السؤال، ولا يغيُّر إجابته: «أسألك مرافقتك في الجنة».

الجنة ورفقة النبي هدفه الوحيد، فهل تظن أن نفسه الأمَّارة، وهو يعيش ذلك الهدف، تستطيع أن تغلبه؟

وأنا مثلك، لا أظن.

كلَّما كان هدفك عظيمًا؛ تعلقت به، وكلما تعلقت به صَعُبَ على نفسك أن تشغلك عنه، ومع الله اجعل هدفك أكبر من قدراتك؛ فهو الكريم الوهاب.

قال صلى الله عليه وسلم: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس».

إذا قرَّرت السير إلى الله، فلا تقل يكفينى أن يرضى الله عني- وكفى بهذا نعمة ونعيمًا- ، ولكن قل: سأكون أكثر من يَرْضى الله عنه من أهل الأرض في زمني، واعْمَلْ لذلك واجْتَهِدْ، وإذا رغبت في الجنة فاعمل كي تصل إلى الفردوس، وهي أعلى منزلة في الجنة وتعلَّق بها، فإذا فعلت اعتادت نفسك الطاعة وألِفَت العمل، ولم تَرْكَنْ إلى الراحة وتميل إلى المعصية، وإن غلبتك مرة، سرعان ما ستعود إلى طاعتها، فالهدف الفردوس.

هذه بعض الاقتراحات عن تربية النفس الأمارة بالسوء ولك أن تعدِّل فيها أو تضيف عليها، فلكل منَّا ما يصلحه ويؤثر فيه، فإذا بدأت الطريق بصدق؛ هداك الله كي تستمر عليه، واعلم أنك مهما فعلت، ستتقلب نفسُك بين أحوالها الثلاثة، والرابح من يجعل أصل حال نفسه الاطمئنان والخاسر من تركها على حالة الأمر بالسوء، جعلنا الله من المطمئنين.

وتأكَّد أن الصبر هو مفتاح الباب الذي لو ضاع منك؛ لن تدخل مهما حاولت، فاصبر، فما أفسدناه ياصديقي في سنين لن نصلحه في ليلة.

«ماذا عن عمر؟»

«هل تذكره؟»

«هذا الذي تركناه في جلستنا الأولى بعدما استمع إلى درس الفجر، وعاد إلى بيته متأثرًا بما سمعه في مجلس الشيخ!»

«تعال معي لنرى ماذا فعل؟ وماذا حلَّ به؟»

قعدة كيف

«الجهاد الوحيد اللي المفروض يخش النار»

كانت هذه الكلمة التى يُطلقونها على الغرفة التى نحن فيها الآن، سحب الدخان الأزرق تملأ الأفق، الضحك بلا سبب هو عنوان الجلسة، هل ترى تلك المنضدة التي هناك؟

الشيشة وخوابير الحشيش والكوب الكبير وزجاجات البيرة الفارغ منها والمتلئ تخفيها عن نظرك، ولكنها هناك تحمل كل ذلك.

يد عمر تأخذ الحشيش ويضعها بمهارة في سيجارة، ويعلقها على فوهة الكوب في طريقة يعرفها مدمنو هذا المخدر ثم يترك الدخان الأزرق ينساب في الكوب كي يستنشقه منتشيًا بما يفعله المخدر بعقله ثم يترك الدخان ليملأ الكوب مرة أخرى ليستنشقه مَن بعده، وهكذا.

كانوا أربعة (عمر، يوسف، مؤمن، محمد) يدور الكوب بينهم في

انسيابية وتعاون لا تجده إلَّا بين (الكييفية)، فلا مجال للخلاف في جلسة الكيف.

هم نفس الأصدقاء الذين كانوا معه في صلاة رمضان، صحبة في كل مكان وفي أي مصلحة.. لا يفترقون.

«باااااااس كفاية كده يا جدعان أكتر من كده انتحار» قالها مؤمن، وهو يُفرغ ما بقي من البيرة في الزجاجة جرعةً واحدة، وكأنه يكافئ نفسه على تحمل رئتيه كل هذا الدخان المتشبع بالنشوة.

ردَّ عليه عمر:

«فعلًا تمام أوي كده ياجدعان» قالها وضحك وضحكوا جميعًا في وصلة طويلة انتهت بكحة جماعية، لتعلن استغاثة صدور الجميع مما تحملته من أمواج الدخان الأزرق.

وافقهم محمد بهزة من رأسه، ولكن يوسف اعترض قائلًا:

«في إيه يا جدعان؟ إحنا لسه في أول اليوم، أنا هضرب خابور كمان وبعدها نريح».

قام وأشعل الحشيش ثم جلس يستنشق جرعته وحيدًا، حتى انتهى منه وعليه أمارات الإعياء.

«أنا جعان، حد معاه أكل؟»

قالها يوسف، فقام عمر إلى حقيبته ليحضر منها بعض الشطائر التي أعدتها له أمه قبل نزوله ظنًا منها أنه ذاهب إلى جامعته لا إلى بيت مؤمن الذي يعيش وحيدًا في القاهرة بعيدًا عن أهله.

أعطى عمر الشطائر ليوسف الذي بدأ الأكل، وهم يتكلمون في لا شيء ثم يضحكون في دائرة تتكرر بانتظام كدقات الساعة، ولم يقطع ذلك إلا صوت يوسف قائلًا:

«أنا مش عارف أبلع!»

نظروا إليه جميعًا بتعجب شديد، وسأله عمر: «يعنى إيه مش عارف تبلع؟!»

ردَّ يوسف: «يعنى مش عارف أبلع.. مش عارف أبلع»

قالها بقلق واضح ثم بدأ يتنفس بصعوبة.

«يا جدعان يوسف شكله مأفور (يعني أنه تعاطى جرعة زائدة – over dose)»

أفاقوا جميعًا من الصدمة، وبدأوا يُفكرون في قلق أخذ ينمو في الغرفة حتى حلَّ محل ما كان فيها من دخان وضحك.

ردَّ محمد: «مأفور إيه بس؟! محدش بيأفور من حشيش».

وإذا بيوسف تظهر عليه علامات الاختناق ثم تظهررغوة بيضاء على جانبي فمه؛ ليزيد التوتروالقلق.

قال مؤمن:»هو هيموت هنا في الشقة عندي؟»

ردَّ عمرغاضبًا: « أنت اللي همك إنه ميموتش في شقتك، ومش همك صاحبك»

وبعد لحظات قليلة، أردف عمر قائلًا: «أنا هاخد يوسف المستشفى، واللي عايز ييجي معايا ييجي».

انطلقوا جميعًا في سيارة عمر إلى مستشفى قريبة من بيت مؤمن، وما إن دخلوا، اختار عمر أحد الأطباء الشباب ظنًا منه أنه سيفهمهم سريعًا؛ لعمره القريب منهم، وشرح له ما حدث.

«دخلّوه الأوضة ديّه»

قالها الطبيب الشاب، فحملوه وساعدوه في الاستلقاء على السرير؛ ليبدأ الطبيب كشفه.

نظر إليهم الطبيب بعد الكشف، وأثناء تأمله في وجوههم، هاجم وحش القلق قلوبهم، ثم قال الطبيب:

«الحمد لله الموضوع مش خطر أوي، هنعلق له شوية محاليل ونطمئن عليه تاني، وبعدها تقدروا تاخدوه»

ظهر الارتياح على وجوههم جميعًا، إلا عمر ظل على حاله.

فكرة جالت بخاطره تسببت في استمرار ذعره، ماذا لو أبلغ الطبيب عنهم؟

ماذا لو جاءت الشرطة وتمَّ القبض عليهم بتهمة التعاطي؟

كيف سيشرح ما حدث لأبيه دكتور الجامعة وأمه الطبيبة المرموقة، وهما اللذان ظنَّا أنه قد بدأ يتغيَّر بعد رمضان!

هما لم يعلما بوصوله إلى تلك المرحلة المذرية، تعاطي الحشيش وشرب الخمر.

اختار عمر أن يجلس بجوار النافذة التي تطل على باب المشفى الرئيسي حتى يرى سيارة الشرطة عند مجيئها، وحدّث نفسه بالهروب عند مجيء الشرطة وكأنه أحد زوار المكان أو العاملين به!

مرَّت ثلاث ساعات، وعمر على حاله، حتى جاء الطبيب ليخبرهم أن يوسف بخير

ويستطيعون أن ينصرفوا به إلى حيث أرادوا.

عاد عمر إلى بيته متأخرًا، وفي ذهنه عواصف أفكار وصراعات لو كان لها صوت لأسمعت قارات الدنيا السبع.

تداعت صورته وهو يسمع الدرس في رمضان عن عمر الذي انتهز الفرصة فصار فاروق الإسلام وأمير المؤمنين ورغبته في التوبة حينها، وصورته بعد أن غلبته نفسه الأمارة فعاد إلى سابق عهده وهو يدخن الحشيش وفي يده زجاجة البيرة، وصورته وهو واقف بجوار النافذة في المستشفى منكسر الرأس يخشى حضور الشرطة في أي وقت، وتخيل مشهد فضيحته أمام أبيه وأمه، والذي لم يحدث -بفضل الله- وأسئلة تصرخ بداخله:

لماذا أفعل في نفسي هكذا؟

لماذا لم أعد إلى ربي حين أبصرت بقلبي؟

هل هذه فرصة جديدة لأعود؟

فرصة

سمع عمر أذان الفجر وهو غارق في أفكاره وقرَّر أن ينزل، لا ليصلي ولكن ليبحث عن جاره الشاب صاحب الدرس.

تستطيع أن تراه يقف مترقبًا خارج المسجد الصغير المجاور لبيته

ينتظر انتهاء الصلاة وخروج الإمام، وهو لا يعرف حتى لِمَ يريده أو ماذا سيطلب منه؟!

انتهت الصلاة وبدأ الناس في الخروج من المسجد، ولكن الشاب الإمام لم يظهر إلى أن فرغ المسجد من المصلين.

عاد عمر إلى بيته مهمومًا وقد اتخذ قرارًا أنه لن يرجع إلى ما كان عليه مرة أخرى ولكن كيف؟! كيف لا أعود هذه المرة إلى شيطاني؟! أحتاج المساعدة!

يارب، ساعدني.

ظل عمر في غرفته طوال اليوم ينام ويقوم ثم ينام مرة أخرى، لا يرد على اتصالات أصدقائه ولا صاحبته، لم يأكل شيئا يُذكر.. فقط كان ينتظر الفجر حتى ينزل إلى المسجد بحثًا عن الشاب.

«الله أكبر.. الله أكبر»

أخيرًاً أذان الفجر..

انتظر عمر حتى سمع إقامة الصلاة، ونزل ليقف أمام المسجد ينتظر صاحبنا، انتهت الصلاة وبدأ المصلون في الخروج، ترى عمر يقف على الجانب الآخر ممسكًا سيجارته ينظر في وجوه الخارجين وكأنه ينتظر أن يرى حبيبته في شغف.

«لو سمحت يا شيخ، لو سمحت» قالها عمر بلهفة واضحة حين رأى الشاب خارجًا من المسجد.

وقف الشاب ينظر إلى عمر في تساؤل واضح عن سبب النداء الملهوف.

اقترب عمر وقال له: «كنت فين إمبارح»؟!

ظهرت أمارات التعجب على وجه الشاب وهو يرد: «نعم؟!»

انتبه عمر إلى أن الشاب لا يعرفه، واستمرت اللهفة في صوته، وانهالت الأفكار غير منظمة على لسانه؛ فأطلقها دون تفكير.

«ياشيخ أنا ضايع.. أنا تعبان.. تعبان أوي.. مش عارف إنت ممكن تعملي إيه؟! بس اعمل أي حاجة.. قل لي أي حاجة.. أنا تايه!»

«طب اهدى بس وتعالى نقعد نتكلم وأنا معاك بإذن الله، وأنا مش شيخ يا ابني، أنا اسمي عبد الله وأنا عارفك شكلًا بس مش عارف اسمك، فتعالى نتعرف وتحكيلي».

جلسا في سيارة عبد الله، وبدأ عمر يحكي عن كل شيء مر به من أول رمضان وحضوره الدرس انتهاءً بموقف صديقه يوسف.. ثم أنهى كلامه:

«أعمل إيه يا عبد الله؟! أنا مش عايز أرجع زي ما كنت! أنا مش عايز أعيش كده وفي نفس الوقت خايف.. خايف أزهق.. خايف ماتبسطش.. إزاي هبطل كل ده؟! إزاي هغير حياتي كلها؟! والله أنا عايز أتغير بس خايف!»

«لو عايز بجد ماتخافش، ربنا هيوفقك، بس المهم تختار الطريق وتجاهد نفسك».

استمر حديثهما ينساب على قلب عمر كماء عذب يغسل الخوف والتردد العالقين به حتى انتبها إلى الساعة التى وصلت عقاربها إلى الثامنة صباحًا.

«أنا كنت حاسس فعلاً إنك هتساعدني، بجد يا عبد الله كلامك فرق معايا جدًا».

قالها عمر بابتسامة ارتياح تبشر باقتناعه بحديث عبدالله.

«الحمد لله يا عمر، طب إيه رأيك نصلي العشاء سوا في المسجد بكرة وبعدها تحضر الدرس؟ أنا بدي درس في المسجد بعد العشاء كل يوم ثلاثاء، وحكاية بكرة هتفرق معاك جدًا بإذن الله!»

نظر عبدالله إليه منتظرًا جوابه..

قال عمر: «حاضر، طبعًا جي بإذن الله، أنا طولت عليك معلش سامحني، أشوفك بقى بعد العشاء».

تصافحا وانصرف كل منهما عائدًا إلى بيته على أمل لقاء بعد ساعات.

أمل في قلب عبد الله أن يهدي به الله عمر، وأمل في قلب عمر أن يجد راحته عند عبد الله.

هذا المسجد رغم صغر مساحته -زاوية كما نسميه في مصر- كان جميل التصميم عطر الرائحة تستشعر الراحة والسكينة بين جدرانه، عبد الله يجلس في مواجهة الناس بعد صلاة العشاء ليبدأ قصة اليوم، عيناه تنطقان بالحماسة وتُظهران حبه لشخصية اليوم.

خادم النار

«بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله» بدأ عبد الله..

نار عظيمة جدًا، وكأنه حريق عظيم ولكنه حريق مقصود لا للأذى ولكن للعبادة!

وبطل قصتنا اليوم تنعكس على وجهه صورة ألسنة اللهب وهو ينظر إليها في إجلال، فقد كان هو خادم النار الذي يقوم على تغذيتها حتى لا تنطفئ أبدًا!

الزمان: قبل البعثة بأعوام ليست بالكثيرة.

المكان: أصبهان في إيران حاليًا.

ابن سيد القرية وخادم النارالمعبودة في هذه القرية، أي مقام وأي أهمية وأي مكانة.

المال والاحترام والتقدير يمثلون العملة التى يتعامل بها أهل القرية مع بطلنا.

الأب القائد الغني ذو النفوذ والسطوة وَهَبَ ولده لخدمة الإله (النار)، وكم كان الولد بارًا بأبيه مجتهدًا في رسالته، رغم أنَّه قد خالط قلبه كثيرًا سؤال محير.

«هل هذا الدين حق؟! هل النار هي ربنا فعلًا؟!»

أفكار كانت تدور في نفسه بين الحين والآخر دون أن تؤثر في خدمته للنار وقيامه بعمله.

وفي يوم من الأيام انشغل الأب وطلب من ابنه، الذي كان لا يخرج من محراب النار، أن يذهب ويباشر بعض الأعمال في إحدى ضيعات

الأب، وانطلق الابن البار لينفذ طلب الوالد، وفي طريقه إلى الضيعة بدأت قصته!

«ما هذا البناء العجيب؟».

تساءل وهو يقترب من المبنى الذي يراه لأول مرة في حياته، يدنو منه ويخترق الأبواب حتى يدخل ليرى أناسًا يعبدون إلهًا غير إلهه.. إله غير النار!

- ما قصتكم؟ وما دينكم؟

سأل وأجابوا، فوجد في إجاباتهم ما لمس قلبه وأحب أن يتبع دينهم؛ فسألهم:

- أين أصل هذا الدين؟

فأخبروه أنه بالشام.

عاد إلى أبيه الذي كان قد بدأ في البحث عنه، فهو لم يذهب إلى الضيعة ولم يعد لا إلى البيت ولا إلى خدمة النار.

«أين كنت يا ولدي؟»

خرجت من فم أبيه ومعها خليط من القلق والغضب.

«ذهبت إلى كنيسة النصارى يا أبي، إن دينهم لهو أفضل من ديننا».

قالها وهو مازال متأثرًا مما رآه من عبادة النصارى في كنيستهم وحديثهم معه.

نظر إليه أبوه وهو لا يفهم ما هذا التغير السريع؟ وكيف حدث؟

وردّ بشيء من الحدة: «ليس في دينهم ما هو أفضل من ديننا يا هذا!»

فردَّ الابن سريعًا: «لا يا أبتِ، بل أفضل، وإنى سأعتنق دينهم».

ظهر الخوف على وجه الأب وتدفق الدم في عروقه حتى أنك ترى وجهه يكاد ينفجر، وأقسم أن يحبس ابنه ويربطه بالحديد حتى يرجع عمَّا في عقله.

بطلنا محبوس ومقيد بالسلاسل، ولكن ماذا يفعل قيد الجسد لو كان الإيمان في القلب؟ أخذ إيمانه يكبر في صدره يومًا بعد يوم، حتى ملأ كيانه وقرر الهرب، ولكن كيف؟ وإلى أين؟



هل سمعت عن ظلام نجح في هزيمة النور؟! شمعة صغيرة تغلب ظلام ليل الدنيا فتضيء لصاحبها.. النصر للنور دائمًا.

تواصل بطلنا مع أهل الكنيسة بحيلة احتالها، وأخبرهم أنه قد علم بزيارة وفد من النصارى من تجار الشام إلى الكنيسة، وطلب منهم أن يبعثوا إليه عندما يقرر التجار العودة إلى الشام.

وفي اليوم الموعود تخلَّص صاحبنا من قيوده، وهرب من ظلام النار إلى طريق نور العبودية والتحق بالركب العائد إلى الشام.

نظر عبد الله إلى عمر في هذه اللحظة وأضاف: «تخيَّلوا ماذا ترك خلفه؟»

«المال، السلطة، المركز، القوة، إمارة القرية وولاية عهدها ولم يخش الخسارة، ضحَّى في سبيل الله بكل شيء واثقاً فيما عنده، طالبًا رضاه».

ما إن وصل الشام حتى سأل عن أعلم الناس وأعبدهم؛ كي يلزمه فدلُّوه على الأسقف (رجل الدين المسيحي). عاش بطلنا في خدمته خادمًا بعد أن كان سيدًا، كل شيء يهون إذا كان الهدف رضا الله، لزم الأسقف، ولكنه وجد منه حالًا غير التي كان ينتظرها.

كان الأسقف يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويفعله.

يسرق أموال الصداقات، يجمعها من الناس ويجعلها لنفسه ولا يعطيها الفقراء، ولم يلبث طويلًا حتى مات ولم يجد فيه بطلنا المثل والقدوة والمعلم، **ولكن هذا لم يثنه عن حب دينه الجديد فقد كان يفرق جيدًا بين حقيقة الدين وسوء التطبيق، ولو كان من رجل دين.**

و أبدله اللهُ خيرًا، فقد كان الأسقف الجديد رجلًا ورعًا تقيًا علَّمه الدين وعلَّقه به وعاش معه يعبد الله ويطيعه، حتى طرق الموت باب الأسقف.

وقف بطلنا عند رأس معلمه يبكي ويسأله: «من لي من بعدك يا سيدى؟»

ردَّ عليه الأسقف بما بقى من أنفاسه: «يا ولدي، لا أعلم أحدًا على ما نحن عليه إلا رجلاً بالموصل (مدينة في العراق) فاذهب إليه والحق به».

من الشام إلى العراق أو إلى آخر الدنيا، لا فرق عند المحب أين أرض حبيبه، المهم أن يصل إليه!

انطلق بطلنا إلى الموصل، ليلحق بصاحبه الجديد.

كان على الدين بحق، خير معلم وخير قدوة كسابقه، ولكنه كان كبيرًا في السن فما لبث إلا أن وافته المنية وتكرَّر الموقف.. صاحبنا يقف عند رأسه يبكي فراقه ويسأله:

«يا سيدي، إني أحببتك كما لم أحب أحدًا من قبلك، فمن لي بعدك؟»

قال: «يا بني، لا أعلم أحدًا على مثل ما كنا عليه إلا رجلًا بنصيبين، وهو فلان، اذهب فالحق به».

نصيبين في تركيا.. لا يهم، إن كان هذا ما سيرضيك عنى يارب!

انطلق بطلنا إلى نصيبين بحثًا عن صاحبٍ جديد، وجده وأقام في خدمته، يتعلم منه ويعبد الله معه، ولكنه كان كصاحبيه طاعن في السن، فتكرر الأمر.. يموت العابد وينصح بطلنا قبل موته بصاحب آخر، وهذه المرة في عمورية.

ومن نصيبين إلى عمورية واضح أن لا شيء يستطيع أن يوقف صاحبنا وتضحياته طلبًا لرضا الله، ويزيد الاختبار على البطل، ويأتي الموت ضيفًا على صاحبه الجديد أيضًا، ولكنه لن يتوقف عن البحث فسأله قائلًا: »إلى من توصي بي؟»

وكان الرد الذي غيّر حياة صاحبنا تمامًا:

«يا بني، والله لا أعرف أحدًا على ما كنا عليه، ولكنه قد أظلك زمانُ

نبي، مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرض بين حرتين (الحرة: الأرض ذات الحجارة السوداء) بينهما نخل وبه علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة (علامة في جسد النبي ذُكرت في كتب أهل الكتاب وكانوا يبحثون عنها كدليل للنبوة).

في سبيل الله

«إذًا فصاحبي الجديد في جزيرة العرب».

قالها في نفسه التى غلبها، فلم يبقَ فيها من الأمر بالسوء شيء، بل هى مطمئنة تسير معه إلى حيث أراد.

كان يملك من حطام الدنيا بعض الغنم والبقر، فما إن وجد بعض التجار العرب عرض عليهم ما يملك حتى يحملوه إلى أرضهم؛ فقبلوا.

انطلق في الطريق يحمله الشوق إلى رؤية النبي الجديد، يالها من نفس لا تطمئن إلا برضا الله، فجأة وجد التجار يبيعونه في الطريق إلى أحد اليهود، خانوه وباعوه وكانوا فيه من الزاهدين، ولكنه لم يكن يعلم أنه كما كان البئر ليوسف بداية التمكين، كان الرِّق لبطلنا طريقه للإيمان، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

باعه اليهودي لقريب له من بني قريظة.

«يارب، إنك تعلم أني لا أريد من الدنيا إلا رضاك، وأني قد خرجت باحثًا عن نبيك؛ لأتبع الدين الذي أردت، اللهم دبر لي أمري».

«ظني أن هذا ما دار في ذهن بطلنا وهو ينتقل مع سيده الجديد إلى يثرب.. يثرب!»

يثرب (المدينة المنورة حاليًا) هى أرض بين حرتين وبها نخل كثير، هل تذكرون هذا الوصف؟! ما إن رآها بطلنا حتى قال: «والله إنها هي، الأرض التى سيهاجر إليها النبي المنتظر».

مكث في الأرض الجديدة زمانًا لا يسمع عن النبي المنتظر شيئًا، وفي يوم كان يعمل على نخلة لسيده حين أتى ابن عم له وقال: « قاتل الله بني قيلة (قبيلة من قبائل المدينة)، إنهم الآن مجتمعون بقباء (موضع بالمدينة) على رجل قدم عليهم من مكة يزعمون أنه نبي».

يحكي لنا بطلنا ما حدث فيقول:

كدت أن أسقط من فوق النخلة لما سمعت ذلك، فنزلت مسرعًا ملهوفًا، وقلت لابن عمه: «ماذا تقول؟ ماذا تقول؟»

فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة وقال: «مالك وهذا الحديث؟ أقبل على عملك» فقلت: «لا شيء، أردت فقط أن أتثبت مما قال!»

«كان عندي شيء من الطعام فجمعته، وذهبت إلى قباء، وإذا برسول الله وحوله أصحابه، فاقتربت منه وقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء وذوو حاجة، وهذا شيء كان عندى للصدقة وأنتم أحق به من غيركم، فقربته إلى رسول الله، فقال لأصحابه: كلوا، وأمسك يده ولم يأكل، فقلت في نفسي هذه واحدة: **لا يأكل الصدقة**».

«جمعت طعامًا آخر ثم بحثت عن رسول الله حتى وجدته، فقلت له: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، أما هذه فهدية أكرمتك بها، فأكل -صلى الله عليه وسلم- منها ودعا أصحابه فأكلوا معه، فقلت هذه الثانية: **يأكل الهدية**».

«ثم جئت إلى رسول الله وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصفه لي صاحبى؟! فلما رآني رسول الله -صلى الله عليه سلم- علم أنى أبحث عن شيء وُصف لي؛ فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته؛ فانكببت عليه أقبله وأبكي».

«الله أكبر، كل هذا العناء، كل هذا الوقت لأصل إليك، وها أنت أمامي يا رسول الله».

لا أستطيع أن أصف شعوره في هذه اللحظة، ولكن ما دار في نفسه كان أكثر من ذلك وأعظم.

احتضنه النبي عليه الصلاة والسلام، واستمع إلى قصته، قصة أعجب من الخيال، قصة ولي العهد وخادم النار الذي ضحى بكل شيء، السطوة والقوة والمال والمركز وكل ما يملك، وجاب الدنيا وتحوَّل عبدًا مملوكًا، كل هذا لغاية واحدة.. رضا الله، لم يخش شيئًا، ولم يفكر إلا في هدفه، إلى أن أسلم وافتدى نفسه فصار حرًا، وأصبح من سادة الصحابة وأقربهم إلى النبي!

صاحب فكرة الخندق في غزوة الأحزاب، سيدنا **سلمان الفارسي** رضي الله عنه.

«وبهذا انتهى درسنا الليلة وجزاكم الله خيرًا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ختم عبد الله الدرس بهذه الكلمات، ولم ينتظره عمر، بل قام وكأنه في عالم آخر يمشي بنظرة زجاجية صامتة.. وكأنه لا يرى ما حوله!

كانت قصة سلمان -رضي الله عنه- وأرضاه تكلمه وتخبره بما عليه فعله.

«لا تخشَ شيئًا يا عمر، فقط اختر طريق الله وتحمل الابتلاء، ودع الله يدبر لك أمرك، لا تخف».

* * *

لا تخف يا صديقي، وابدأ الطريق.

حسنًا، كنت أود الجلوس معك أكثر من هذا، ولكن لعلَّك ترغب في بعض الراحة لتفكر في جلستينا.. على كل حال، أنت تعرف مكاني؛ فمتى شئت بدأنا الجلسة الثالثة.

ستجدني في انتظارك.. لا تتأخر.

محاسبة النفس

(اصنع نموذجك الخاص)



اليوم الثالث

أن تحب الله

«من أعجب الأشياء أن تعرف الله ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تتذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته»

ابن القيم

يبدو أنك قد بدأت تحب لقاءنا كما أحبه أنا، فعودتك السريعة تشعرني بذلك.

أنا أيضا كنت أشتاق إليك، ورجوت أن تعود سريعًا؛ حتى نكمل رحلتنا.

يبدو أنك قد جهزت كل شيء.. إذًا لا داعي لإضاعة الوقت، وهيا نبدأ.

هل سبق لك تجربة الحب قبل ذلك؟! ولكن قبل أن تتنهد وتنظر إلى سقف الغرفة في أسى وهيام، وتتذكر تجاربك العشرين الأخيرة؛ دعني أوضح لك أي حب أقصد!

أنا هنا يا صديقي لا أتكلم عن هذا الصبياني الموسمي الذي يصيب البعض كل حين وآخر! حب من أجل الحب، تجد أحدهم يبدأ في إطلاق لفظ حبيبي على الآخر، وهو يعرفه منذ يومين ولا يعرف عنه الكثير، كل ما في الأمر أني أريد أن أُحِب وأُحَب، ولا يهم من ولا لماذا؟! مجرد تدفق أحمق لهرمونات وشراء أعمى لبضاعة الحب الفاسدة التى تُسوِّق لها الأفلام والمسلسلات والأغاني.

حبٌ يقومُ على الشكلِ وقلة المعرفة والوعي؛ قلما نجح.

هو يحب شعرها وعينيها وصوتها ومشيتها، وهي تحب غمازاته وعضلات بطنه وشكل لحيته.. أهذا حب؟!

البعض يسميه حبًا، ولكنه كما قلت بضاعة فاسدة تظهر على حقيقتها بمجرد امتحانها بضغوط الحياة وابتلاءاتها وحقيقة الدنيا.

الحب الذي أقصده ذلك الذي تراه في عَيْنَيْ زوج يشتاق إلى العودة لحضن زوجته بعد يوم طويل، وهم على تلك الحال منذ عشرين سنة، الحب الذي أحدثك عنه حبٌ يعيشه صديق وهو يكلم صديقه بعد غياب طويل، ولكنها صداقة اختبرتها الظروف والأيام والأعوام!

حبٌ قائمٌ على المعرفة والفضل، حب قائم على التضحية والإيثار، حب قائم على العشرة والاختبار.

الحب.. ذلك الإحساس المخملي الذي ما إن يُخالط القلب؛ حتى يحمل صاحبه إلى السماء السابعة ينظر فلا يرى إلا حبيبه، يسمع فإذا بصوت حبيبه يأتيه من كل جانب، ما يريده حبيبه أحب إليه من نفسه، يحب ما يفعله حبيبه وإن كان يؤذيه، يتعلق بكل شيء له علاقة به، لا راحة له إلا بقربه، ولا أنس له إلا بمجالسته، لا يهمه رأي الدنيا بأسرها في حبيبه لو كان عكس رأيه، حبيبه هو الدنيا ولا قيمة للدنيا إلا به.

الحب.. هذا الشعور الذي يحوي بداخله كل المشاعر الأخرى، فكل المشاعر الإيجابية التي تحتاجها لتحيا في سعادة تجدها في الحب.

اللذة والمتعة والاهتمام والفخر والسكينة والامتنان والأمل، أين تجدها إن لم تجدها في الحب؟!

والآن دعني أعيد عليك السؤال:

«هل سبق لك تجربة الحب قبل ذلك؟!»

لا تتسرعْ في الإجابة، عليك أولًا أن تسألني: أي درجة من درجات الحب تقصد؟!

نعم للحب درجات، ومن حبي لك سأعرفك بها، وبحب.

درجات الحب

العلاقة

وسميت بهذا الاسم من تعلق قلب المحب بمحبوبه، ولكنها أول درجات الحب وأكثرها سطحية، فإذا ما رأيت اثنين في بداية حبهما قلت عنهما «في علاقة».

ولكن كم مرة رأيت على صفحة أحدهم على موقع الفيسبوك (أحد مواقع التواصل الاجتماعي) كلمة «في علاقة» ثم سرعان ما تحولت إلى «بدون علاقة»؟

كثير، أليس كذلك؟! وهذا لأن فسخ العلاقة وانتهاء الحب في هذه المرحلة ليس بصعب على أي من الطرفين، مجرد جرح بسيط سرعان ما يندمل.

الإرادة

هنا يتعمق الحب قليلًا في قلب المحب ويبدأ في الميل إلى المحبوب وطلب رضاه.

فيكون شعار المحب: أنا أريد أن أُرضي حبيبي، وما يريده حبيبي هو أمر لي.

«بطّل سجاير وصلِّ الفجر»

منذ فترة قريبة انتشر هذا الأمر بين الفتيات، كل فتاة تطلب من حبيبها أن يصلي الفجر ويترك التدخين.

أمران غريبان، أولهما أنها تطلب منه ما يرضي الله من الطاعة وهما في علاقة لا ترضي الله، فالعلاقة الشرعية في الإسلام بين شاب وفتاة الزواج لا غير.

أمَّا الأمر الآخر يا صديقي، أن كثيرًا من الشباب قد استجاب لحبيبته، وهذه هي الإرادة، هو يريد أن يرضيها وإرادتها هي أمر له.

الصبابة

حب أعمق من سابقه، فالصبابة انصباب القلب على المحبوب فلا يملكه صاحبه ولا يتحكم فيه، هل تستطيع أن توقف انصباب الماء في الشلال مثلًا؟!

كذلك في الصبابة، لا صاحب القلب ولا غيره يستطيع أن يوقف تدفق الحب.

الغرام

الحب الملازم للقلب فلا يفارقه أبدًا، فالمحب في كل أحواله لا يفكر إلا بمحبوبه، فلا أكل ولا شرب ولا نوم يخلو من ذكر حبيبه.

يأكل ويشرب إذا اطمأن لوجود الحبيب ولا ينتهي عن التفكير فيه حال أكله وشربه، إذا سار بين الناس لم ير وجهًا من وجوههم إلَّا وقد رأى فيه حبيبه، يراه في نومه، في أحلامه، لا يفارقه لحظة، حبٌّ بلا فراق.

المودة

محبة لا لشيء إلا لذات المحبوب، حبٌّ صافٍ خالص لا مصلحة فيه، حبٌّ لا لمادة ولا مال ولا جسد ولا شيء، حبٌّ مجردٌ من المادية.

الشغف

وصول الحب لشغاف القلب، والشغاف هو الغشاء المحيط بالقلب، فكأن الحب قد أحاط بالقلب؛ فمنع كل ما عدا حب المحبوب من الوصول إليه.

العشق

الحب المفرط الذي يُخاف على صاحبه منه؛ فقد يُجن إن تركه محبوبه، وقد يموت من فرط الشوق والرغبة في اللقاء.

التتيم

ومنها لفظة متيم، والمتيم هو المحب المتذلل لمحبوبه العابد له، فلا يرى نفسه أصلًا، هو ملك لحبيبه فقط.

التعبد

وهو فرط التتيم، تمام الطاعة للمحبوب والذل بين يديه، فأمره فرض ونهيه محرم، وهو حب العبد الصادق لله.

الخُلَّة

أعلى مراتب الحب على الإطلاق، وهي أن يتخلل الحب كل ذرة من القلب والروح وهي مرتبة لم يصل لها إلا الخليلان في حب الله، سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد عليهما صلوات الله وسلامه.

والآن بعد أن عرفنا درجات الحب يا صديقي، سأسألك السؤال بصيغته الصحيحة:

«هل سبق لك أن وصلت في حب الله لدرجة العبودية قبل ذلك؟!»

عبد الله

من عرف الآمر سَهُلت عليه الأوامر.

الحب أكبر محرك يدعو صاحبه للتغيير، تكفي إشارة من المحبوب كي ينطلق المحب إلى تحقيق ما يرضيه، وكلمّا ازداد الحب سهلت التضحية بل لم تصبح تضحية ولكنها تصير جنة يحياها المحب إذا رأى الرضا في عين محبوبه، ولا تجد في خلق الله من إذا ازدادت معرفتك به ازددت له حبًا! بل كلما اقتربت أكثر قد ترى من الحقائق والأسرار التي تشعرك أن هذا المحبوب لم يكن بهذه المثالية ولم يكن يستحق كل تلك التضحيات.

أمَّا مع الله فكلما ازدادت معرفتك به؛ كلما ازداد حبك له فتستغرق بكل روحك في عبوديته فلا راحة إلا بقربه ولا سعادة إلا برضاه ولا متعة إلا بالسجود بين يديه.

والعبودية يا صديقي كما علمنا أعلى درجات الحب التى نستطيع نحن العباد أن نصل إليها في علاقتنا به سبحانه، وكي نصل إليها لابد أن يقوم الحب على المعرفة فإذا عرفنا أحببنا وإذا أحببنا ضحينا وإذا ضحينا وصلنا لرضاه، فلا تجد في التضحية إلا حلاوة ورضا وسكينة روح لم تذقها من قبل.

إذا سألت أحدهم عن حبيبه -وأقصد ذاك الحب الحقيقي- لكلمك بالساعات عن صفات محبوبه، كم أعطاه حين منعه الناس، كم احتمل من أخطائه وحماقاته وسامحه عليها، كيف وقف معه في محنته، وهكذا من الأسباب الكثيرة التى مع مرور الأيام لم تزده إلا تعلقًا به وقربًا منه.

وكذلك في علاقتنا معه -سبحانه- يجب أن تكون عندنا إجابة لسؤال: لم تحب الله؟!

فلو سألت أغلب الناس: هل تحب الله، لأجابك دون تردد: «طبعًا يا ابني، أنت هتلحد ولا إيه؟»

ولكن لو سألته: لم تحب الله؟!

لوجدته يتردد في الإجابة ويطيل البحث عنها في داخله وقد يجدها وقد لا يجدها.

إذًا يا صديقي فمهمتنا الآن أن نصل إلى إجابة السؤال **لِمَ نحب الله؟**

وللإجابة على هذا السؤال يجب علينا أن نعرف الله أكثر!

الخطوة الأولى: استشعار النعمة

عاد أبي إلى البيت بالسلامة بعد أن أجرى عملية جراحية لإزالة ورم كان قد أُصيب به، دخل إلى سريره وكلنا في غاية السعادة، فقد كانت محنة شديدة والحمد لله مرَّت بسلام.

جلسنا أنا وإخوتي خارج غرفته، ترى الهدوء والرضا في وجوهنا والذي لم يلبث أن تحول سريعًا إلى هلع وفزع مع صوت أبي ينطلق من غرفته:

«مش قاااااادر.. ياولاااااااد»

هرعنا جميعًا إلى غرفته استجابةً لندائه.

«خدوني المستشفى بسرعة»

قالها والألم يقطر من كل مسام وجهه..

«فيه إيه يا بابا؟!»

حاولنا أن نعلم ما به، ولكنه باغتنا بصراخه: «المستشفى حالًا».

انطلقنا به دون أن نعرف سبب ألمه، ووصلنا إلى المستشفى، فطلب أبي حضور طبيب المسالك البولية، لنكتشف أنه كان يعاني من احتباس البول بعد العملية، وهو أمر يحدث كثيرًا بعد العمليات الجراحية.

بدأ الطبيب في التعامل مع الحالة، ووفَّقه الله إلى حل الأمر ومرّ بسلام.

جلست بجوار أبي في اليوم التالي، وقلت له: «حمدًا لله على السلامة يا حبيبي»

فبادرني قائلًا: «عمري ما حسبت إنها نعمة».

مجرد أن تدخل الخلاء نعمة، عندما فقدها عرف أنها نعمة، نعمة من أبسط ما يمكن، كادت أن تقضي عليه لَمَّا حُرِم منها.

يُروى أن هارون الرشيد الذي ملك الدنيا شرقًا وغربًا، طلب كوبًا من الماء في حضرة أحد العلماء فقال له العالم: «يا أمير المؤمنين، كم كنت تدفع ثمنًا لهذا الكوب لو لم يكن هناك في الدنيا غيره؟»

ردَّ عليه أمير المؤمنين: «أدفع نصف ملكي».

قال العالم: «اشرب، هنأك الله يا أمير المؤمنين».

فلمَّا شرب هارون، سأله العالم: «يا أمير المؤمنين، لو أن هذا الماء حُبِسَ في داخلك كم تدفع ثمنًا لإخراجه؟».

قال الرشيد: «أدفع ملكي كله».

فقال العالم: «لا خير في ملك لا يساوي شربة ماء»؛ فبكى هارون الرشيد.

شربة الماء نعمة وإخراجها نعمة تساوي ملك هارون الرشيد!

نعم يا صديقي، وكم من نعمة أنعم الله علينا بها قد اتخذناها حقًّا مكتسبًا؛ فلم نشكر الله عليها بل لم نعدها نعمة من الأصل.

قلب ينبض حوالي مئة وخمسة عشر ألف نبضة كل يوم منذ ميلادك إلى الآن؛ ليضخ سائل حياتك الأحمر في شرايين وأوردة تحمله من وإلى أعضاء جسمك كلها.

أنفٌ تُميز به الطيب من الخبيث في طعامك وشرابك، بل تتلذذ

برائحة الطعام قبل أن تستمتع بطعمه، ويمر خلاله غاز بقائك ذو الذرتين ليملأ رئتيك ويخرج مع زفيرها ما يضرك، فيرزقك الله برحمته من سبعة عشر ألف إلى ثلاثين ألف نفس يوميًا.

لسانٌ تتكلم به؛ لتعبرعن نفسك وتتواصل مع من حولك، ويُمتعك بطعم طعامك ولذة شرابك، ونظام هضم معقد يستلم من اللسان العمل بعد البلع؛ ليستخلص لك ما يفيدك ويخرج الضار.

عظام وعضلات وأربطة، تُقيم جسدك وتعينك على الحركة والحياة.

مخ يقود جهازًا من الأعصاب، ينظم حركاتك اللاإرادية، كحركة القلب وحركاتك الإرادية كحركة قدميك ويديك دون أن تشعر بصعوبة الأمر أو تعقيده على الرغم من تعقيده فعلًا، يُشعِرُك بالألم حتى يحافظ على أعضائك فما الألم إلا نداءً لك لتجنب ما يصيبك!

يدٌ تمسك وتشعر بملمس الأشياء، أذن تسمع الأصوات وتفرق بينها، عينٌ ترى، كبدٌ ينقي جسمكَ من السموم، كُلى تنقي الدم ستين مرة في اليوم فيمر من خلالها مائة وثمانون لترًا كل يوم، جلدٌ يحيط بجسمك ويحميه ويُخرِج السموم منه، جهاز مناعة يحارب ما يصيبك من الأمراض، وغير ذلك ياصديقي الكثير الذي لو أردنا أن نحصيه من نعم الله علينا في أنفسنا، ما استطعنا ولو حاولنا العمر كله، فالحمد لله.

«وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها»(١)

وهنا يأتي السؤال، مع كل هذه الوظائف اليومية بل التي تتكرر كل ثانية، كم نبذل من الجهد لتعمل هذه الأنظمة بهذه الدقة المبهرة؟

---

(١) سورة النحل:١٨

والإجابة العجيبة التي نعرفها أنا وأنت جيدًا: «لا شيء!»

الأمر كله محض نعمة من الله الكريم، فالحمد لله.

ولو تأملت بإمعانٍ في هذه النعم، **لوجدت أننا إذا عصيناه - سبحانه تعالى- عصيناه بها!**

فهل نكذب إلا باللسان، وهل ننظر إلى الحرام إلا بالعين، وهل نمشي إلى ما يغضبه إلا بالقدم؟

إذا سمعنا حرامًا كان بنعمة الأذن، وإذا فكَّرنا فيما يغضبه كان بنعمة العقل.

كلها نعمه علينا، وهي في ذات الوقت أدوات معاصينا، والأعجب أنه يرانا ويسمعنا ويعلم أدق أسرار نفوسنا ويطلع علينا، ومع ذلك يصبر على أذانا ولا يُعجِّل بعقوبتنا ويبارك لنا في نعمه، وهو القادر الذي لا نُعجزه، ولكنه الرحيم الذي هو أرحم بنا من والدينا، فالحمد لله.

هذا لو تأملنا في أنفسنا، فماذا عن الكون من حولنا؟!

نعم يا صديقي، فكل ما في الكون نعمة منَّ الله بها علينا، سخَّر كل ما في الكون لنا، أنا وأنت!

سخَّر لنا

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)»[1]

---

(١) سورة إبراهيم

هل تأملت في قوله: «**وسخَّر لكم**»؟

أنزل ماء من السماء بإذنه؛ ليخرج لنا رزقًا نتمتع به ونحيا في نعيمه، وذلَّل لنا السفن لتسير في البحر بما ينفعنا، وجعل لنا أنهارًا نشرب منها ونسقي زرعنا؛ لتستقيم حياتنا.

وخلق لنا شمسًا وقمرًا للنور والدفء وحركة البحار من مد وجزر، وخلق لنا ليلًا لنسكن فيه من تعب الدنيا ومشقتها، ونهارًا لنسعى فيه على أرزاقنا بما يرضيه -سبحانه وتعالى- سخَّر كل ذلك لنا، فالحمد لله.

جعل لنا

«**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**»[1]

هو الذي جعل الأرض ممهدة مناسبة لحياتنا، فنمشي ونبني ونزرع ونستخرج منها الخيرات، وكل ذلك رزق منه هيأه لنا.

ورفع السماء فوقنا بناء يحمينا، فحولنا يا صديقي يحيط بنا الغلاف الجوي، طبقات بعضها فوق بعض سخَّرها الله لنا؛ لنحيا ولولاها ما استطعنا البقاء على ظهر الأرض.

فهذا البناء العجيب الذي يبدو لنا ساكنًا، سهل التفاصيل، محدود الدور لهو بناء معقد التفاصيل والدور.

وتعال معي نتأمل بديع خلق الله وعظيم تدبيره لعباده.

(١) سورة البقرة:٢٢

المتكور الدوار - التروبوسفير (Troposphere)

هو الطبقة الأولى من الغلاف الجوي، يحيط بنا من سطح البحر حتى ارتفاع عشرة كيلومترات، يجعله الله لنا مركزًا للغازات المطلوبة لحياتنا (الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء وغيرها)، ولولا وجوده لاختنقنا، وفيه تتجمع السحب وينزل المطر رحمةً منه -تبارك وتعالى- بالبشر والدواب والزرع وجميع خلقه.

المتكور الطبقي - الاستراتوسفير (stratosphere)

الطبقة الثانية من الغلاف الجوي، خمسون كيلو متر هادئة خالية من التقلبات الجوية والعواصف، فيجعلها الله لنا مناسبةً للطيران ويهدينا إلى اختراع الطائرات، فنسافر بفضله من أقصى الأرض إلى أقصاها في ساعات، ويملؤها بغاز يسمى الأوزون؛ فيحمي الأرض من أخطار الأشعة الفوق بنفسجية التي لو زادت عن حدها لعانينا جميعًا من شيخوخة الجلد المبكرة وسرطان الجلد وأمراض العين.

المتكور الأوسط - ميزوسفير (mesosphere)

عشرون كيلو متر من الحماية، ففي هذه الطبقة تحترق -بإذن الله- معظم الشهب والنيازك المتوجهة إلينا، والتي لو سقطت ما بقينا أنا ولا أنت.

وغيرها من الطبقات التي لم يكن الإنسان يعلم بوجودها ورغم ذلك تحميه وتؤَمِن حياته بل ورفاهيته -بإذن الله- جعلهم لنا؛ فالحمد لله.

أنزل لنا

«**وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**»[1]

تتكرر «**لكم**»، وكأنها تذكير لنا مِن الله العليِّ بأفضاله ونعمه علينا، فهي هدية لنا من الكريم الوهَّاب.

ثمانية أزواج من الأنعام، ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والماعز، تخيل حياة البشر من غيرها!

تلك الأنعام التي جعل الله لنا منها وسيلة للسفر ونقل البضائع وحمل الزاد، كما كانت الإبل لأهل الصحراء وسيلة مواصلات ونقل وباب للرزق، وجعل لنا من لحومها غذاءً ورزقنا منها لبنًا سائغًا للشاربين، ويسَّر لنا من أصوافها وأوبارها ما اتخذناه ملابس وزينة، وذلَّلها لنا، فترى الجمل والثور يسوقه الشاب الصغير وهي أقوى منه عشرات المرات، ولكنه فضل الله علينا، فالحمد لله.

ينبت لنا

«**يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**»[2]

معجزة الماء الواحد والتربة الواحدة، ماء واحد لا يختلف بين نبات وآخر وتربة واحدة لا نغيرُّها بين نوع وغيره، ولكنَّ الله -بمنته ونعمته علينا- رزقنا أنواعًا شتى من النبات.

---

(١) سورة الزمر:٦

(٢) سورة النحل:١١

كان يقدر -سبحانه- أن ينبت لنا نوعًا واحدًا وكفى به دليلًا على قدرته وخلقه وكفى به طعامًا لنا، ولكنه -بكرمه وفضله- نوَّع لنا في طعامنا حتى لا نسأم وجعل لكل نوع فوائده الغذائية.

ورزقنا طريقة إنبات كل نوع وعلمنا، فهذا بالبذور وهذا بقطعة منه، ومن هذا نأكل الثمرة ومن ذاك نأكل الجذر، ولكل منها لون وطعم وشكل، وكلها ينبت من نفس التربة، ويُسقى بنفس الماء، فالحمد لله.

ذرأ لنا

«وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ»[1]

ومما خلقه لنا في الأرض تلك المعادن التي لولاها ما استقامت حياتنا.

يكفي أن تذكر (الحديد، الذهب، الفضة، النحاس، الألومنيوم، الزئبق)، وغيرها الكثير.

هذه البيوت التى نسكنها ضرورة من ضروريات الحياة للإنسان، لولا الحديد ما أُقيمت.

تلك السيارات التي تحملنا لم تكن لتُخترع لولا الألومنيوم والحديد، وهل يوجد حُلي (ما تتزين به المرأة) بدون الذهب والفضة والنحاس؟!

أسلاك الكهرباء، مواسير المياه، بطاريات هواتفنا بل هواتفنا ذاتها، باختصار يا صديقي، نحن نحيا حياةً قائمةً على هذه المعادن التى وهبها الله لنا في باطن الأرض، فالحمد لله.

---

(١) سورة النحل:١٣

خلق لنا

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»[١]

من أعظم نعم الله علينا، علاقة الزواج.

تعرف ياصديقي، كلَّما تأمَّلت علاقة الزواج، زاد تعجبي منها، رجل وامرأة كانا غريبين عن بعضهما بالأمس، لا تعرفه ولا يعرفها، وحتى ولو كانا أقرباء، فحقيقة المرء لا تظهر إلا بالعشرة ثم بكلمة الله وبمجرد الزواج؛ يُصبح لكل منهما في الآخر أكبر الحظ والنصيب، فلها عليه وله عليها ما ليس لأحد عليهما من الحقوق والواجبات.

وتأمل معي «**من أنفسكم**»، هي منك منذ بدأت الخليقة، خلق الله آدم من طين ثم نفخ فيه الروح بقدرته وأسكنه الجنة.

لك أن تتخيل معي الجنة وما بها من الجمال والمتعة أو الأصح أننا لا نستطيع تخيل ما بها، فهو يفوق خيالنا، ولكن آدم شعر بالوحدة والوحشة، فخلق الله من ضلعه **حواء**، وكان نائمًا فلما استيقظ رآها؛ فملكت فؤاده من أول نظرة؛ فأوى إليها وصارت له سكناً ووطنًا، ولجأت هي إلى حضنه وكأنها الضلع يعود إلى مكانه، وكذلك كل حواء هي منك يا آدم

لتسكنوا إليها.. كم هي مريحة هذه الكلمة، سكنٌ تأوي إليه لترتاح من عناء الدنيا، وسكينةٌ لقلبك من كل خطر وضغط وقلق، مُسكِّنٌ

(١) سورة الروم:٢١

لألم روحك وجراح نفسك، وساكنةٌ في قلبك وعقلك، وسكونٌ لكل صوت يؤرقك وكذلك أنت لها.

وجعل بينكم مودة ورحمة، والمودة يا صديقي حب بلا منفعة لا مقابل، حب صافٍ خالٍ من المصلحة، والمودة كذلك هي الأفعال التي تترجم الحب.

فمشاركة الحبيب اهتماماته مودة، والاهتمام برغباته مودة، وحسن المعاملة مودة، ومحادثته مودة، والكلمة الطيبة مودة، والنظرة مودة، والحضن مودة.

والرحمة ورقة القلب تجاه المحبوب وشفقة النفس عليه، فالزوجة ترحم الزوج فتعينه وتخفف عنه متاعب الدنيا، وتحتويه فتمسح بكف حبها على قلبه؛ فيذهب عنه العناء والتعب والمشقة.

والزوج يرحم زوجته فيقدّر دورها في حياته ويرضيها ويحميها ويعينها ويحتضنها فتأوي روحها إلى روحه؛ فتطمئن وتطيب نفسها.

نصف يُكملك، تَسْكُنُ إليه روحك، ويجمع شتات نفسك، يتودد إليك بالقول والفعل ويرحم ضعفك ويقويك؛ فيجعل دنياك جنة تعيشها قبل جنة الآخرة، نعمة منه سبحانه، فالحمد لله.

«وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً»(١)

«لمَّا تكبر وتبقى أب هتفهم»

تلك الجملة التي تليق بالمسلسلات العربية؛ لكثرة تكرارها من أهلنا وتذكيرهم لنا بها كل حين، ولكن في الحقيقة عندما كبرت وأصبحت أبًا، فهمت وسأعيدها عليك: «لما تبقى أب هتفهم».

---

(١) سورة النحل:٧٢

ذلك الجزء من قلبك الذي خرج إلى الدنيا صغيرًا، لا يعرف شيئًا، فقط يعرفك أنت، أنت أمانه وضمانه وحمايته ومعلمه وكل شيء له، أما هو فهو قلبك يمشي على الأرض.

يكبر؛ فتكبر معه مخاوفك، كيف لهذا الصغير أن يواجه تلك الوحوش التي تملأ الدنيا؟! تخاف عليه من الأرجوحة والزحلوقة صغيرًا ثم تخاف عليه من أقران الدراسة وأصدقاء السوء ثم تشفق عليه من مديره في العمل وأعباء الحياة.

رأيت ذلك بعيني وأنا أقف خلف الزحلوقة أراقب صعود أولادي على السلالم، وأجري لأقف أمامها حتى ألقاهم عند النزول، وسمعت ذلك في صوت أمي وهي تكلمني وأنا في الثلاثين من عمري، تطمئن على وجودي في منزلي؛ لأن اليوم كان شديد المطر، ابنك ليس منك ولكنه أنت، وكأنك تحيا خارج جسدك.

أبناء نحيا بهم ويستمر وجودنا بعد موتنا في صفات تركناها مدفونة في جيناتهم، فتعلن عن نفسها ساعة الصفر لتقول: أنت حي في ولدك!

رزقنا الله بهم.. فالحمد لله.

«**خلق لكم**»، «**جعل لكم**»، «**سخر لكم**» ، «**أنزل لكم**»، «**أحل لكم**»..

«**ينبت لكم**»، «**ذرأ لكم**»، «**يزجى لكم**»، «**أخرجنا لكم**»..

وكأنه -سبحانه وتعالى- يقول لنا: ألا يستحق من قدَّم لكم كل هذا أن تحبوه؟ بلى يا رب تستحق.. فاللهم ارزقنا حبًا لك يملأ قلوبنا حتى لا يكون فيها إلا ما يرضيك عنا.

الخطوة الثانية: تعرَّف على أسمائه وصفاته

«إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إلَّا واحِدًا، مَن أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]

من أَحصاها.. من فهمها وتدبر معانيها وعاش بها ولها؛ دخل جنة الخلد في الآخرة وعاش جنة الدنيا التي إن لم يعشْها، حرم جنة الآخرة.

أَنْ تحيا بالإيمان به والرضا بقضائه والتعلق برضاه؛ هي جنة الدنيا، جنةٌ في قلب كل محب تصبره على الشوق للقاء الله وتدفعه إلى مزيد من العبودية حتى يُرضي سيده –سبحانه وتعالى– وهو في عبوديته هذه حر كما ينبغي للحرية أن تكون.



كل منا يا صديقي عبدٌ شاء أو أبى، فإما يعبد آراءه ونفسه وعقله فلا يطيع إلا ما يرى، أو يعبد محبوبه، فأمر محبوبه له دين وحبه له محراب، أو يعبد المال، فالدينار ربه وآمره وناهيه، أو يعبد الشهرة فما يرضي الناس عنه وينشر اسمه بينهم هو هدفه الأوحد، أو يعبد الحرية الموهومة فكل قيد أوالتزام بالقواعد عنده حرام، كلنا عباد لشيء والحر فينا من يعبد رب كل شيء!

(١) صحيح البخاري

دعنا نعود إلى الحديث، هناك أسماء وصفات لله إذا فهمناها وعملنا بها؛ ازددنا حبًا وإيمانًا، والسؤال الآن: أين نجد هذه الأسماء والصفات؟

من أمثال العرب القديمة: «المرء مخبوء تحت لسانه فإن هو تكلم ظهر»، ويُنسب هذا القول إلى سيدنا علي بن أبى طالب -رضي الله عنه- تعرف الإنسان حق المعرفة من كلامه وكلَّما عاشرته واستمعت إلى كلامه أكثر، ازدادت معرفتك به، فإمَّا أن يظهر طيب معدنه؛ فتحبه، وإمَّا أن يظهر ما كان يُخفيه بِصَمْتِه؛ فتتجنبه.

وبالمثل يا صديقي، لا يُوجد أفضل من كلام الله ووحيه إلى نبيه، يُقربك من أسمائه الحسنى وصفاته العلى، قرآنه - سبحانه وتعالى- وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

• **القرآن** كلام الله.. هل سبق لك وتأملت هذه الكلمة؟

رسالة الله إلينا كلامًا أخذه جبريل عن رب العزة -تبارك وتعالى- ثم بلغه إلى رسوله الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- حتى وصلنا قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة.

إذا ذُكِرتْ أي حكمة من كلام حكماء الدنيا؛ تلقَّاها الناس بالترحاب والتعظيم والحفظ، فهو قول من أقوال مانديلا أو غاندي أو حكمة من أرسطو وأفلاطون، وعندنا كلام الله وحكمته البالغة في كتابه الشريف، فالحمد لله الذي كرَّمنا به وشرفنا بالإسلام.

ولا أعني يا صديقى، ألَّا تهتم بكلام العلماء والحكماء، وإلا فكيف

سنحصِّل العلم والمعرفة، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، ولكن ما أعنيه أن نُنْزِلَ كلام الله مكانته من حياتنا، إذ لا مقارنة بين كلام الله وكلام أحد من خلقه.

ذلك الكتاب العظيم الذي إن زرناه كان ذلك في رمضان على عجل، فلا فهم ولا تدبر، فقط قراءة المتسابق الذي يريد تحطيم الرقم القياسي، وكلنا هذا الرجل إلا من رحم ربي.

ولكن من عرفوا السر وذاقوا حلاوة القرب لا يشبعون من كلام الله، ويُذكر عن أناس في زمننا هذا أن منهم من يختم القرآن في أسبوع، ومنهم من يَختمه كل ثلاث ليال، ومنهم من يقرأه كاملًا كل يوم، وذلك هدف بعيد عن أغلبنا -أعلم هذا والله- ولكن يجب علينا أن نتأمل فيه، ونتفكر في جزيل ثوابه ثم نسعى إليه.

قالها الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وأرضاه:

لو طَهُرَت قُلوبُكُم ما شبعتم من كلام الله عز وجل.

ستة آلاف ومئتان وستة وثلاثون آية، مائة وأربع عشرة سورة بها كل الأسرار التي ترجو الوصول إليها، وكل الإجابات عن ألغاز الحياة التي أرهقتك، وكل السبلِ إلى تحقيق أحلامك وطموحاتك، طريقك إلى حب الله وجنة الدنيا والآخرة، فقط لو قرأتها وسمعتها وتدبرتها وجعلتها أصلًا في حياتك، لا فراغًا تلجأ إليه عند الشدائد، ولا موضة موسمية وطقسًا نمارسه كل عام.

صفحة من كتاب الله كافية لتغير حالك إلى الأبد، يكفي أنها تمنحك على كل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، والله يُضاعف لمن يشاء، ألا تحتاج إليها؟!

«ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»[1]

تأمل في هذا الوصف «لا ريب فيه»، يعني لا شك فيه، لا شك في كونه كلام الله العظيم، لا شك في أنه يهدي من التزم به وعمل بما فيه، لا شك أنَّه يحفظ صاحبه من كل شر وسوء، لا شك أنَّه يأخذ بيدك إلى الطريق الصحيح، لا شك أنه يرشدك إلى حب الله.

هدى للمتقين، يهدي من اتقى، من بحث بصدق ودأب عن الحقيقة، من كان همُّه رضا الله لا رضا الناس ولا الهوى، من كان قلبه معلق بالمعرفة والقرب، يهديه ولكن بشرط الصدق، فهل نحن صادقون؟!

فادخل على كلام الله من باب الصدق والحب والرغبة، يفتح الله لك أبواب الهدى والنور.

«قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»[2]

جاءكم من الله، وأي شرف ناله أي كتاب في الدنيا يفوق هذا الشرف، فهذا الكتاب جاء من عند الله لا من عند أحد من خلقه، جاء لنا أنا وأنت، وضم هذا إلى نعم الله علينا، **فالحمد لله**.

نور، أي شيء أغلى من النور إذا ساد الظلام، وقد ساد ظلام الجهل، ظلام المادية وظلام الحاجة، ظلام الشهوات وظلام الشبهات، ولكن لا تخشى ياصديقي، فهنا نور يبدد كل هذا الظلام.. **كلام الله**.

وهو ليس نورًا فحسب، فالنور لو كان ضعيفًا؛ أضاء لك بعض الصورة وأخفى عنك بعضها، وإن أضاء لك الصورة كلها فهو يريك

(١) سورة البقرة:٢

(٢) سورة المائدة:١٥

الطريقين، ولكن لا يُخبرك أيهما يجب أن تسلك، أما نور الله لنا فهو شمس تُبدد ظلام الدنيا، وتخبرك بوضوح أي الطريقين خير!

وكتاب مبين، مبين يبين لك كل ما خفي عنك من خير الدنيا والآخرة، مبين يُجيبك ويُريحك ويُرشدك.. يكفي أن تتبعه لتنجو.

«**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**»[1]

يثبت الذين آمنوا، ريح تعصف بنا من كل جانب، تقتلعنا من جذورنا لتخرجنا من أرض إيماننا لتلقي بنا إلى نار لا نعرفها ولا نقوى عليها، فأنزل الله لنا كلامًا في كتاب لواعتصمنا به؛ لم تقدر علينا رياح الدنيا ولواجتمعت فيها كل ذرة هواء خلقت، فاللهم ارزقنا الاعتصام به.

هدى وبشرى للمسلمين، البُشرى أفضل محرك في الدنيا، أن يُخبرك أحدهم أن لتعبك نهاية، وأن لاجتهادك نتيجة ستراها وستُسعدك، وأنه لا شيء مما عملته سيذهب سُدى، وأن أخطاءك قابلة للغفران بمجرد الاعتذار!

أي محركٍ أفضل من هذا يدفعك إلى العمل ويُذهب عنك الإحباط، فما بالك لو كان من أخبرنا بكل هذا هو الله العلي، في كتابه الكريم.

«**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**»[2]

موعظةٌ من ربكم، كتاب يأخذك من يدك إلى عالم الآخرة، يعظُك ويذكرك بما أُعدَّ للكافرين من عقاب وعذاب، وما ينتظر المكذبين من الوعيد، فيُذكرك، لِمَ تعمل؟ ولِمَ تعبد؟ ولِمَ تطيع؟

(١) سورة النحل:١٠٢

(٢) سورة يونس:٥٧

وشفاء لما في الصدور، شفاء لنا من أمراض القلب التي أنهكتنا، شفاءٌ من الحقد والحسد والكبر، شفاء من حب الدنيا والمنافسة عليها، شفاء من التعب والقلق والضغوط التي أرهقتنا، شفاء من الشهوات والشبهات، شفاء نبحثُ عنه في كل مكان، وهو في أيدينا وحولنا طوال الوقت.

هدى ورحمة للمؤمنين، كتابٌ فيه شفقة عليك ورحمة بك وتخفيف عنك، تجدُ بين صفحاته الراحة والطمأنينة، وكلَّما أعطيته من وقتك ونفسك؛ أعطاك من أنواره ورحماته.

- **السنة** وحي الله إلى نبيه، وكل ما ذكرناه في القرآن فهو ينطبق على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- الصحيحة.

قال الله: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰٓ (٣) إِن هُوَ إِلَّا وَحيٌ يُوحَىٰ (٤)»[1]

فالقرآن والسنة وحي من الله، فلا يتكلم -صلى الله عليه وسلم- إلا بوحي.

فالسنة مثل القرآن في الأحكام والأوامروالنواهي، السنَّةُ يا صديقى شطر ديننا، ودعك من هؤلاء الذين يشككون فيها، ويدعون إلى تجاهلها، فأي دين يبقى لنا إن تجاهلنا سنة نبينا الكريم، وكيف يُفلح قوم سفَّهوا كلام نبيهم!

واسأل نفسك -إن شئت- من أين عرفنا عدد الصلوات، وعدد الركعات في كل صلاة؟

مِنْ أين عرفنا نصاب الزكاة؟

ومن أين علمنا مناسك الحج وطريقته؟

---

(١) سورة النحل

ومَنْ قال أن جَمْعَ الزوج بين المرأة وخالتها أوعمتها محرَّم؟

ومَنْ أخبرنا أن الذهب والحرير حرام على ذكور الأمة؟

كل ذلك وأكثر منه عرفناه من سنته صلى الله عليه وسلم.

وتأمل قول الله: «**وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**»[١]

وقوله عز وجل: «**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَّ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**»[٢]

ومن طاعته -صلى الله عليه وسلم- تعظيم شأنه وتوقير كلامه واتباعه.

قال الله: «**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**»[٣]

أنزل إليه السنة وحيًا منه -سبحانه وتعالى- ليبين للناس ما أنزل الله في كتابه من أمر ونهي ويفسر لهم؛ حتى لا يختلط عليهم، ويرشدهم إلى صراط الله المستقيم.

وحذَّرنا -صلى الله عليه وسلم- من هذا اليوم الذي سيأتي فيه -وقد أتى- أناس يقولون نتبع كتاب الله فقط، أما السنة فلا شأن لنا بها، وقد ضلُّوا وأضلوا.

قال رسول الله: «لا ألفينّ أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[٤]

---

(١) سورة الحشر:٧

(٢) سورة النحل:٨٠

(٣) سورة النحل:٤٤

(٤) صحيح الجامع

أحدهم يجلس على كرسيه المزين يتكلم في رسول الله بغيرعلم، ويُشكك في صحابته الكرام ويدّعي بثقة الجاهل أنه لا حجة للسنة ولا وزن لها، ويدّعي اتباع كتاب الله وقد كذب، فلو اتبع كلام الله ما وسعه إلا النزول على أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، ألا يذَّكرك هذا الوصف بأحدهم؟

اتكأوا على أرائكهم، وتكلموا عن سنتك يا رسول الله، والحمد لله أنا لسنا منهم بل نحن لسنتك من المتبعين بإذن الله.

«تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض»[1]

فكتاب الله وسنة نبيه متلازمان وباقيان، والفائز من سمع وأطاع.

وبعد أن تكلَّمنا على عجل عن القرآن والسنة غفرَ الله لنا تقصيرنا، وإلا ما كَفَت أعمارنا أن نتكلم عن الوحيين الشريفين، تعال يا صديقي نتأمل في بعض صفات الرحمن، نُمتع بها قلوبنا ونحيي ما مات فيها -إن بقي فيها حياة- فتدبر بروحك، ومرِّر صفاته على جراح نفسك، وانظر إليها وهي تُنبت حبًا وطاعةً ورضا عنه سبحانه وتعالى.

الرحمة والعفو والمغفرة

لو عدنا إلى الخلف صفحات قليلة؛ لرأينا تودد الله إلينا بنعمه وعطاياه، يعطينا حتى نرضى ويفيض علينا بالنعم حتى نَسعد، ولكن لو تأملت في الأمر أكثر من ذلك لرأيت غرابته، فمن الطبيعي أن يتودد الفقير إلى

(١) صحيح الجامع

الغني طمعًا في العطاء والصدقة، وأن يتقرَّب الضعيف إلى القوي رغبة في الحماية والمنعة، أما الغريب فهو تودد الله الغني العلي العظيم القوي إلى عباده الأذلاء الضعفاء الفقراء، ويتقرب إليهم بالعطايا والنعم، ويذكَّرهم بها لعلهم يحبونه فيطيعونه فيتقبل منهم ويدخلهم الجنة.

لِمَ يارب؟!

والإجابة، رحمة منه بنا وحبًا لنا -نحن عباده- رغم غناه عنا وعن عبادتنا، ولا يزيد ملكه بطاعتنا ولا ينقص بمعاصينا.

قال -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي عن رب العزة أنه قال:

«يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، ياعبادي كلكم ضالّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أُطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أَكسِكُم، ياعبادي إنكم تخطئون بالليلِ والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إِنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجرِ قلب واحد منكم ما نقص من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عِبادي إنما هي أعمالكم

أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1]

تأمَّل بقلبك جمال تلك الصفات، عادلٌ حرَّم الظلم على نفسه مع أنه لا أحد يجرؤ على مراجعته، يهدي الضال ويُطعم الجائع ويكسو العاري، فقط يسألونه فيعطيهم، والأعجب من العجب أنَّه يرانا ونحن نخطئ ونُذنب الليل والنهار، بل ويعلم ما في صدورنا ويطلع علينا، ويعلم ما سيكون منَّا، ورغم ذلك يغفر إن استغفرناه.

ولكننا يا صديقي قد نغفر لأحدٍ أذنب في حقِّنا، ولكن الود بيننا لن يعود أبدًا إلى سابق عهده، أمَّا مع الله فالأمر مختلف، فهو يُغدُق بالعطايا على المذنب، ويوده لعلَّه يعود، فما بالك بالمستغفر التائب!

وكلُّ ذلك من تودده وعطاياه وغفرانه رغم أنه القوي، فلن نبلغ له ضرًا، ولا نملك له نفعًا، ولا يزيد ملكه قيد خردلةٍ إن عبده الإنس والجن جميعًا، ولا ينقص ملكه حبة رمل إن كفر جميع خلقه، وهو مع كرمه وعطائه لا ينقص ما عنده، فلو أعطى كل خلقَه ما سألوه، لا ينقص ملكه إلا كما ينقص البحر إذا غرفت منه بإبرة، فهل ينقص؟!

عظيم، قوي، غني، يعطي ويغفر، يتودد إلى عباده الفقراء.. **ما أرحمك يارب.**

وانظر إلى رحماته عزوجل:

«كتب على نفسه الرحمة»[2]

---

(١) صحيح مسلم

(٢) سورة الأنعام

ألزم بها نفسه -تبارك وتعالى- بغير مُلزم، ولوعامَلنا بها نحن أهله ما ظلم، ولكنه الرحيم، يرى المذنب على ذنبه وهو يقدر عليه فيرحمه ويؤجل عقوبته، وإذا تاب التائب أيًا كان ذنبه ومهما طال بُعده؛ قبله برحمته وتاب عليه ومسح على قلبه؛ فلا يبقى فيه إلا حب الله ونور الإيمان بعد أن ملأه الظلام واستشرى فيه.

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»[1]

يا من بلغ بذنبه سقف كل معصية، أسرف بعلم وبجهل، لم يترَكْ معصيةً إلا ووصل إلى منتهاها، لا تيأسْ أبدًا من رحمة مولاك؛ فهو الذي يغفر الذنوب جميعًا.

«إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»[2]

فقط عليك أن تتوب وتندم وتعود ويرى الله منك الصدق؛ فيغفر لك ولا يبالي.

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول:

قال الله تبارك وتعالى: **« يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»**[3]

(١) سورة الأنعام:٥٣

(٢) سورة النساء:٨٦

(٣) صحيح الرغيب

ذنوبٌ تصل إلى السحاب يغفرها ربي، بدعوة عبد صادق في توبته، ورجاء يرى فيه الرغبة الحقيقية في القرب.

تأتيه وقد ملأتَ الأرض ذنوبًا وخطايا، ولكنك لا تُشرك به شيئًا بل تعبده وتستغفره وتطلب منه العفو؛ فيطفئ -عز وجل- نيران ذنوبك بغيث عفوه ورحمته.

هل سمعت عن هذا العبد الذي عصى الله طوال عمره حتى إذا جاءه الموت؛ أوصى بنيه فقال لهم: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدرعليّ ربي؛ ليعذبني عذابًا ما عذب به أحدًا.

ففعلوا ذلك به، فقال اللهُ للأرض: أدي ما أخذت (أي أن تعيد كل ذرة منه مرة أخرى).

فإذا هو قائم فقال الله: ما حملك على ما صنعت؟ فقال العبدُ: خشيتك يارب، فغفر له بذلك».

تاب عليه رغم إجرامه، ورأف بحاله رغم ذنوبه.. رحيم، غفور، عفو.

«ورحمتي وسعت كل شيء»[1]

هل هُناك آية تزرع الأمل في القلب، فيطرح إيمانًا ومحبة وسعادة كهذه الآية؟

وسعت كل شيء، أنت شيء، وذنبك شيء، وألمك شيء، وقلقك شيء، ومخاوفك شيء، وكل ما يشغل بالك ويقض مضجعك مجرد شيء، ورحمة الله العلي وسعت كل ذلك وأكثر! أفلا تطمئن؟

---

(١) سورة الأعراف

والله، مقدار رحمته، لوعرفناه حق المعرفة لذَابت قلوبُنا من محبته ولاشتقَنا إلى لقائه، ولعبدناه شكرًا طوال العمر، ولو قضينا أعمارنا سَاجدين ما وفَّينا شكر رحمته بنا، نحنُ عباده الضعفاء الأذلاء.

يُروى أن أحدَ العلماء صلَّى جنازة على أحد الناس، ماتَ وكان مدمنًا للخمر، فأنكر عليه الناس صلاته على مدمن خمر، فما كان ردَّه عليهم إلا أن قال: والله إني لأستحي من الله أن أظن أن رحمته لا تسع ذنبه هذا.

قال -صلى الله عليه وسلم- ليُعلمنا مقدار رحمته سبحانه:

«إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»[1]

أي رحمة نعيشها، وأي رحمات تنتظرنا، وأي ربٍ رحيم غفور حليم نعبد!

تعرف يا صديقي، قصة المرأة التي كانت تبحث عن ابنها بجنون، تجري هنا وهناك، تنظر في كل الوجوه لعلها تراه، وعندما وجدته فإذا بها تحتضنه وتُرضعه بلهفة الدنيا كلها **وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- بين صحابته ورأوا هذا الموقف المؤثِّر، فسألَهم النبي: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟!**

فقالوا رضي الله عنهم: لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه، قال صلى الله عليه وسلم: لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2]

(١) صحيح مسلم

(٢) صحيح البخاري

ربٌ أرحم من الأم بولدها، سبحانه الرحيم العفو الغفور.

ولهذا كان الصالحون يتوسلون إلى الله برحمته التي وسعت كل شيء.

كان من دعاء الخليفة العادل (عمر بن عبد العزيز):

«اللهم إن لم أكن أهلًا أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهلًا أن تبلغني، رحمتك وسعت كل شيء، وأنا شيء فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين».

وكان أحد الصالحين يقول: «اللهم إنك تقول: «فمن تاب بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم»، وأنا تُبت من بعد ظلمي فارحمني.

فإن لم أكن أهلًا لذلك فإنك تقول: «وكان بالمؤمنين رحيمًا»، وأنا مؤمن فارحمني.

فإن لم أكن أهلًا لذلك فإنك تقول: «ورحمتي وسعت كل شيء»، وأنا شيء فارحمني.

فإن لم أكن أهلًا لذلك فأي مصيبة أعظم من مصيبتي أن تضيق عني الرحمة التي وسعت كل شيء فلم تسعني، وأنا أقول كما علمتنا: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، وأنت تقول: «والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، فارحمني».

علموا واسع رحمته؛ فطمعوا فيها، وهم يعلمون أنه برحمته لن يردَّهم.

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّـهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّـهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا»[1]

---

(١) صحيح مسلم

وصف الله الذنب بأنه ظلمٌ للنفس، فالعبدُ يظلم نفسه ظلمًا مبينًا إذا أذنب وأصرَّ وتعلق بذنبه، فهو يبعد نفسه بنفسه عن رحمة الله الواسعة، وأي ظلم أشد من أن يظلم المرء نفسه، ولكننا نفعل، ثم يعدُنا -عز وجل- بالتوبة والرحمة إذا استغفرنا وعدنا، توبة شاملة لا تترك لنا ذنبًا، ورحمة واسعة لا تذر أثرًا للذنب إلا طمسته، فإذا غلبتك نفسك على الذنب، وأردت أن تتبع أثره لم تجدْه فيصعب عليك العودة إليه حتى تتركه بإذن الله.

«مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا»[1]

اطمئنوا يا خلق الله، فقد خلقكم ليرحمكم، ليعفو عنكم، فقط آمنوا واتبعوا وإن أخطأتم توبوا وعودوا، فلا منفعة له في عذابكم ولا ينقص ملكه شيئًا إن غفر لكم جميعًا وأدخلكم الجنة، فلِمَ تختارون البعد، وتظلمون أنفسكم بالإصرار على الذنب؟!

وكيف تطيب نفسُ عبد أن تعصي ربًا قال لعباده في الحديث القدسي: **«يا ابن آدم قم إليّ أمشِ إليك، وامشِ إليّ أهرول إليك»**[2]

يرى منك أقلَّ رغبة في القرب، فينميها ويقويها، ويهديك ويرشدك، بل ويفرح بتوبتك فرحًا عظيمًا، وهو الغني عنا جميعًا.

واسمع ما قال صلى الله عليه وسلم:

«للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلَته بأرضٍ فَلَاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيسَ منها،

(١) سورة النساء:١٤٧

(٢) صحيح الجامع

فأتى شجرةً فاضطجَعَ في ظلِّها قد أيس من راحِلَته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخِطامها، ثمَّ قال مِن شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شِدَّة الفَرح»[1]

يصف فرحة الله بتوبة عبده، كأحدهم كان على سفر في الصحراء القاحلة وعلى ناقته أكله وشربه وحاجاته، فإذا بها تهرب منه بها عليها، فيستظل بالشجرة ينتظر الموت، فإذا بها تعُود إليه وتقف أمامه مرة أخرى، هل سبق وحدث لك مثل هذا؟

فَقَدْتَ شيئًا ثمينًا، وبفقده كانت ستحدث لك مشكلة كبيرة ثم إذا بك فجأة تجده!

هل تذكر فرحتك في هذه اللحظة؟

الله -عزوجل- يفرحُ بتوبة عبده العائد إليه فرحةً تفوق فرحتك وفرحة الرجل الذي عاد من الموت بعودة ناقته إليه، ويظلُّ السؤال لِمَ يارب؟

فلا تجد إجابة إلَّا لأنه يحب خلقه ويتودد إليهم، سبحانه الرحيم الودود الغفور.

وإذا سألتك يا صديقي، من تظن أنهم أبغض عباد الله إلى الله، بماذا ستجيبني؟

كما توقعت منك، الكفار.. هؤلاء الذين كذَّبوا رسلَ الله، ومنهم من ادَّعى أن لله ولد، ومنهم من أنكر وجوده أصلًا، ومنهم من عبد غيره من عباده ومخلوقاته.

---

(١) صحيح مسلم

ولكن انظر إلى رحمته بهم في الدنيا فلم يمنع عنهم العطاء والرزق، ولم يحرمهم الزوجة والولد، بل أعطاهم بكرمه وجوده ومنته ورحمته.

قال صلى الله عليه وسلم: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل، إنه يشرك به، ويجعل له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم**»[1]

حِلمٌ ليس بعده حلم، ورحمة لا تدانيها رحمة، يسمع الأذى ويراه من عباده، يعبدون غيره وينسبون له النقص البشري ثم بحلمه ورحمته يعافيهم ويرزقهم.

«**أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**»[2]

إن تابوا وعادوا وآمنوا بالله ورسوله، يغفر لهم ما سلف، ولا يؤاخذهم على فترة كفرهم به، وإن مكثوا على كفرهم مئات السنين.

يحنو عليهم ويعطيهم الأمل فيقول: «**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**»[3]

يغفر لهم كل ما فات بكل ما فيه مهما كان، سبحانه العظيم الكريم الرحيم.

يقول ابن مسعود -رضى الله عنه وأرضاه -عن رحمة الله يوم القيامة: «والله ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر».

تسع وتسعون رحمة ادخرها الله لهذا اليوم، يرحمُ بها عباده ويغفر لهم ويعفو عنهم، يتجاوز عن المسيء ويقبل التائب ولا يفضحهُ بين العباد.

---

(١) صحيح مسلم

(٢) سورة المائدة ٧٤

(٣) سورة الأنفال:٣٨

بل والأعجب ما أخبرنا به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن الله يأمر بإخراج أربعة من النار ليقضي بينهم، وكانوا قد استحقوا عذابه ببعدهم وفجورهم، ثم يأمر بهم إلى النار مرة أخرى، فإذا بواحد منهم يلتفت ويقول: «ربي ما كان ظني بك إذا أخرجتني من النار أن تعيدني فيها»، فتخيل معي ماذا فعل الله؟

أدخله الجنة برحمته وكان عند ظن عبده.. عفا عنه بعدما استحق العذاب بفعله!

أي رحمة وعفو ومغفرة وتسامح وود منه تجاه خلقه، فدعني أسألك، بعد كل هذا **كيف لا نحب الله الرحيم العفو الغفور.**

علامات حب العبد لله

وهكذا يا صديقي، تتأمل في نعم الله وتعيش في رحاب صفاته مرارًا وتكرارًا، لا تمل المحاولة ولا تترك الطَرْقَ حتى يُفتح لك باب محبته.

نعم، فالأمر يحتاجُ إلى الجهاد والجدية، فما أفسدناه في سنين يحتاج إلى وقت ومجهود حتى نصلحه.

هدمُ بناء ضخم لا يستغرق ثوانٍ معدودة، أما بناؤه فقد يستغرق سنين، ومع هذا يكفيك أن ترى جمال البناء وقبح الهدم لتعلم أن الأمر يستحق العناء.

كان أحدهم في مجلس رابعة العدوية يقول: «من أكثر الطرق يوشَك أن يُفتح له» فقالت له: «يا هذا! ومتى أُغلق الباب حتى يُفتح!»

باب الوصول إلى محبة الله مفتوح دائمًا، اجتهد وإن رأى صدقَ نيتك، فلا تحمل بعدها همًا.

وبمجرد أن تصل ويرتوي قلبك بحب الله؛ ستجد النور يسطع في جنبات نفسك ليطرد عنها ظلام البعد الذي طال، ليحملك إلى جنَّات لم تكن تعلم أو حتى يخطر ببالك أنها موجودة أصلًا.

هل تذكر تلك القصص المصورة التي كانت تحكي عن ذلك الشاب الذي كان ضعيفًا مهينًا بين أصدقائه، وأثناء زيارته لمتحف طبيعي إذا بعنكبوت يلدغه ليعود صاحب القصة إلى بيته وينام ليستيقظ اليوم التالي بقدرات خارقة، جسم ممشوق وعضلات قوية وقوة في النظر وقدرات في التسلق وغيرها، كل هذا التغيير في يوم وليلة.

قصة تبدو مسلية ولكنها لن تكون واقعًا في دنيا الناس، ولكنَّ هناك شعورًا ساحرًا لو خالط قلبك فعلًا؛ لوجدت تغيرًا في نفسك في يوم وليلة لم تكن لتصدق أنه بالإمكان! **إنه الإيمان!**

والإيمانُ هو النتيجة المباشرة لحب الله، وله علامات إن رأيتها كلَّها أو بعضًا منها، فاعلم أنك قد بدأت السيرَ على الطريق الصحيح! طريق حب الله.

العلامة الأولى: أن تحب كلام الله

فالمحبُ لا يشبع من كلام محبوبه، هُناك ممن نعرفهم من يكلم حبيبته بالساعات ولا يسأم حديثها، -ولله المثل الأعلى- إن أردت أن تعلم أين أنت من محبته، فانظر إلى حبك لكلامه، هل تعلَّق قلبُك بتلاوته؟

هل سماع آيات الله من صوت ندي خاشع أصبح جزءًا من يومك؟

هل تجد في نفسك الرغبة في فهمه وتدبره والتمتع بمعانيه؟

هل تجتهد في العمل بمقتضاه والتحلي بأخلاقه؟

العبد المحب لربه، لا تجده إلا متعلقًا بكتابه، متبعًا لكلامه، شغوفًا برسالاته إلينا في آياته.

العلامة الثانية: كثرة الذكر

لا تجدُ المحب يتكلم إلا بذكر حبيبه، إن سكت فكَّر فيه، وإن تكلم فعنه، وإن نام فيراه في حلمه، وإن غاب بادر بالسؤال عنه، والعبد المحب لربه أولى بذلك.

قال صلى الله عليه وسلم: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، كمثل الحي والميت**»[1]

قلبٌ حيٌ بذكر الله، وقلبٌ ميتٌ بالبعد عنه.

عبادة الذكر يا صديقي، أسهل عبادة وأصعبها في الوقت ذاته!

عبادةٌ باللسان تستطيع فعلها في أي وقت وأي مكان بلا تحضيرات مسبقة، فلا وضوء ولا سترعورة كالصلاة، ولا انقطاع عن أكل وشرب كالصيام، ولا سفر ومشقة كالحج، ولا إنفاق مال كالزكاة، فقط لسان يتحرك وقلب يستشعر، ومع ذلك يغفل عنها الكثير.

الذكرُ له من القدروالثواب على سهولته الكثير، وانظر إلى قول النبي: «**سبق المفردون**»[2]، أي أن الذاكرين سبقوا غيرهم من عباد الله بكثرة ذكرهم لله؛ فنالوا من الأجر ما لم يحصله غيرهم.

(١) صحيح البخاري

(٢) صحيح مسلم

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هنَّ الباقيات الصالحات اللاتي تَبْقَى للعبد عند الله، ولا تفنى بموته، بل تنتظره في آخرته؛ ليرى من ثوابها ما يُسعده ويُرضيه.

العلامة الثالثة: التقرب إلى الله بالنوافل

العبدُ المحبُّ لا يكتفي فقط بالمفروض، ولكنَّه يتفنن في إرضاء حبيبه بألوان الطاعات والعبادات، يُصلِّي الفرض ويزيد، فيصلي سنن الصلاة، ويصوم رمضان ويزيد، فيصوم النوافل وهكذا، لا يصبرُ على طاعة ترضي عنه حبيبه العلي العظيم.

العلامة الرابعة: محبة ما يحب الله

فالمحب الحق يحب ما يحبُّ حبيبه أكثر مما يُحبه هو، بل أكثر من حبه لنفسه.

شيطانٌ يوسوس بالشر، ونفس تأمر بالسوء، فأين هواك من هذا؟

هل يتبع شيطانك ونفسك الأمارة، أم يكون هواك تبعًا لما يهوى حبيبك؛ فتتغلب على نفسك وشيطانك من أجله؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[1]

(١) الأربعون النووية

فطرة فطرك الله عليها من حب الخير والطاعة، وبعدها تأتي الأيَّام والأحداث وبحسب رد فعلك تجاهها، إمَّا أن تغيَّرها أو تثبتها.

والأمر بسيط، إذا تلف جهازك المحمول في كثير من الأحيان يكون الحل إعادة الجهاز إلى ضبط المصنع، وهذا ما يفعله حب الله بقلبك، يعيدك إلى ضبط الفطرة؛ فيتحول هواك من حبِ ما تهواه نفسك الأمارة إلى حب ما يُرضي حبيبك!

العلامة الخامسة: الانكسار بين يدي الله

فلا يرى العبد نفسه شيئًا بين يدي مولاه، بل يتأمل ضآلته وعظمة الخالق؛ فيزيد انكسارًا وذلًا للعزيز العظيم.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما السَّماوات السّبع في الكُرسيِّ إلَّا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكُرسيِّ كفضلِ تلك الفلاةِ على تلك الحلقةِ**»[1]

كل الكون بفساحته إذا قورن بكرسي الله، وهو خلق من خلق الخالق العظيم، كان الكون كالخاتم المُلْقَى في صحراء شاسعة!

والكرسي إذا ما قارنَّاه بعرش الله، وهو خلقٌ من خلق الخالق العظيم، كان الكرسي كالخاتم المُلْقَى في صحراء شاسعة!

---

(١) السلسلة الصحيحة

والعبد إذا قُورن بالكون الفسيح، كان أصغر من ذلك وأقل! وهكذا يرى العبدُ نفسه بين يدي ربه العلي، لا شيء بدون الله، وهو به أقوى الأقوياء كما قال القائل: «**ماذا وجد مَنْ فقد الله، وماذا فقد من وجد الله**».

والدخول على الله من باب الذل والافتقار يليق بعبد يمجد ربه ويعلم فقره وغنى مولاه، يرى العبد ذله ويستحضر عز سيده؛ فيقوى ويعز بذله لله.

فترى العبد في صلاته ودعائه خاشعًا يرجو ويلجأ ويحتمي بملك السماوات والأرض.

العلامة السادسة: محبة الخلوة

فلا ترى محبًا في الدنيا إلا ويحب أن يَختلي بحبيبه، يرجو من قلبه أن تختفي كلُّ الموجودات ولا يبقى في الكون إلا هو ومن يحب.

وهكذا من أحبَّ الله، يحب أن يختلي بكتابه؛ ليتدبر كلامه ويتمتع به، يشتهي الخَلْوة كي يذكر الله، يختلي بنفسه ليحاسبها ويُقوّم أخطاءها، يقوم الليل وقت تنزل الله العلي؛ ليطلب منه العفو والغفران، ويطمع فيما عنده من العطاء والنعم.

يقول صلى الله عليه وسلم: «**ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فينادي، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[1]

(١) البخاري ومسلم

كل ليلة يدعو اللهُ عباده لينالوا من كرمه، ينزل إلى السماء الدنيا نزولًا يليق بجلاله وكماله في الثلث الأخير من الليل، ليسمع دعاء محبيه؛ فيستجيب ويُعطي ويغفر، فكيف لمحب أن يغيب عن هذا المشهد!

كل ما سبق يا صديقي، هو نتيجة إيمان العبد بالله، وأثر محبة الله في نفسه، ولكن احذر فالإيمان كما أخبرنا نبيُّنا، يزيدُ وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وهكذا يدور إيمان العبد بين الزيادة والنقصان -وهذا طبيعي ويحدث لنا جميعًا- فإما أن ينتبه إلى النقصان ويسرع لمعالجته، وإما أن يسيطر نقصان الإيمان على قلبه؛ فتقل طاعته، وينسى محبته، وقد يعودُ إلى نقطة البداية.

ولهذا أدعوك يا صديقي أن تضع لكل نقطة من النقاط الست السابقة تقييمًا من ١٠ درجات -كالذي صنعناه في محاسبة النفس- واسأل نفسك كم نقطة تستحق، وماذا تفعل حتى تزيد نقاطك؟

وأبيِّن لك بالمثال:

كيف حالي مع القرآن؟

التلاوة نقطتان، والسماع نقطتان، والتدبر نقطتان، والعمل بمقتضاه والالتزام بأخلاقه أربع نقاط.

المجموع الكلي: ١٠ نقاط.

وبذلك نُقوِّم أنفسنا تقييمًا موضوعيًا، ونكتشف نقاط ضعفنا لنقويها، ونكتشف النقص في إيماننا مبكرًا؛ فنواجهه كي لا يباغتنا ونحن لا ندري.

ودعني أذكرك مرة أخرى، لا لجلد الذات والتقليل من النفس والقنوط من رحمة الله، لا تدع الشيطان يخدعك، حتى لو كان كل ذلك ينقصك بقليل من المجاهدة والاعتماد على الله، ستصل لأعلى درجة لا محالة.

إذا أحبك الله!

أولياء الله الصالحون، هؤلاء الأسطوريون الذين طالما سمعنا عنهم!
تُرى ما الذي فعلوه حتى ينالوا هذا الوصف العظيم؟ **أولياء الله!**
يبدو أن لهم صفات خاصة وخصائص خارقة!
ما صفاتهم يا ترى؟
لا بد أنهم لا ينامون أبدًا، ولا يتعبون من العبادة طوال الوقت، يسبِّحون الليل والنهار، يتكلمون بالقرآن ويتنفسون بالذكر، غذاؤهم الدعاء وشرابهم الصلاة، ولابد أنهم لا يُخطئون أبدًا!
هل يُشترط أن يكونوا من الصحابة؟
من نسأل حتى نحصل على إجابة شافية؟
لا يُوجد أفضل من صاحب الأمر لنسأله من أولياؤك يا رب؟
وما صفتهم؟

قال الله: «**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)**»[١]

يبدو أنَّ الأمر ليس كما توقعنا، لا توجد صفات خارقة في الأمر، صفاتهم كما ذكر الله: «الذين آمنوا وكانوا يتقون».

كل ما فعلوه يا صديقي، أنهم صدقوا الله وصدقوا ما جاء به رسوله، اجتهدوا في فعل ما أمر، واجتناب ما حرَّم، وسارعوا إلى التوبة إذا أذنبوا وغلبتهم أنفسهم.

أناس طبيعيون، ولكنَّهم اجتهدوا في رضاه؛ فرَضِي عنهم وصاروا من الصالحين، وبقدر اجتهاد كل منهم تكون ولايته لله، لا خلطة سرية ولا صفات أسطورية.. **فقط اجتهاد ومثابرة.**

فلِمَ لا نكون أنا وأنت منهم؟

ستسألني، وكيف يكون ذلك؟

والإجابة: بكل ما ذكرناه من أول لقائنا يا صديقي، هذا كل شيء، لم أخفِ عنك منه أي شيء، أقسم لك!

تخيَّل أن تكون وليًا لله، وتعال أحدثك عن حالك يا ولي الله، وهداياه لك!

---

(١) سورة يونس

 يحبك الله والملائكة والصالحون

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل إنَّ الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[1]

الله العزيز العلي القوي العظيم ينادي كبيرَ ملائكته (جبريل عليه السلام)، ليخبره أنه يحبك!

نعم، يذكرك الله باسمك ويأمر جبريل أن يحبَّك.

لا تُكمل القراءة هكذا، عُدْ إلى السطرين السابقين، وتأمَّل ذكر الله لك باسمك، كي يرتوي قلبك من محبته ثم عد لنكمل.

يحبك جبريل أمين وحي السماء الذي نزل بالرسالة على الرسول صلى الله عليه وسلم، ويأمر أهل السماء من الملائكة الكرام أن يحبوك؛ فيحبوك.

يُوضع لك القبول في الأرض؛ فتجد الصالحين من عباد الله يُحبونك ويرضون عنك ويتقربون منك ويطلبون قربك وودك، يحبونك بحب الله لك، وأي هدية أرفع قدرًا أو أعظم شأنًا من أن يحبك الله.

أما بقية هداياك يا ولي الله، فقد ذكرها الله في الحديث القدسي إذ قال:

«**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى**

(١) صحيح مسلم

أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1]

٢ الأمان

وتعال نتأمل سويًا أول جزء من الحديث: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب».

منذ زمن ليس بالبعيد -لا تُشعرني بكبر سني فما زلت في منتصف الثلاثينيات من العمر- أيام المدرسة ونحن صغار، كنا نتقوى بمن هم أكبر منا سنًا، فكان الأقوى فينا من يعرف أحدًا في القسم الثانوي ونحن في القسم الإعدادي.

يكفي فقط عندما تضايقه أن يُذكِّرك باسم صاحبه الكبير حتى تتراجع عن مضايقته، بل وتعتذر له.

وعندما كبرنا صار الأقوى من له معارف ذوو نفوذ، لا يخاف من شيء، فبمجرد ذكر علاقته بهم؛ تتفتح الأبواب وتنتهي المشاكل وتتحوَّل الدنيا من براكين وزلازل إلى عالم من الفراشات وقوس قزح.

أما أنت يا ولي الله، فلك ما ليس لأحد غيرك، من عاداك أو أراد بك سوءًا فهو مجنون لا يعلم لمن يتعرض، فمن يحميك ويحفظك ويدافع عنك هو الله جل في علاه، ويُعْلِمُ الله كلَّ الخلق بذلك فيقول: «فقد آذنته بالحرب»، أنا من سيحاربه.

---

(١) صحيح البخاري

هل استشعرت معنى أن يحفظك الله ويحميك؛ فتكون في ضمانه وأمانه؟.

أمانٌ تام تبحث عنه البشرية كُلُهَا، صراعٌ محموم على المال والسلطة والصحة والشهرة وغيرها من زخرف الدنيا بحثًا عن الأمان، فشعار العالم الآن الخوف، خوفٌ من كل شيء وأي شيء، والخوف عذاب فوق العذاب.

قد تملك المال الكثير، ولكنك تخشى ضياع مالك، فأنت من خوف الفقر في فقر، وقد تملك الصحة وتخشى المرض، فتُصبح من خوف المرض في مرض، وقد تحيا في سعادة ظاهرة، ولكنَّك تخاف حلول المصيبة وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها.

فلا المال ولا الصحة ولا الرخاء يجلب لك الأمن، الأمن في القرب منه فقط، ولكنَّ أكثر الناس يبحثون في المكان الخطأ، أما أنت يا ولي الله، ففي أمان الله.

كان أبي -رحمه الله- يضعني صغيرًا على ركبتيه وهو يقود السيارة، ويتركني أمسك بالمقود وكأني أقودها، وكنت أمسك بالمقود مسكة الخبير، وأمثل كأني أديره يمينًا وشمالًا في سعادة وأمن؛ لأنَّ السائق الحقيقي كان أبي، هو من يحميني ويحتضنني ويحفظني.

أتخيل لو تركني في السيارة وحدي، وهي تسير وقفز منها وترك لي القيادة، ظني أني كنت أموت خوفًا وهلعًا قبل الحادث الذي كنت سأتسبب فيه لا محالة!

هو كل الأمان وبدونه خوفٌ مطلق!

ولله المثل الأعلى: «**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**»[1]

فأنت يا ولي الله، تسير في حياتك، ولكن من يحميك ويرعاك ويحفظك ويدافع عنك هو الله، وأمَّا غيرك فيسير في حياته مفتقدًا معية الله؛ فيُوكل إلى نفسه، فأي الشخصين أحق بالأمن!

٣ السكينة

وهنا يأتي الجزء الثاني من الحديث: «وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه».

السكينة يا صاحبي، حالةٌ من السكون والطمأنينة والسعادة والتفاؤل والثقة في الله، فمن قال إنك في حماه هو من يملك الدنيا وما فيها، يملك الناس والصحة والمال والحياة والموت والرزق، يملك كلَّ البشر، فالملك والأمير والوزير والقائد والخادم والقوي والضعيف والغني والفقير كلهم عباده الضعفاء، وهو القوي الغني.

فأي شيء يستطيع أن يصيب قلبك بقلق أواضطراب، وأنت في حماه؟

الأمن والسكينة إن قُدِّرا بثمن؛ كانت الدنيا وما فيها أقل من أن تشتري شعورًا واحدًا منهما، فضلًا عن أن تشتري الاثنين!

فالمرءُ إن أوتي كل شيء في الدنيا وحُرم السكينة؛ كان أشقى أهل الأرض! **كم أنت مُطمئن يا ولي الله!**

ولكن يا صديقي الأولياء على درجات، وكلَّما زادت درجتك في الولاية زاد العطاء الإلهي.

---

(١) سورة الرعد:٢٨

الدرجة الأولى، وهي الأقل:

درجة من اكتفى بفعل ما فَرض الله، ففعلوا الواجبات وتركوا المحرمات فصاروا من أولياء الله؛ لأنهم فعلوا أكثر ما يحب الله ويرضاه من عباده.

يقول الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله تعالى**»[1]

وقال حفيده (الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز): «**أفضل العبادات أداء الفرائض واجتناب المحارم**».

أمَّا الدرجة الثانية:

فهي درجة المقربين، هؤلاء الذين لم يكتفوا بالفرائض بل زادوا عليها من النوافل ما يُقربهم من الله -سبحانه وتعالى- نوافل الصلاة، والصيام، والصدقة، والعمرة، والحج، وتلاوة القرآن، والذكر وغيرها، لم يتركوا بابًا يُوصلهم إلى حبه إلا وطرقوه حتى أحبَّهم الله.

٤ الحكمة

أمّا هدية الجزء الثالث من الحديث: «**فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»

يؤتي الله وليَّه الحكمة، وهي الكنز الذي لا يُقدّر بثمن:

(١) جامع العلوم والحكم

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]

ذو الحكمة يرى ويسمع بتوفيق الله، فيرى ما وراء زخرفة الشيطان من المعصية، ويسمع ما خلف صوت غناء حورية البحر من خطر، فحتى إن سعى نحوها في أول الأمر، سُرعان ما يعود إلى طريق الله.

وذو الحكمة يرى ما وراء مشقة العبادة من النعيم، فلا يقفُ زاهدًا فيما عند الله من النعم والعطايا بل يسير في طريق العبادة حتى ينشرح لها صدره؛ فيدخل جنَّة الإيمان في الدنيا قبل جنَّة الآخرة.

وذو الحكمة لا يحبَّ ولا يكره إلا لله، فهو يعلم أنَّ كل حب لغير الله زائل، وكل كره لغير الله حماقة، فلا يُحب المرء إلا لقربه من الله، ولا يبغض أحدًا من خلق الله، ولكن يبغض المعصية؛ فيبعد عن أهلها حتى لا تصيبه العدوى، وإن كان مخالطًا ولابد خالطهم مخالطة الناصح لا مخالطة الصديق الحبيب.

وذو الحكمة لا يمشي إلا إلى ما يُرضي الله، فهو ذو نية في كل عمل يمشي إليه، إن كان العمل يرضي الله فعله، وإن لم يكن تركه.

توفيقٌ في السمع والبصر واليد والرجل؛ فيُرضي ربه بكل جوارحه، وإن عصاه عاد إليه من فوره، فهو يعلم أن كل شيء تخشاه تفر منه إلا الله، لا مفر منه إلا إليه، وهو أرحم الراحمين.

(١) سورة البقرة:٢٦٩

5 الرضا

وهنا يأتي المقطع الأخير من هذا الحديث العظيم:

«وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»

تخيَّل أن تكون مستجاب الدعوة، تطلب من الله فيُعطيك، ربك الذي بيده كل شيء، رب العالمين ومالك الملك يعدك أن يفعل، يا ولي الله.

ولكن هل معنى ذلك أنك لن تتعرض لمحن أو أحزان؟

لن ترى عراقيل أوصعوبات؟

لن تُرَدَّ لك دعوة أبدًا؟

بالطبع لا، فإنك مختبر -لا محالة- بالمحن والأحزان، وقد اختبر الله من هو أفضل منا جميعًا (نبيه صلى الله عليه وسلم) بالحزن والمحن!

وقطعًا ستتعرض للعراقيل والصعوبات التي تفرق بين العبد الحقيقي والولي المطيع، وعبد النعمة الذي إذا ذهبت عنه النعمة؛ ولَّى مدبرًا!

وقد يرد الله بعض دعواتك بحكمته ليرد عنك سوءًا أردته ويبدلك به خيرًا أراده لك، أو يدّخر لك بها من النعيم في الجنة ما هو به أعلم.

ولكن الله أنعم عليك بنعمة الحب؛ فتحب ما يأتي منه ولا ترى فيه إلا الخير، وأنعم عليك بنعمة الأمان فمهما تكن صعوبة الأمر فأنت تعلم أنك في ضمانه وحمايته، ورزقك السكينة فتجد قلبك في وسط الابتلاءات مطمئنًا واثقًا في نصر الله وأفاض عليك من الحكمة؛ فتثق في حكمة الحكيم -سبحانه وتعالى- مهما كان الخطب شديدًا، وصار

الرضا حليفك فإن منعك أو أعطاك رضيت؛ لأنك تعلم أنه **ما منعك إلا ليعطيك وما حرمك إلا ليرزقك.**

«مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)»[١]

حياتك يا ولي الله، حياة طيبة مهما كانت ظروف الحياة وابتلاءاتها، فأنت تحيا مع الله وبالله ولله؛ فنعم الحياة!

عُدنا إلى أرض الواقع مرة أخرى، ما أجمل حياة الولي!

أرى أنك تعلقت بها ورغبت فيها! والله، وأنا كذلك.

قد نكون بعيدين فعلًا، ولكن الرائع في الأمر أننا لو سرنا على الخطوات التي تكلمنا عنها -طوال اللقاء- بصدق، نصلُ إلى ولايته سبحانه.

دعني أودعك يا صديقي إلى أن نلتقي!

إيه ده؟

ما شاء الله، تسأل عن عمر وماذا فعل؟!

كنت أظنك لا تهتم! ولكن بما أنك سألت؛ واجب عليّ أن أجيبك، وأنا بتلكك صراحة كي أكملَ كلامي معك!

(١) سورة النحل

مش هعرف

أصبحت علاقة عمر بعبد الله أشبه بعلاقة الأخ الصغير بأخيه الأكبر المتزوج الذي يراه في الأعياد والمناسبات، ليسا صديقين بالمعنى الحرفي، فعبد الله شاب متزوج يكبر عمر بعشر سنوات، وهو بين العمل وبيته في مسئولية مستمرة، يقتطع من وقته بالكاد كي يُدرِّس في المسجد، وتفهَّم عمر ذلك جيدًا؛ فأصبح ينتظر الدرس حتى يلقاه ويجلس معه بعدها قليلًا من الوقت، يسأله عن شيء أو شيئين ثم ينصرف منتظرًا موعد الدرس القادم.

لم يتغيرْ عمرُ كثيرًا، أو لعلَّه تغير! الأمر يتوقف على نظرتك للأمور ورؤيتك لما يجب أن يصل إليه، أصبح يُصلي في بعض الأحيان ويترك -زي ما بنقول بيقطع في الصلاة- أصدقاؤه كما هم، ولكنه أقلع عن

الحشيش، مازال على علاقته بحبيبته، يدخن بشراهة كعادته، علاقته بأبيه وأمه تتحسن باستمرار.

يوم الدرس هو اليوم الوحيد الذي يدخل فيه المسجد، نعم أصبح يواظب على صلاة الجمعة، ولكنه يُصلي خارج المسجد على سجادته بعد أن يدرك القليل من الخطبة -كنا فين وبقينا فين- وهو الذي كان لا يصلي ولا حتى الجمعة.

اليوم يوم الدرس، ذهب كعادته وصلَّى معهم الجماعة وجلس يستمع إلى الدرس حتى انتهى، وانتظر حتى سلَّم عبد الله على أهل المسجد وخرج معه وهو يثني على الدرس وكيف استفاد منه كعادته.

«الدرس النهارده كان جامد جدًا كالعادة ربنا يكرمك يا عبد الله».

ردَّ عبد الله على ثناء صاحبه بابتسامته التي عهدها عنه، وكان يكتفي بها كرد على الثناء ويتبعها فقط بكلمة «حبيبي».

ولكن عمر أردف قائلًا: «بص يا عبد الله، أنا فعلًا اتغيرت جدًا وبقيت بعمل حاجات مكنتش أتخيل إني أعملها، بس لسه فيه حاجات حاسس إني مش مقتنع إني لازم أسيبها، فيه حاجات في حياتي أنا عارف إنها لازم تتغير بس بحبها، أنا طول عمري كده وصعب جدًا التغيير المطلوب مني ده!»

«مش صعب ده مستحيل،أنا مش هعرف!»

«أنت فاهمني؟»

ردَّ عبد الله قائلًا: «عمر يا صاحبي، أنا وأنت عارفين كويس أوي إنك عارف الصح من الغلط، وإنك فاهم كويس إنه مينفعش تبقى

عايز تقرب من ربنا وتفضل زي ما أنت، والله فاهم جدًا إنك اتغيرت، بس لو وقفت على كده؛ ممكن جدًا ترجع زي الأول وجايز أسوأ!»

«في طريقك إلى ربنا، أنت زي السلم الكهربائي، يا طالع يا نازل، مفيش وقوف في مكانك!»

ردَّ عمر بصمته الذي أقرَّ جملة عبد الله!

أكمل عبد الله: «أنت اخترت الطريق فعلًا، بس محتاج حاجة تثبتك وتساعدك إنك تكمل ومتقفش أو ترجع زي الأول لا قدر الله!»

قال عمر والاهتمام بادٍ على وجهه:

«إيه هي الحاجة ديّه؟!»

ردَّ عليه عبد الله: «إنك تحب ربنا يا عمر!».

نظر إليه عمر نظرة المتهكم، وقال: «أنا بحب ربنا عادي يعني، أنا مش ملحد!»

قال عبد الله: «حب ربنا لو دخل قلبك بجد هيطلع حب كل المعاصي اللي أنت قولت بحبها ومتعلق بيها وصعب أبطلها ديّه، ولو فعلًا بتحب ربنا؛ هتكره الذنب ولو عملته هتعمله عن ضعف مش عن حب وهتتوب منه بسرعة، حب حقيقي محتاج مجهود عشان توصله، كلنا بنحب ربنا باللسان إنما المطلوب حب بالقلب والروح والمواقف، أنت عارف معنى كلمة الله؟ معناها الإله المحبوب الذي تتوجه إليه القلوب بالمحبة والتعظيم والطاعة، عشان تعبده وتطيعه لازم تحبه بجد».

ردَّ عمر وقد عاد إليه الاهتمام: «أحبه إزاي؟»

قال عبد الله: «عشان تحب ربنا لازم تتأمل نعمه، وتتعرف على صفاته سبحانه وتعالى».

أكمل عبد الله خطوات حب الله، وعمر يسمع بتأثر يظهر في كل حركاته وسكناته، وظلَّ يسأل وعبد الله يجيب إلى أن سأل: «طب ممكن تحكيلي قصة حد حب ربنا غيَّر فيه فعلًا، الحوار ده بيفرق معايا جدًا!»

فكَّر عبد الله للحظات، ثم بدأ يحكي القصة بكل كيانه، وكأنه أمام المصلين في المسجد.

المدلل

تعال ندخل إلى بيت بطل قصتنا، بيت رائع يدل على غنى صاحبه، بالفعل هو من أغنى أغنياء مكة، يُقال عنه فتى مكة المدلل، وحيدُ أمه المرأة الغنية النسيبة (ذات النسب الشريف) هو من (بني عبد الدار) الذين يحملون مفاتيح الكعبة، أجمل شباب مكة وأكثرهم ترفًا، يلبس الثوب يشتريه بمائتي درهم (ما يعادل ستة آلاف جنيه بسعر عملتنا في زمننا هذا)، وقد لا يلبسه إلا مرة أو مرتين، يشتهر بعطوره الخاصة والنادرة التي لا يستخدمها غيره، سيد في مكة رغم شبابه، مطاع ذو كلمة.

مائدةٌ عظيمة تلك التي أعدوها، أنواع كثيرة وطعام فخم يزيد قناعتنا بغنى وترف صاحبنا المنعم.

ذاع صيت الدعوة الجديدة التي ظهرت في مكة، سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- عند أهل مكة جميعًا صادق أمين، ولكنهم انقلبوا عليه بعد جهره بالدعوة إلا القليل منهم، وكان صاحبنا من هؤلاء القلة الذين لم ينقلبوا عليه.

أحبَّ أن يسمع من النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا الدين الجديد، فعلم أنه في بيت الأرقم فذهب إليه، وقف بين يدي رسول الله يسأله عن الدين الجديد ورسول الله يجيبه، يعرض عليه أفكار الدين وأهدافه، يُسمعه من كلامه العذب، ويتلو عليه آيات من كتاب الله.

سمع بقلبه لا بأذنيه، وتسربت آيات الله في نعومة تليق بجمالها وكمالها لتملأ قلبه بنور لم يكن يعرف أنه موجود، نور رحمة ومغفرة وعفو وحب من الله لعباده المؤمنين جعله يقول في نفسه: «وأنا أحب أن أكون منهم».

حبُّه لله بدأ مبكرًا، ومعه بدأت قصته المبهرة.

أخفى إسلامه عن أمه فقد كان بارًا بها يخشى من رد فعلها، ولكن لم يَطُل الأمر كثيرًا، علم أحد المشركين بإسلامه وأخبر أمه بأمره.

وعند المواجهة لم يكن أمامَه إلا أن يُخبرها بحقيقة الأمر ويدعوها إلى الإسلام، رفضت أمه رفضًا شديدًا بل وهددته بالتعذيب والحبس وحرمانه من كل ما يملك، لم يفكر مرتين ورفض تهديدها وقبل بكل عذاب في سبيل دينه.

عُذب -رضي الله عنه- عذابًا شديدًا، حتى تغيَّر لونه وأُنهك جسده وظلَّ في محبسه حتى سمع أن فريقًا من المسلمين سيهاجر إلى الحبشة،

فإن بها أهل كتاب (نصارى) ويحكمهم حاكم عادل، وبعد أن خرج من ماله وجاهه وسلطانه جاء الوقت ليخرج من بلده، وما دفعه لذلك إلا حب ربه والتمسك بدينه.

استخدم المكر والحيلة حتى نجح في الهرب من أهله، وخرج مع جماعة من المسلمين يقصدون الحبشة، أرض جديدة ومصير مجهول، ولكن المُحب يخوض المخاطر في سبيل حبيبه ولا يهتم.

وصل بطُلنا إلى الحبشة، وبدأ المسلمون حياتهم في كنف النجاشي (ملك الحبشة) الحاكم العادل، ولكنَّهم عاشوا كأقلية منعزلة منفصلة عن المجتمع الحبشي؛ ولهذا لم تكن الحبشة مناسبة كوطن تنطلق منه الدعوة إلى العالم، ولكنها كانت مناسبة لهذه المرحلة.

كان صاحبنا محبًا لمولاه، شغوفًا بمعرفة ربه أكثر وأكثر، متطلعًا إلى مزيد من الحب فما كان منه إلا الانكباب على كتاب الله؛ حتى صار من أحفظ صحابة النبي للقرآن وفهمًا له، وكلَّما ازدادت معرفته لربه، زاد له حبًا وطاعة وسَهُلَ البذل في سبيله.

الغني المنعم الذي كان يرى الحرير خشنًا، تراه الآن يلبس بردة مرقعة ويشد وسطه بقطعة من جلد الكبش سعيدًا بمعية الله والقرب منه.

قضى المسلمون في الحبشة ما شاء الله لهم حتى جاءهم الخبر السعيد، النبي -صلى الله عليه وسلم- التقى بوفد من يثرب (المدينة المنورة) وأسلم لله منهم اثنا عشر رجلًا، وبايعوا النبي على أن يعملوا على نشر الإسلام في ديارهم.

خالط الأمل قلوب الصحابة، ودعوا الله أن تكون يثرب هي مقر الدولة الناشئة وبداية انطلاقها، ومع شوق القلوب إلى الأهل والديار،

وقبلها إلى رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم، قرَّر نفرٌ من المسلمين العودة إلى مكة بجوار الرسول وقالوا في أنفسهم: «لو استقر الأمر في مكة بقينا فيها بجوار النبي وإلا هاجرنا إلى إخواننا في يثرب» وكان من هؤلاء النفر بطلنا.

عاد إلى مكة، ولا أستطيع أن أصف لك شوقه إلى النبي طوال الطريق ولا حرارة اللقاء بينهما، وعندما عاد كانت في انتظاره المفاجأة.

«**لا راحة لك يا بطل**»، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يبحث عن أحد الصحابة، حتى يبعثه سفيرًا إلى يثرب، ولكن لابد لهذا السفير من صفات محددة ومهمة للغاية:

١-هذا السفير ينبغي أن يكون عالمًا بالقرآن والسنة؛ ليُعلِّم المسلمين الجدد دينهم.

٢-داعية ناجح يُحسن الكلام والعرض والنقاش ومؤثر في القلوب.

٣-غنيٌ وحسيب ونسيب؛ حتى لا يُظن أنَّ الدين الجديد مجرد ثورة من الفقراء على الأغنياء.

٤- مُقنع للسادة والأغنياء، يضرب لهم مثلًا في مواجهة الصعاب والتضحية بكل شيء من أجل الدين.

٥- ذكيٌ عالمٌ بالإدارة والسياسة يدرس الوضع الاقتصادي والسياسي والعسكري والاجتماعي ليثرب في ظل وجود اليهود بها بكثرة، وظروف الحرب بين الأوس والخزرج (قبيلتان من قبائل المدينة المنورة).

٦- تهيئة الوضع في يثرب لاستقبال المهاجرين من مكة، إن وجد الأمر مناسبًا.

عالم، ومفوه، ومحب لله ولرسوله، ومخلص لدعوته، وذكي، وسيد، كل هذه الصفات جعلت اختيار النبي لصاحبنا أمرًا طبيعيًا، وأمره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينطلق إلى يثرب في مهمته الجديدة.

السفير

بلد جديد، وطبيعة مختلفة، ومخاطرة عظيمة، فقد يتعرض للأذى ممن يرفضون الدعوة في يثرب، ولكن كل هذا لم يكن ليقف في طريق من أحب ربه وتعلق به وذابت نفسه وروحه في حب سيده؛ فلم يعُدْ يرى إلا ما يرضيه، ولا راحة له إلا بطاعته.

نزل بطلنا على (أسعد بن زرارة) رضي الله عنه وأرضاه، وبدأ دعوته سرًا يلتقي بالمسلمين كي يعلمهم الإسلام ويلتقي بغير المسلمين يدعوهم، وكان كل هذا على نطاق ضيق حتى لا يصل الأمر إلى السادة سريعًا؛ فتفشل المهمة قبل أن تبدأ.

ولكن كالعادة جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، ولكن لتحمل سفينته بقدر الله إلى مكان أفضل مما كان يتخيل.

في يوم جلس بطلنا مع (أسعد بن زرارة) في أحد حدائق الأوس، وقد جمع له أسعد أكبر عدد من الناس ليكلمهم عن الإسلام، وبدأ يقرأ عليهم القرآن ويشرح لهم رسالة الإسلام، وبينما هم على حالهم هذا وصل الأمر إلى اثنين من سادات الأوس (أسيد بن حضير) و(سعد بن معاذ)، وعندما سمعا بالأمر قال سعد لأسيد: «اذهب أنت إليهما

وامنعهما من خداع الضعفاء وليبتعدا عن أرضنا، ولولا أن أسعد ابن خالتي لذهبت بنفسي إليهما».

ذهب أسيد إليهما ومعه حربته ليهددهما ويخرجهما من الحي، وصل إليهما ورآه أسعد قادمًا في ثورته، ولكن أي ثورة تلك التي تؤثر في قلبٍ أحبَّ الله وتعلق به فقال لبطلنا:

«هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه»، استعن بالله يا بطل؛ يُجرِ الحق على لسانك، وقد يُسلم سيد القوم.

بدأ أسيد بالكلام فقال: «ما جاء بكما إلى ديارنا، تخدعون الضعفاء ليتبعوا دينكم، اخرجا إن كان لكما في أنفسكما حاجة!» تهديد صريح بالقتل إن لم يذهبا.

فما كان من البطل إلا أن ردَّ عليه قائلًا في فقه داعية متوكلًا على ربه واثقًا فيه: « ما رأيُك أن تجلس فتسمع؟ فإن سمعت خيرًا قبلته، وإن كان غير ذلك خرجنا».

فقال أسيد في نفسه: «لم لا أسمع له؟! حسنًا، سأعطيه الفرصة»، وجلس يستمع إليه مستندًا على حربته.

بدأ يحدثه عن الإسلام ثم قرأ عليه القرآن، فما إن خالط كلام الله قلبه؛ حتى دخله بغير استئذان فذهب عن وجهه الغضب، وظَهَرت مكانه السكينة والهدوء حتى قال أسعد عن تلك اللحظة: «فوالله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراق وجهه والنور الذي علاه».

وعندما يرى الله الصدق من قلبٍ؛ يهديه ويوفقه، وهذا ما حدث مع أسيد بن حضير رضي الله عنه، الرجل الذي جاء يريد قتل داعية

الإسلام، وقف أمامه وقد حمل وجهه علامات الهدى وقال:

«ما أحسن هذا الكلام وما أجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟»

لحظة صدق تكفي ليهتدي قلب كافر، فما بالك بقلب مسلم!

أسلم أُسيد وأراد من قلبه أن يسلم صاحبه سعد بن معاذ، فذهب إليه وقد دبَّر خطةً لذلك، فلما رآه سعد قادمًا من بعيد قال لمن حوله:

« أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم»، رأى نور الإسلام في وجهه دون أن يدري.

اقترب أسيد منه وبدأ يقص عليه قصة قد اخترعها حتى يذهب إليهما بنفسه، فقال له إن الرجلين أطاعاه بمجرد أن أمرهما بالخروج، ولكنَّه فوجئ بجماعة من بني حارثة يريدون أن يقتلوا ابن خالته أسعد إهانة له.

لم يكن يعلم حرمة الكذب في دينه الجديد، ولكنه بخطته هذه أشعل القبلية في قلب سعد، وقد كانت أكبر محرك لهم فأخذ حربته وانطلق إليهم.

فلمَّا وصل إليهم لم يجدْ عندهم أحدًا كما قال له أسيد، فعلم أنه ما قال له هذا إلا لأنه يُريد أن يبعثه إليهما، فلمَّا رآه أسعد قال لصاحبنا: «جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يُسلم؛ يسلم جميع قومه».

فلما وصل سعد عندهما، ارتكز على حربته ثم قال موجهًا الحديث إلى ابن خالته:

«والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما تركتك، تأتي إلى ديارنا بما نكره وتخدع الضعفاء بدينك هذا!»

فقال له البطل: «ما رأيك أن تجلس فتسمع؟ فإن سمعت خيرًا قبلته، وإن كان غير ذلك خرجنا من دياركم».

جلس يسمع، وبدأ يتلو عليه كلام الله الذي كان أثرُ تلاوته عليه كأثرِه على أسيد بن حضير؛ فتزلزل قلبه وخشعت روحه واستسلم لكلام الله؛ فأسلمت كل ذرة فيه قبل أن ينطق الشهادتين.

وكان إسلامُهما بداية الفتح، فانطلقَ سعد إلى قومه قائلًا:

«يا بني عبد الأشهل (قوم سعد بن معاذ)، لا أكلم أحدًا فيكم، لا رجل ولا امرأة حتى تؤمنوا بالله ورسوله».

سيدٌ محبوبٌ مطاعٌ مُصدقٌ في قومه، فما كان من قومه (بنو عبد الأشهل) إلا أن أسلموا جميعًا، واستضاف سعد بطلنا في بيته، يدعو إلى الإسلام ويعلِّم الناس الدين، وكسر أصنام قومه هو وأسيد بن حضير؛ فكان إسلامُهما فتحًا عظيمًا.

وبفضل الله ثم بفضل بطلنا المحب لربه ورسوله، المضحي بنفسه لدينه أسلم عدد كبير من أهل يثرب وأصبحت بفضل الله نواة دولة الإسلام، فهاجر إليها النبي والمهاجرون، واستقروا فيها؛ فكانت المنارة التي أضاءت العالم بنور الحق حتى وصل إلينا الدين!

عاش البطلُ في المدينة بجوار النبي، يتعلم الدين، ويتفقه فيه، ويُجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي ينظر إليه وإلى رقة حاله، فيقول وقد أشفق عليه: «انظروا إلى هذا الذي قد نوَّر الله قلبه،

لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطايب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلة اشتراها أو شُريت له بمائتي درهم، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون».

حب الله ورسوله ملأ عليه قلبه، فأخرج كل ما سواه حتى ولو كان المتعة المباحة فهو لا يريد أن تمر لحظة دون طاعة أوعبادة أو تعلّم عن الله ورسوله.

البطل

حضر بطلنا غزوة بدر، وكان يحمل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو علم ضخم كتب عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وحضر بطلنا غزوة أحد وكان حاملًا للواء.

وفي أُحُد، كان النصرُ للمسلمين أولًا، وكان في حماية الجيش مجموعة من الرماة على جبل أمرهم النبي ألا يتركوه أبدًا مهما حدث في الحرب، فلمّا رأوا نصر المسلمين، خالفوا أمر النبي ونزلوا إلى ساحة القتال، وهنا مالت كفة الحرب إلى الكفار.

ارتقى الجبل مجموعة من مقاتلي قريش، وسيطروا على الساحة وزاد القتل في المسلمين، قاتل بطلنا قتال الشجعان الأبطال وكان ممن أحاطوا برسول الله يدافعون عنه.

كم كان يُشبه النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ما جعل ابن قميئة (أحد كفار قريش) يظنه النبي، فجرى إليه وفي غفلة من بطلنا ضرب

ابن قميئة يده اليمنى فقطعها، لم ينظر إلى يده المقطوعة ولم تَعْنِهِ في شيء، ولكنَّه نظر إلى لواء رسول الله الذي لم يكن ليتركه يسقط على الأرض، فحمله بيده اليسرى فضربها ابن قميئة فقطعها، ولكنه لم يترك اللواء فضمه -رضي الله عنه- بعضديه إلى صدره في مشهد لا يوصف ولا يمكن تخيله، فقط من أحب الله هذا الحب هو من يفعل ذلك، فضربه ابن قميئة في صدره بالرمح فقتله، رضي الله عنه وأرضاه.

البطل العظيم، فتى قريش المدلل، سيد بني عبد الدار، مصعب الخير كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيدنا مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه، تراه الآن ممددًا على أرض المعركة شهيدًا مضرجًا في المسك لا في الدماء، مرَّ عليه النبيُ ووقف عند رأسه، ينظر إليه ودعا له ثم قرأ هذه الآية: «**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**» (الأحزاب: ٢٣)

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يُسلِّمُ عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه»، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

لم يترك مصعب -رضي الله عنه- من الدنيا إلا كساءً غليظًا به خطوط بيضاء وأخرى سوداء، صغير الحجم كلما أرادوا أن يغطوا به رجله ظهرت رأسه، وإن غطَّوا رأسه ظهرت قدمه رضي الله عنه وأرضاه.

استشهد وترك دنيا لم يطمع فيها بل وباعها ليشتري آخرته وذهب إلى حبيبه -سبحانه وتعالى- ليجزيه خير الجزاء.

وهكذا يفعل الحب الصادق بأهله، يأخذهم من حال كانوا يظنون

أنهم لن يغيروه أبدًا إلى حال يرون فيه جنتهم لمجرد أنه يُرضي المحبوب، ويصبح الذي يحبه المحبوب أحب إليهم من الدنيا وما فيها.

توقف عبد الله عن الكلام بعدما أنهى قصته ونظر في عيني عمر، وكانت عينا عمر توحيان بفهمه لكل شيء، كل ما يحتاج إليه أن يتعلم حب الله، فإن أحبَّ الله لم يكن في الدنيا ما هو أحب إليه من رضاه.

وانصرف عمر دون أن ينطق بكلمة أو حتى يودع صاحبه، سار شاردًا وفي عقله دعاء يتردد!

«اللهم عرِّفني عليك، وقربني منك، وارزقني حبك يا رب العالمين».

وهكذا يا صديقي ينتهي لقاؤنا الليلة، ولو عليا كنت أقعد معاك أكتر من كده، ولكن لا بأس، سأنتظرك إلى أن تأتي بشوق، ولكن لا تتأخر، فالمحب لا يتأخر عن حبيبه وأنا بالفعل أحبك.. أحبك في الله، وأرجو أن تكون قد بادلتني نفس الشعور.. إلى اللقاء.

تدريب النعم

اكتب كل يوم قبل أن تنام نعم الله عليك التي استشعرتها طوال يومك واحمده عليها، وبعد أن تنتهي الصفحتين لا تتوقف، اصنع لنفسك كتاب للنعم، تستمر فيه على هذه العادة كل يوم .. وانظر الفرق!

الحمد لله على:



اليوم الرابع

أن تعيش الآخرة

«فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)»[١]

---

(١) سورة هود

مرحبًا بك، هل تُصدق ذلك؟

لم تمر سويعات قليلة على لقائنا السابق، ولكني افتقدتك بشدة وهكذا الحب في الله! يشتاق الأخ إلى أخيه الذي يحبُّه في الله ولو غابوا عن بعضهم دقائق معدودة.

تعرف؟ ذُكر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه اشتاق مرة إلى معاذ بن جبل فلم يَنَمْ ليلته حتى لَقِيَهُ في صلاة الفجر، فذكرَ له ما كان من شوقه إليه فبَكَيَا وتَعَانقَا.

مرحبًا بك، سعِدتُ بعودتك.

وبمناسبة الحب، تكلمنا في لقائنا الأخير عن أقوى محرك للتغيير في علاقتنا به -سبحانه وتعالى- وهو الحب.

ولكن، هل الحب يكفي وحده لتغيير مؤثر ودائم؟

أم إنه يحتاجُ إلى أحاسيس مُسَاعِدَة يَلْجَأ إليها العبد، حتى تستقيم علاقته بالله؟

«أنا بحب الشركة اللي أنا شغال فيها جدًا، وبروح الشغل كل يوم عشان بحبها مع إنهم لا بيدوني مرتب ولا بيخصموا مني، كلُّه بالحب كده وبس».

هل ترى أي منطق في الكلام السابق؟

بالطبع لا، فقد جبلنا الله -عز وجل- على الرجاء في الثواب، والخوف من العقاب كمحرِّكات لأفعالنا مع الحب، الحب رأس الفعل، ولكن إن لم يكن الحبُّ كافيًا وَحْدَهُ؛ جاء الخوفُ والرجاءُ فساعداه كي يصل صاحبهم إلى بر الأمان.

فكم منا يحب عمله؟ عيني في عينك كده؟

أغلب من يذهب إلى العمل لا يقوده الحب، إما يقوده الرجاء في الراتب والعلاوة والترقية والنجاح، أو يقوده الخوف من الخصم والطرد، وهو بتلك المشاعر يذهبُ إلى عمله كل يوم، ويؤدي المطلوب منه على النحو الصحيح.

ما زلت تدرس؟

إذًا ما رأيك أن تجرب التالي مع من حولك من الأصدقاء؟

اسأل كلًا منهم عن الدافع الذي يحركه في الدراسة؟

لماذا يذاكر ويجتهد في بعض الأحيان؟

وما الذي يجعله أحيانًا يترك متعة التصفح على مواقع التواصل أو الألعاب أو مشاهدة التلفاز؛ ليقوم إلى كتبه ومذكراته؟

سؤالٌ يَسْهُلُ تخمين إجابته من غير تنجيم، أكثر الناس سيجيبون: «الخشية من الرسوب»، وأقل منهم سيقولون: «رغبة في التفوق الدراسي والتميز العلمي»، وأقل القليل سيجيبون: «حبًا في المادة وعشقًا لتفاصيلها».

وتعال يا صديقي نتأمل في حال كل منهم:

من يتحرك فقط خوفًا من الفشل:

الحقيقة أنَّ الخوف يُحفزه فعلًا، رغبته في العمل أكيدة، ووصوله إلى نتيجة إيجابية جائز، ولكن اعتماده على الخوف وحده في الوصول، إمَّا أن يجعله يصل وهو في غاية التعب البدني والنفسي، وإمَّا أن يورثه القنوط بأنه لن يصل أبدًا مهما حاول؛ فيترك العمل، زي ما بيقولوا: «خربانة خربانة».

فإما وصول مرهق مستنفد للقوة والروح، وإما قنوط من النجاح واستسلام للفشل.

من يتحرك رجاءً في التفوق والتميز فقط:

محفز قوي هو، رغبته أكيدة في العطاء والاجتهاد، واحتمال نجاحه أكبر من المُحفز السابق، ولكن اعتماده على الرجاءِ وحده مع عدم الخوف من الفشل والسقوط؛ قد يؤدي به إلى بعضِ التراخي؛ فيصل به إلى نتيجة أقل مما كان في استطاعته أن يصل إليها أو الكثير من التراخي؛ فيقع في الفشل بسبب ثقته المفرطة.

فإمَّا نتيجة أقل من المتوقع، وإمَّا فشل غير متوقع.

من يتحرك بالحب وحده:

أشد الثلاثة سعادةً وتحفيزًا، يعمل وهو لا يشعر بالجهد أصلًا، نَجَاحُهُ محتمل أكثر من صاحبيه، ولكن حتى المحب قد ينشغل عما يحب إن لم يجدْ في حبه ثوابًا أو عقابًا، قد يقل حُبُّه مع الوقت إن لم يجد لِحُبِّه مردودًا واضحًا، وقد ينصرف إلى حبٍ آخر يجد فيه ضالته من العطايا المرغوبة ويخشى فقدانه، وهو بذلك قد يصل إلى نفس نتيجة من تحرك بالرجاء وحده، إما نتيجة أقل من المتوقع وإما فشل غير متوقع.

كل شعور منهم بمفرده لا يوصلك إلى النجاح المطلوب، حتى وإن جرَّبْتَ أن تخلط اثنين منهما دون الثالث؛ ستبقى النتيجة أقل من اجتماع الثلاثة معًا.

هي الخلطةُ السريةُ التي لا بديل عنها، ولا يوجد أفضل منها للنجاح في حياتك، وخصوصًا في طريق سيرك إلى الله (الحب+الخوف+الرجاء).

الخلطة السرية

قال ابن القيم رحمه الله: «**القلبُ في سيره إلى الله -عزَّ وجلَّ- بمنزلة الطَّائر، فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرَّأسُ والجناحان، فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عُرضة لكل صائدٍ وكاسر**».

انظر إلى هذا التشبيه بإمعان، الحبُّ رأس الطائر فلا حياة له إلا بالحب، فلو نزعنا رأسه لن تبقى له حياة، فالحب أهم عنصر في المعادلة، فلا عمل ولا طاعة ولا عبادة بدون الحب، وكلَّما زادت نسبة الحب في قلب العبد ازداد قربًا من ربه سبحانه وتعالى؛ فيجد في نفسه الرغبة في المزيد من العبادة، ويسهل عليه مقاومة شهواته بل قل تصبح شهوته مقاومة نفسه الأمارة بالسوء وحثها على الاطمئنان بالقرب من الله.

أما الجناحان فهما الخوف من الله وعقابه، والرجاء في رحمته وجنته،

وكلما توازن الجناحان حَسُنَ طيران الطائر في طريقه إلى الله، فإذا رجح الخوف أدَّى ذلك إلى القنوط من رحمة الله، وإذا رجح الرجاء، أدَّى إلى الأمن الزائد والتفريط.

قال الله -عز وجل- عن الخوف والرجاء:

«أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ»(١)

يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، توازن تجده في قلب المؤمن يحيا به ويعلم كيف يحافظ عليه، فيسير في الطريق إلى الله بثبات لا يهتز مع عواصف الشهوات، ولا يتأثر بزلازل الشبهات، ولا يهتم إن كان وحيدًا في الطريق؛ فمعية الله وصحبته يكفيانه.

وهكذا عندما تتأمل في كتاب الله، تجد ذكر الرحمة والعذاب، الجنة والنار، الثواب والعقاب، ثنائيات تأتي مقترنة؛ كي يضع الله عباده أمام الحقيقة، ويذكرهم بأهمية هذا التوازن.

«اعْلَمُواْ أَنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»(٢)

«نَبِيّء عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ»(٣)

«أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً»(٤)

---

(١) سورة الزمر:٩

(٢) سورة المائدة:٩٨

(٣) سورة الحجر:٤٩-٥٠

(٤) سورة الإسراء:٥٧

«إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا»[1]

«يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا»[2]

وغير ذلك الكثير من آيات كتاب الله التي توجهنا بوضوح إلى الحفاظ على توازن الخوف والرجاء؛ فهما طريق النجاة والفوز الوحيد.

كان النبي في زيارة لشاب وهو في سكرات الموت فقَالَ: «كيف تَجِدُكَ؟» قالَ: والله يا رسولَ الله، إنِّي أَرْجُو اللهَ، وإنِّي أخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليْه وسَلَّم: «لا يَجْتَمِعَانِ في قَلْبِ عَبْدٍ في مِثْلِ هَذا الْمَوْطِنِ؛ إلاَّ أعْطَاهُ اللهُ ما يَرْجُو، وآمَنَهُ ممَّا يَخَافُ».

خوف ورجاء اجتمعا في القلب؛ إذًا لا خوف عليك أيها الشاب، هكذا وضح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أهمية هذا التوازن الذي إذا سكن القلب، فلا خوف على صاحبه! سيصل إلى غايته في النهاية، جنة عرضها السماوات والأرض.

والسؤال الآن، كيف نصلُ إلى التوازن بين الخوف والرجاء؟

التوازن أن تستخدم الشيء الصحيح وقت الحاجة إليه، فلا تقطع الخبز بالمنشار الكهربائي، ولا تقطع الشجرة بسكين المطبخ.

الخوف سلاحُك وقت هزيمتك أمام نفسك الأمارة بالسوء، عندما يتسلط عليك شيطانك وتجد في نفسك الميل إلى الخطأ، صوت يملأ داخلك قائلًا: «هيا يا صديقي إلى الملذات ولا تقل هذا حرام وهذا حلال؛ فالله يحبك ويرحمك وهو الغفور الرحيم، حتى لو كان في الأمر

(١) سورة الأنبياء:٩٠

(٢) سورة السجدة:١٦

خطأً فلا بأس، لا تسمع لمن يكلمك عن العذاب والعقاب فهؤلاء متشددون، لا يعلمون ما نعلمه من رحمة الله».

حكمة شيطانية، أو كما قال أحدهم: الشيطانُ يعظ، الله غفور رحيم فعلًا، ولكنَّه قول حق يُراد به باطل، عندما نتذكر المغفرة فقط؛ يغلب جناح الرجاء جناح الخوف؛ فيذهب توازن قلبك، فتكون أقرب إلى الوقوع في المحظور، وتأتي الذنب وأنت تزعم حب الله والثقة في رحمته.

وهنا وجب عليك أن تستشعر الخوف من عذاب الله وعقابه، أن تتذكر أن الله يراك وقادر على عقابك في لحظة الذنب؛ واستحضار عاقبة ذلك في آخرتك حين تلقاه هو الحل الأمثل حتى توقف نفسَك وشيطانك، وتعيد التوازن إلى قلبك فيقاوم مقاومة العبد المحب لربه، الخائف من عذابه؛ فتنتصر في نهاية الأمر وتخضع لأوامر الله ونواهيه.

وفي الحديث، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي صلَّى الله عليْه وسلَّم: «**يقول الله عز وجل: وعزَّتي، لا أجمع على عبدي خوفَين، ولا أجْمع له أمنَين، إذا أمِنَني في الدُّنيا، أخفتُه يوم القيامة، وإذا خافني في الدُّنيا، أمنته يوم القيامة**»[1]

خاف في الدنيا من عذاب الله؛ فانضبط وأطاع؛ فلهُ الأمن في الآخرة، وهو من أهل الجنة أو أَمِنَ عذابَ الله في الدنيا؛ فاجترأ على أوامر الله ونواهيه؛ فلا أمن له في الآخرة، وهوَ من أهل العذاب، لا يجمع الله للعبد أمنين ولا خوفين!

إذًا متى نستحضر الرجاء؟

(١) صحيح الترغيب

الرجاءُ سلاحك وقت القنوط من رحمة الله، فبعد أن تقع في الذنب، تُراودك الرغبة في التوبة والعودة إلى الله، وهنا يرفع الشيطان في وجهك سلاح الخوف!

«لا توبة لك، إن الله لن يقبلك أبدًا بعد كل هذا البعد، ذنوبك أكبر وأعظم من أن تُغْفَر».

فيذكرك بعذاب الله وعقابه وعِظَمِ ذنبك؛ فتقنط من رحمة الله ولا تتوب.

وهنا عليك أن ترفع سلاح الرجاء في وجهه، فتذكر رحمة الله وعفوه ومغفرته لعباده التائبين، وتنقذ قلبك قبل أن يقع في ظلام الخوف ليطير مرة أخرى في سماء الوصول إلى الله.

وهكذا تصل بقلبك إلى التوازن المطلوب بين الخوف والرجاء، فلا تأمن أمانًا يُطغيك، ولا تخافُ خوفًا يقنطك، وبذلك تصل.

صور الخوف والرجاء

هل تعلم يا صديقي، أنا لا أحب الانستجرام instagram أبدًا (موقع تواصل اجتماعي يقوم على مشاركة الصور).

صور في كل مكان، واقع افتراضي بمعنى الكلمة، إذ لا وجود له في الحقيقة.

هذا يقضي وقته طوال الوقت في السفر بين البلاد السياحية، لا يسكن إلا فنادق خمس نجوم، ولا يأكل إلا في المطاعم الغالية بصحبة الحسناوات، ولا يلبس إلا الماركات العالمية النادرة، دائمُ السعادة، كثير المال، لا يعرف للشقاء طريقًا.

أما هي، فكأنها تعيش عند مصفف الشعر وخبيرة التجميل، هما أبوها وأمها، بشرة نضرة وشعر ناعم لامع، لا تظهر إلا بمساحيق التجميل، وهي تحمل الهدايا الكثيرة الغالية التي لا تدفع في سبيلها مليمًا واحدًا.

هذا ما تُظهره الصور، ولكن الحقيقة غير ذلك، لن أخوض في تفاصيل كثيرة، ولكن سأكتفي بالإشارة، فكثيرًا ما ساقني القدر كي أجلس مع أحدهم، لا شيء مجاني يا صديقي، أشياء تُعطى وفي مقابلها أشياء أخرى تُسلب، قد يُسلب منك في سبيل صورة كرامتك أو احترامك لنفسك أو حريتك!

والآن، تعال معي لننظر إلى حال الكثيرين، وهم يتابعون تلك الصور التي علمنا ما وراءها.

هل ترى هذا الشاب الذي هناك؟ نعم، هذا الذي يرتدي القميص الأبيض!

إنه ينظر إلى صورة أحد المشاهير على انستجرام، وهو في سيارة ذات سقف مكشوف، هل تسمع حديث نفسه؟

«يا ابن الأييييه حتة عربية، يا رب أوعدنا، أنا ممكن جدًا أعمل فيديوهات أحلى من بتاعته، هو بيعمل إيه أصلًا؟ بلا هندسة بلا وجع قلب».

ها هو أمسك بهاتفه المحمول يحدّث كاميرته الأمامية بأول مقطع له لعلَّه في يوم من الأيام يحوز نفس الشهرة التي حازها صاحب الصورة، ويركب سيارةً كالتي يقودها.

هل ترى هذا الرجل الأربعيني الأسمر؟

إنه غارقٌ في أفكاره وهو ينظر إلى صورة تلك الفاشونيستا (لقب يطلق على فتيات المواقع اللاتي يتكلمن عن الموضة)، ولو سقط البناء الذي بجواره فوق رأسه ما انتبه له ولأخرجوه من تحت الأنقاض وهو

ما زال يُحدق في الصورة، يلوم نفسه على تسرعه بالزواج من تلك المرأة التي يُلقبونها بزوجته، إنها ليست كصاحبة الصورة، ولو عاد به الزمن ما تزوج إلا واحدة كتلك التي يُحدق فيها.

أما هذه التي تُقلب في مقاطع الفيديو للفنانة الشهيرة التي أهدى إليها أحدهم تلك القلادة الفاخرة، فهي الآن تقرر أنها لن تتنازل عن أن تصبح ممثلة مثلها مهما كلفها الأمر، فحياةٌ كحياة تلك الفنانة تستحق كل التضحيات.

كلهم حرَّكتهم صور عاشوا معها ووضعوا أنفسهم فيها، فمنهم من قرر السير في طريق غير الذي كان فيه، ومنهم من ندم على قرار اتخذه، ومنهم من أصرَّ على طريقه حتى لو كان خطأً، يكفي أن يعيش في الواقع تلك الصورة التي عاشها في خياله.

الصورة في خيالك تحركك، وكلَّما استغرقت فيها وعشت تفاصيلها وتعلقت روحك بها، تحركت نحو ما يوصلك إليها بهمة وجد، فلا عوائق تستطيع أن توقفك، ولا عقبات تثنيك عن الوصول إليها.

مثلًا، تريد أن تفقد الوزن وتبني جسمًا رياضيًا، فإذا تخيلت الصورة السيئة التي قد تصبح عليها إن أبقيت على الزيادة في وزنك، وعشت المتاعب البدنية والتدهور الصحي المتوقع، فرأيت نفسك بعين خيالك وأنت تتعب من أقل مجهود، وتتأثر بأبسط حركة، ونظرت إلى حالك وأنت على فراش المرض تعاني من الأمراض والمتاعب الصحية ثم عدت لتتخيل نفسك بجسدك الممشوق وحياتك السعيدة، وأنت تستمتع بكامل صحتك وتمارس نشاطاتك وحياتك بسعادة وصحة؛

لشعرت بالرغبة في العمل واتباع الحمية بغير تقصير حتى ولو صَعُبَ الأمر عليك في بعض اللحظات، يكفي أن تتذكر الصورتين؛ فيعُود إليك حماسك وتنمو بداخلك الرغبة!

ولكن حتَّى تعيش الصورتين بشكل مؤثر وفعال، لابد لك من القراءة عن أخطار السمنة وأثرها السلبي على صحتك، وأن تسمع تجارب من فقدوا صحتهم بسبب السمنة وتعيش ندمهم على ذلك بنفسك، وفي الوقت ذاته تقرأ عن هؤلاء الذين عاشوا حياتهم بصحة وسعادة وكيف أن الحياة الصحية تجعلك أكثر قوةً ونشاطًا، وتستمع إلى قصص نجاح هؤلاء الذين قضوا أعمارهم حتى بلغوا سنًا كبيرًا وهم يتمتعون بكامل صحتهم، وقصص الذين انتقلوا من السمنة إلى الصحة وكيف أنقذوا حياتهم.

بهذه الطريقة ينمو عندك التصور الكامل للحالتين، فتصنع صورًا دقيقة وكأنَّها عين الحقيقة، فترى بعينيك نتيجة إهمالك واستمرارك على ما أنت عليه؛ فتخشى سوء العاقبة وما ستؤول إليه، وترى كذلك نتيجة مجهودك وما ستنعم به من الصحة والسعادة؛ فترجو ذلك النجاح وترنو إليه فتعمل أملًا في الوصول إليه.

ولله المثل الأعلى، كان هذا منهج الله عز وجل مع بداية نزول القرآن ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

تقول أمنا الصديقة عائشة بنت أبي بكر:

«إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر؛ لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني

لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده».

أول ما نزل من القرآن ذكر الجنة والنار حتى يبني الله عندهم التصوّر، وحتى يعيشوا الصورة النهائية جنةً كانت أو نارًا، وبعد بناء التصوّر نزلت آيات الحلال والحرام؛ لأنَّه قد صار مع الناس صور تدفعهم إلى العمل خشيةً من عذاب النار ورجاءً في نعيم الجنة.

يُريد الله من عبده المؤمن أن يحيا آخرته في الدنيا وأن يعيش جنته وناره وهو سالم بين أهله، حتى إذا خاف النار واشتاق إلى الجنة؛ انطلق إلى الطريق الذي فيه مصلحته، فسمع وأطاع وكان على العهد حتَّى يموت ويلقى ربه؛ فيفوز بجائزته وينجو من نار كان يخشاها ويعمل جهده حتَّى يُزحزح عنها، ويعيش جنة الخلد التي لطالما حلم بها فتصير له داره الأبدي.

وكان هذا منهج تربية النبي -صلى الله عليه وسلم- للصحابة.

يقول حنظلة رضي الله عنه وأرضاه:

«نكون عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يُذَكرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأي عين».

كان النبي يحكي لهم عن النار والجنة حتى يشعروا وكأنهم دخلوها وعاشوا فيها، وكان ذلك وقودهم للطاعة والعمل دائمًا.

وهذا واجبٌ علينا إن شئنا الاستقامة على الطريق.

أن نتأمل آخرتنا، ونعيش الثواب والعقاب لحظة الموت، وفي القبر، وعند البعث، وعند الوقوف للحساب بين يدي الله، وما يأتي بعد الحساب من جنة أو نار، فنرجو رحمة الله ونخشى عقابه فنفوز الفوز الكبير.

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)»[١]

ولكن دعنا نتفق أولًا على شيء مهم، الموت وما بعده حقائق لا مفر منها وسنمر بها لا محالة، والكلام عنها لا يدعو الى الكآبة ولا يغرس فينا الخوف، ولكنَّه قراءة لرسالة الله إلينا، طال عمرنا أو قصر سينتهي يومًا ما.

فواجب علينا أن نُعمِّرَ الأرض بطاعة الله ونفع خلقه، ولا ننشغل بكم بقي من أعمارنا، فهذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله -عز وجل- ولا نترك العمل انتظارًا للموت، ولا نؤجل نفعًا أو عملًا صالحًا، فلا ندري هل اقترب الأجل أم ليس بعد؟

فقط ننشغل بأن يرى الله منَّا صدق العزيمة والنية الخالصة والعمل الجاد، حتَّى إذا جاء الأجل نكون قد أدينا ما علينا من طاعة الله وإعمار أرضه ونفع عباده؛ فنفوز برضاه وجنته والنظر إلى وجهه الكريم.

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ»[٢]

لا مفر من الموت أبدًا، كل نفس ستذوق الموت ولو عاشت مئات السنين وإلى الله المرجع والمصير، والفوزُ الحقيقي ليس في متاع الدنيا الزائف، ولكنه في النجاة من النار والخلود في الجنة، فيا رب اجعلنا من عبادك الفائزين!

وهذا ما دعا به صاحبنا عمر حين دخل القبر لأول مرة!

---

(١) سورة البروج

(٢) سورة آل عمران:١٨٥

الكتاب

استيقظ عمر من نومه بفعل خيوط الذهب التي فرَّت من سطوة الشمس لتتسلل خلسة إلى غرفته، وتدق أبواب عينيه في رفق معلنة انتهاء زمن النوم وبداية يوم جديد.

قام عمر ليمارس طقوسه الصباحية وعلى الرغم من مظهره الذي لا يوحي بأي انضباط، كان عمر صاحب نظام ثابت يمارسه كل صباح.

يضعُ الماء في الغلاية الكهربائية ويتركه ليغلي ثم يغتسل بالماء البارد ليُذهب عن نفسه أثر النوم، ويبدأ يومه برائحة طيبة وإحساس منعش، يخرج من الحمام إلى المطبخ ليضغط زر الغلاية مرة أخرى حتى يغلي الماء أمامه، وكأنه لا يصدق أنها أتمت مهمتها بنجاح، لابد أن يتأكد بنفسه.

يَصْنعُ كوب الشاي الصباحي ومعه شطيرة الجبن التي يحبها، ثم يجلس في غرفة المعيشة على الجانب الذي اعتاد الجلوس فيه، ينظرُ إلى هاتفه ليقرأ ما فاته من رسائل الأصدقاء ومدوناتهم وصورهم على مواقع التواصل الاجتماعي.

وقبل أن يبدأ في تناول طعامه واحتساء مشروبه المنعش، سمع رنين الهاتف المنزلي.

كما يبدو لك هو وحده في المنزل، أبوه وأمه منذ يومين يبيتان عند جدته لأبيه؛ فقد اشتد عليها المرض، ولكنها ككل أقرانها من كبار السن ترفض أن تخلع جذورها من أرض منزلها.

«أنا مش همشي من شقتي اللي عايز يجيني أهلًا وسهلًا».

وهكذا قرَّر أبوه وتطوعت أمه أن يبيتا عند الجدة، يتناوبا في خدمتها إلى أن تتحسن حالتها.

نعود إلى هاتف المنزل الذي كان قد توقف عن الرنين فقد صار في يد عمر وهو يجيب:

«ألو»

جاءه صوت أمه من الطرف الأخر: «عمر تعالى دلوقتي عند بيت تيتة، تيتة توفت، البقاء لله».

لم يكن يحتاج إلى تلك الجملة الطويلة حتى يعرف، فقد كان صوت أمه المختنق بالبكاء كافيًا.

ترك عمر الطعام وكوب الشاي وأسرع في ارتداء ملابسه، وهو في

ذهول الصدمة، تلك الصدمة التي تجعل روحك خالية من التعبير، لا حزن ولا بكاء ولا شيء، مجرد نظرة ذاهلة لا تعبير فيها.

لم تكن جدة عمر كأي جدة، ولكنها كانت ذات مكانة خاصة عنده، فكم بات عندها وقت الخلاف مع أهله، وكم وقفت معه في مواجهة أبيه وأمه، وكانت دائمًا واثقةً أنه سيتغير إلى الأحسن، كانت تقول له:

«عارف يا واد يا عمر، أنا مش بدافع عنك عشان أنا راضية عن اللي أنت بتعمله، ومتستهبلش على ستك وتقول إنك مبتعملش حاجة، بس أنا شايفة البذرة النضيفة اللي جواك، وعارفة إن ربنا هيقبل دعايا ليك».

وكانت أول من احتفل به لمَّا بدأ الانتظام في صلاته في المسجد، وظهرت عليه علامات التغير، وكانت تتباهى به سعيدةً بعودته إلى الله!

وصل عمر إلى بيت جدته الحبيبة، وهنا بدأت تتحول نظرته من الذهول إلى الحزن..

وبدأت الدموع تنهمر منه معلنةً بداية الحداد، ولا داعي لذكر ما يسهل تخيله من مشهد غرفة الجدة وحولها كل من أحبها وأثَّرت فيه، وما أكثرهم، وهم يودعونها الوداع الأخير.



يقولون إن حياة الإنسان هي ما بين أذانين، أذان أبيه في أذنيه عند ميلاده، وأذان الصلاة التي ستعقبها صلاة الجنازة عليه.

صلوا عليها وانصرفوا إلى مدافن العائلة حيث نهاية رحلتها المؤقتة في الدنيا وبداية رحلتها الأبدية في الآخرة.

أصرَّ عمر أن يُنزلها إلى القبر بنفسه ولم يحاول أحدهم أن يمنعه، نَزَل معها وهو يحمل جثمانها ويبكي وكانت أول مرة له في القبر.

كان عمر على الرغم مما عرفناه عنه من الإدمان وحياة اللهو متفوقًا جدًا في حياته الدراسية، وكان يُحب خوض انتخابات المدرسة ومن بعدها الكلية، كان يُحب الشهرة ويعشق أن يُشار إليه بالبنان، يُحبُّ دائمًا أن يكون الأول والأشهر والأكثر تميزًا.

لا لم أنس أين كنا، كنا في القبر مع عمر وجدته.

جلس عمر على تراب القبر بجوار جدته وهو يبكي بكاءً لا يظن الرائي أنه سينتهي أبدًا، سيلٌ من بكاء وتداعي ذكريات مع همهمات غير مفهومة، هذا كلُّ ما يمكن أن تحصل عليه إذا حاولت تهدئته.

وبدأ عمر يرفع عينيه عن جثمان جدته الحبيبة، وإذ به يرى تفاصيل القبر لأول مرة، ضَيِّقٌ مظلم لا يوحي براحة أبدًا، ولكنه تذكر كلامًا سمعه عن نعيم القبر وعذابه، وكيف أنه يصبح روضةً من رياض الجنة لأحدهم وحفرة من النار لآخر، ولو تنظر إليه لظننت أنه واحد آخر غير هذا الذي كان يَبكي منذ قليل، شرود مع سؤال نما بداخله حتى سيطر على كل تفكيره.

«أنا طول عمري رقم واحد، دراسة، انتخابات كلية، هلس، على طول رقم واحد، السؤال بقى هو أنا لما أدخل هنا هبقى نمرة واحد؟!»

سكت قليلًا ثم وجد نفسه ينظر إلى جدته ويدعو لها دعاءً طويلًا، أنهاه بقوله: «اللهم اجعلنا أنا وهي من الفائزين يا رب».

خرج من قبر جدته بعد أن مكث فيه طويلًا ثم وقف بين الناس ينظر إلى التُربي وهو يُغلق مدخل القبر بالأحجار ويضع عليها التراب، ومازال يدعو لها بكل دعاء تعلمه، بالرحمة والمغفرة والعفو ثم وقف يتلقى التعزية ممن حضر، وكان يجيبهم بهمهمات خافتة لا معنى لها، فقد كان لا يعرف ماذا يجيب على من يواسونه بألفاظ العزاء من عينة: «شد حيلك»، «البقاء لله»، «ربنا يجعلها آخر الأحزان» فكانت هذه الحيلة التي لجأ إليها، ولكن لو وضعت أذنيك على جدران قلبه؛ لسمعت هذا السؤال يتردد.

«هو أنا لما ادخل هنا هبقى نمرة واحد؟!»

ذهب الوالدان إلى بيت جدته مرة أخرى؛ لاستقبال وفود التعزية من الأهل والأصدقاء وغيرهم، وعاد هو مرة أخرى إلى البيت ليجد كوب الشاي وشطيرة الجبن في انتظاره وكأنَّهما يسألانه أين كان؟ والغريب في الأمر أنه استجاب لندائهما؛ فالتهم الشطيرة وشرب كوب الشاي البارد في شرود يدل أنه فعل ذلك بدون قصد ثم تمدَّد على الأريكة بملابسه التي يظهر عليها آثار تراب المقبرة، ولكن من يكترث؟

ما زال يفكر في نفس السؤال!

فجأة اعتدل عمر وكأنه وجد ضالته، وانطلق يبحث في مكتبة أبيه الكبيرة العامرة بالكتب في شتى المجالات.

وها نحن نراه وهو يمسك بكتاب ذي صفحات قليلة وغلاف يميز الكتب الدينية، يسهل أن نتوقع محتوى الكتاب كما يَظهر من عنوانه، كتاب يتكلم عن رحلة الإنسان بعد الموت وصولًا إلى الحساب والنتيجة النهائية.

عاد إلى أريكته وفي يده الكتاب، ينظر إليه وكأنه يطرح عليه السؤال الذي سيطر على كل خلية في عقله، فتح الكتاب وهو يرجوه أن يجيبه.

رأى الكتاب اللهفة في عينيه، فقرر ألا يتركه لحيرته أكثر من ذلك وأجابه فورًا في صفحته الأولى بجملة وكأنها موجهة إليه:

«حتَّى تفوز الفوز العظيم لابد أن تراه بعينيك فتشتاق إليه وتعمل له، وحتى تتقي الخسران المبين لابد أن تعيشه بخيالك فتخشاه وتهرب منه، وبين طيَّات هذا الكتاب سنعيش الحالتين حتى نعلم فنعمل».

اختفت الدنيا من حوله واستغرق بكيانه مع الكتاب، وكأنه في فجوة زمنية ومكان لم يصل إليه بشر، لا زمان ولا مكان، فقط هو وصاحب السر الذي قرَّر أن يبوح إليه بسره.

وبدأ يقرأ..

المشهد الأول: الموت

«الموت هو مجرد انتقال من عالم إلى عالم، ومن مرحلة إلى مرحلة جديدة، كل ما في الأمر أن ما تراه في عالمك الجديد وتعيشه هو نتيجة لعملك في عالمك الأول».

إن كنت من المجتهدين؛ فزت بنعيم القبر، والبشرى عند البعث، وظل العرش في أرض المحشر، ودخلت الجنة بسلام، وإن كان العكس فالصورة على النقيض! جعلنا الله وإياكم من أهل الفوز والنجاة.

والحمد لله الذي وصف لنا في كتابه وأوحى إلى نبيه في سنَّته تفاصيل

وصور الحياة بعد الموت؛ حتى نحياها في الدنيا ونعرف الطريق المؤدي إلى كل صورة؛ فنتحول عن طريق الهلاك ونسلك طريق النجاة عن بصيرة وعلم.

ونبدأ بلحظة الموت!

قال الله عز وجل:

«وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ»[1]

«لا شفاعة في الموت ولا حيلة في الرزق»، حكمة تُقرر حقيقة نعلمها جميعًا، إذا جاء الوقت فلا يوجد أحد في الدنيا يقدر على مقاومة قدر الله والأجل الذي حدده سبحانه.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

نيام في الدنيا يظنون أنها الدار المملوكة التي سيعيشون فيها إلى الأبد، فيسعون إلى الشهوات ينهلون منها لا يفكرون في موت ولا حساب، حتى إذا ما ماتوا انتبهوا إلى الحقيقة وأن الدنيا ما هي إلا دار مستأجرة يمكث فيها المرء يومًا أو بعض يوم ثم يسافر إلى داره المملوكة في الآخرة؛ فإمَّا روضة من رياض الجنة وإمَّا حفرة من حفر النار وكل على قدر عمله واجتهاده.

وقد ذكر لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صورتين لهذه اللحظة، لحظة قبض الروح وبداية الرحلة إلى دار الخُلد، صورة للعبد المؤمن والأخرى للعبد الفاجر أو الكافر.

---

(١) سورة الأعراف:٣٤

الصورة الأولى: العبد المؤمن

«إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ؛ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهاَ».

تخيَّل هذه الصورة وكأنَّك فيها، ملائكة الرحمة يَستقبلون الروح بسعادة، وجوههم كالشمس المضيئة، يجلسون من صاحب الروح مدَّ بصره أينما ينظر يراهم، أعدوا كفن الجنة، ومعهم رائحة فردوسية طيبة أُعدت لصاحب الروح، ثم يأتي ملك الموت -عليه السلام- ليطمئن الروح ويبشرها فيقول: اخرجي إلى مغفرة ورضوان، مغفرة للذنوب كلها ورضوان من الله؛ فتسيل وكأنها نقطة ماء تسقط من فمِ زجاجة واسع بغير مجهود أو تعب، أي راحة وأي اطمئنان وأي جائزة منتظرة تلك.

تلك اللحظة التي ينسى عندها العبد الصالح أي تعبٍ أو شقاء أو بلاء عاشه في الدنيا، ينسى كم تعب في مقاومة نفسه الأمارة بالسوء وشيطانه الذي لو طُلب منه أن يشهد له لشهد باجتهاده في غوايته أشد الاجتهاد، ينسى كم غضَّ بصره وهو يشتهي، ينسى كم رفض المال الحرام رغم حاجته، يَنسى كم قام إلى الصلاة في موعدها رغم تعبه وكسله، ينسى كم قال الحق ورفض الكذب رغم ما عاناه في حياته

بسبب صدقه، ينسى ضيق رزقه وقلة دخله، يَنسى سنين المرض التي صاحبته كظله ورغم ذلك لم يُظهر إلا الرضا بقدر الله، لحظة أنسته كل ذلك وأكثر، فما بالك بما ينتظره من النعيم.

الصورة الثانية: العبد الفاجر

«وإنَّ العبدَ الكافرَ -وفي روايةٍ: الفاجرَ- إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرةِ، نَزَل إليه من السماءِ ملائكةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، سُودُ الوجوهِ، معَهُمُ المُسُوحُ من النارِ، فيَجْلِسُونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثم يَجِيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يَجْلِسَ عند رأسِهِ، فيقولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخبيثةُ اخْرُجِي إلى سَخَطٍ من الله وغَضَبٍ، قال: فتفَرَّقُ في جَسَدِهِ فيَنْتَزِعُها كما يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الكثيرُ الشُّعبِ من الصُّوفِ المَبْلُولِ، فتَقْطَعُ معها العُرُوقَ والعَصَبَ».

والآن، تخيَّل معي هذه الصورة وكأنك فيها، ملائكة مخيفة شديدة مد البصر، أينما ينظر يراهم يتوعدونه بأشكالهم وما معهم من قماش من النار سيكون له غطاء ولِباس ثم تأتي اللحظة التي تخلع القلب، هذا لو كان مازال ينبض أصلًا.

ملك الموت يأمر الروح بالخروج وهو ينعتها بالنفس الخبيثة ويُعلمها بالمصير، سخط من الله وغضب؛ فينتزعها وكأنه ينزع عودًا من حديد متشعبًا في قلب قطعة من الصوف فيمزقها إربًا، وكذلك تتمزق عروقُ الفاجر وأعصابه مع قبض روحه.

تلك اللحظة التي يتذكر عندها العبد الفاجر كلَّ شيء، شريط حياته بكل قراراته التي اتخذها دون أن يُلقي بالًا لهذه اللحظة، يمر أمامه الذنب

الذي أصر عليه ولم يحاول أن يتوب منه ولو مرة، أصحابُه الذين حاولوا نصيحته فلم يستمع إليهم بل وسخر منهم، هؤلاء الذين أَضَلَّهم عن طريق الحق حتى يكونوا مثله، كل صلاة تركها عمدًا كل فرض تركه استهانة به، لحظة جعلته يندم على كل ذلك وأكثر، فما بالك بما ينتظره من العذاب.

صورة سعيدة يتمنَّاها كل عاقل، وصورة مخيفة يخشاها كل ذي قلب، والطريق إلى كل واحدة منهما معروف، فأيُّها تختار؟

الاختيار اليوم في يديك، أمَّا وقتها فلا اختيار ولا قرار، مجرد استلام للنتيجة؛ فتدبر واعمل في دنياك.

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ»[1]

يطلبون العودة بعدما رأوا الحقيقة، ولكن وللأسف، لا مزيد من الفرص، فإما العمل في الحياة الدنيا وإما الخسران المبين.

وبعد الموت يبدأ الفصل الثاني من القصة، ولكنه فصلٌ غريب جدًا.

فصلٌ أبدي لا نهاية له، والبطل هو من يحددُ تفاصيله بما فعل في الفصل الأول.

وبداية الفصل الجديد تبدأ في القبر.

(١) سورة السجدة:١٢

المشهد الثاني: القبر

هل تذكر اللحظة التي وقفنا عندها في الحديث السابق، لحظة الموت وقبض الروح؟

تعال لنكمل، كي نعرف ماذا حدث..

الصورة الأولى: العبد المؤمن

«فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إلا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ، فَيَقُولُونَ فُلانُ بْنُ فُلانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ، فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولانِ لَهُ مَا دِينُكَ، فَيَقُولُ دِينِيَ الإِسْلامُ، فَيَقُولانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ، فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولانِ لَهُ وَمَا عِلْمُكَ، فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا الآيَةُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا

لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، قَالَ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي»(١)

حينما تُقبض روح العبد المؤمن؛ تجري إليها ملائكة الرحمة بشوق، فهذا العبد الصالح الذي كان يُحبه الله، فأحبَّه جبريل وملائكة السماء، فيكفنون روحه في كفن الجنة ويطيبونها بالطيب المخصوص الذي أُعدَّ لها في الجنة، ويأخذونها لاحتفال سماوي أُعد لها.

وفي الطريق إلى السماء، كلَّما مروا بالروح على ملأ من الملائكة، تعجبوا من جمالها وطيب ريحها، فيسألون، لمن هذه الروح الطيبة؟

فلا يذكرونه إلا بأحب الأسماء إليه، نعيم بدأ وسعادة أبدية كُتِبَ سطرها الأول، ولكن الأمر في أوله، فما هذا بنعيم إذا قُورن بما ينتظر العبد المؤمن.

حتى يصل موكب السعادة إلى السماء الأولى، فتفتح للروح ملائكة السماء الأولى وينضمون إلى الموكب في ترحيب وسعادة حتى يصلوا إلى السماء الثانية، وهكذا تُفتح كل سماء وتحتفي ملائكتها بروح العبد الصالح حتى تصل إلى السماء السابعة.

وهنا يصل الاحتفال إلى ذروته بإعلان النتيجة التي لطالما اشتاقت إليها روح العبد الصالح وحلمت بها، نتيجة يُعلنها الملك العلي ويقول الله جلَّ جلاله: اكتبوا اسم هذا العبد من أهل الجنة!

---

(١) صحيح الجامع

أخيييييييرًا!

الجنة وطن الروح الذي تاهت منه وجاءت إلى الدنيا، فعاشت فيها غريبة تنتظر العودة إليه، وها هي تقترب من العودة إليه بكتابة اسم صاحبها من أهل النعيم.

ثم يأمرُ الله -تبارك وتعالى- بإعادة الروح إلى الأرض فمنها خُلقنا وإليها نعود، ومنها نخرج يوم البعث.

تعود الروح إلى الجسد في قبره فتضمه الأرض ضمة الأم التي اشتاقت إلى ابنها الطائع الصالح المحبوب من رب العالمين، ضمةُ شوقٍ وحنان وحب احتفالًا بعودته إلى حضنها.

ثم تأتي فتنة القبر، ملكان أسودان أزرقان -لون مخيف له هيبة- يُقال لأحدهما المنكر والآخر النكير ثم يسألان العبد ثلاثة أسئلة.

من ربك؟

ما دينك؟

ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيجيب المؤمن بلا تردد، ربي الله وديني الإسلام وبُعث فينا رسول الله محمد!

«يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ»(١)

---

(١) سورة إبراهيم:٢٧

فيُصدقه الله من فوق سبع سماوات ويشهد له، أن صدق عبدي!

تخيَّل معي أن يشهد الملك -جل جلاله- لك بالصدق، والله إن المرء ليفرح بشهادة الصالحين له، فما بالك بشهادة الرب العلي تبارك وتعالى.

ثم يُغدق عليه بالعطايا فيفسح له في قبره مدّ بصره، تخيَّل هذا القبر الضيق يصبح للعبد الصالح بهذه الفسحة، فلا يليق الضيق بالعبد الصالح، ويُفرش له قبره بفراش من الجنة، ويلبس ملابس أهل الجنة، ويُفتح له بابًا إلى الجنة، فيتحول قبرُه في لحظة إلى روضة من رياض الجنة، فيأتيه من نسيمها ويشم من طيبها ويعاين ما فيها من النعيم، ثم يأتيه رجل مليح الوجه، جميل الملبس، تفوح منه الرائحة الطيبة التي لا مثيل لها، فيُبشره بمزيد من النعيم، ولمَّا يسأله من أنت؟

فإذا به يُجيبه: أنا عملك الصالح.

قيامه لليل وصيامه النهار، اجتهاده في الطاعة ومداومته على التوبة، صدقة السر ودعوة العلن، صبره على الطاعة وجهاده للمعصية، غضُّه للبصر وحسن معاملته، كل ذلك يتجسد له، يُذكره بطاعته ويبشره بالثواب، وكأنَّه يحتفل معه ويهنئه بالفوز العظيم!

يجد نفسه يشتاق إلى الجنة ونعيمها وإلى أهله وأحبابه؛ فيدعو ويقول: يا رب، أقم الساعة.

كان في الدنيا منذ ساعات قليلة، يُعاني فيها ما نعاني، وإذا به بعد لحظات في روضة من رياض الجنة يتمتع بعطاء الله له، فنعم أجر العاملين.

مسكنٌ مساحته مدّ البصر، يُطلُّ على الجنة ونعيمها، التهوية نسيمها، وعطر المسكن عطرها، ويصحبك فيه عملك الصالح، سعادة دائمة

ومرح مستمر، لا ملل فيه ولا حزن!

فمن يبيع هذا البيت ولو بمتع الدنيا كلها؟

اللهم اجعلنا من أهله.

الصورة الثانية: العبد الفاجر

وبعد قبض روح الفاجر، يحدث ما يلي:

«فيَلْعَنُهُ كلُّ مَلَكٍ بينَ السماءِ والأرضِ، وكلُّ مَلَكٍ في السماءِ، وتُغْلَقُ أبوابُ السماءِ، ليس من أهلِ بابٍ إلا وهم يَدْعُونَ اللهَ ألَّا تَعْرُجَ رُوحُهُ من قِبَلِهِمْ، فيَأْخُذُها، فإذا أخذها، لم يَدَعُوها في يَدِهِ طَرْفَةَ عينٍ حتى يَجْعَلُوها في تِلْكِ المُسُوحِ، ويخرجُ منها كأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ على وجهِ الأرضِ، فيَصْعَدُونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبيثُ؟ فيقولونَ: فلانُ ابنُ فلانٍ - بأَقْبَحِ أسمائِهِ التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا، حتى يُنْتَهَي به إلى السماءِ الدنيا، فيُسْتَفْتَحُ له، فلا يُفْتَحُ له، ثم قرأ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم «لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» فيقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: اكْتُبُوا كتابَه في سِجِّينَ في الأرضِ السُّفْلَى، ثم يُقالُ: أَعِيدُوا عَبْدِي إلى الأرضِ فإني وَعَدْتُهُمْ أني منها خَلَقْتُهُمْ، وفيها أُعِيدُهُمْ، ومنها أُخْرِجُهُمْ تارةً أُخْرَى، فتُطْرَحُ رُوحُهُ من السماءِ طَرْحًا حتى تَقَعَ في جَسَدِهِ ثم قرأ: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» فتُعادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ، قال: فإنه لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِ أصحابِهِ إذا وَلَّوْا عنه. ويَأْتِيهِ مَلَكانِ شَدِيدَا الانتهارِ، فَيَنْتَهِرَانِهِ،

ويُجْلِسَانِهِ، فيَقُولانِ له: مَن ربُّكَ؟ فيقولُ: هاه هاه لا أَدْرِي، فيقولانِ له: مادِينُكَ؟ فيقولُ: ها هاه لا أَدْرِي، فيقولانِ: فما تَقُولُ في هذا الرجلِ الذي بُعِثَ فيكم؟ فلا يَهْتَدِي لاسْمِهِ، فيُقالُ: مُحَمَّدٌ! فيقولُ: هاه هاه لا أَدْرِي سَمِعْتُ الناسَ يقولونَ ذاك! قال: فيُقالُ: لا دَرَيْتَ، ولا تَلَوْتَ، فيُنادِي مُنَادٍ من السماءِ أن: كَذَبَ، فأَفْرِشُوا له من النارِ، وافْتَحُوا له بابًا إلى النارِ، فيَأْتِيهِ من حَرِّها وسَمُومِها، ويُضَيَّقُ عليه قَبْرُهُ حتى تَخْتَلِفَ فيه أضلاعُه، ويَأْتِيهِ وفي روايةٍ: ويُمَثَّلُ له رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قبيحُ الثيابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أَبْشِرْ بالذي يَسُوؤُكَ، هذا يومُكَ الذي كنتَ تُوعَدُ، فيقولُ: وأنت فَبَشَّرَكَ اللهُ بالشرِّ مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يَجِيءُ بالشرِّ! فيقولُ: أنا عملُكَ الخبيثُ، فوالله ما عَلِمْتُ إلا كنتُ بطيئًا عن طاعةِ الله، سريعًا إلى معصيةِ الله، فجزاكَ الله شرًّا، ثم يُقَيَّضُ له أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ في يَدِهِ مِرْزَبَّةٌ! لو ضُرِبَ بها جبلٌ كان ترابًا، فيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حتى يَصِيرَ بها ترابًا، ثم يُعِيدُهُ اللهُ كما كان، فيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كلُّ شيءٍ إلا الثَّقَلَيْنِ، ثم يُفْتَحُ له بابٌ من النارِ، ويُمَهَّدُ من فُرُشِ النارِ، فيقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ الساعةَ»[1]

ماذا فعل هذا المسكين الظالم لنفسه حتى تكرهه كل الملائكة وتدعو عليه، بل وتنتظر ملائكة العذاب روحَه فلا تتركها لحظة حتى تلبسها ملابس من النار؛ فتَخْرُجُ منها ريح نتنة جمعها بسوء عمله طوال حياته.

فيمرون بها على الملائكة وهم يصعدون إلى السماء، فما من ملك منهم إلا ووجد نتن ريحها فيسأل: لمن هذه الروح الخبيثة؟ فلا ينادونه إلا بأسوأ أسمائه وأبغضها إليه.

---

(١) صحيح الترغيب

أما السماء فتلفظ روحَه بأمر خالقها، فلا تَفْتَحُ لها، ويأمر الله -جل جلاله- بأن يُكتب صاحبها من أهل النار، فتعرف الروح مصيرها وتوقن بهلاكها وتعرف أنها فقدت طريق العودة إلى الوطن (الجنة)، وليس هذا فحسب، بل سكنت جهنم وبئس المصير.

فتعود الروح إلى بدن الفاجر في القبر بأمر خالقها، فيسمع صوتَ انصراف أهله وأصدقائه وأحبابه، ويعرف حقيقة الدنيا التي باع آخرته؛ ليشتريها.

يقول صلى الله عليه وسلم:

«يتْبَعُ الميْتَ ثلاثَةٌ: أهلُهُ ومالُه وعمَلُه، فيرْجِع اثنانِ ويبْقَى واحِدٌ: يرجعُ أهلُهُ ومالُهُ، ويبقَى عملُهُ»[1]

ولم يكن معه عمل صالح ينقذه بل بقي معه ما يسوؤه.

ويأتيه الملكان على هيئتهما المخيفة؛ ليسألاه أسئلة القبر، الامتحان الذي يُفرق بين المؤمن والفاجر ونتيجته نعيم أو عذاب، والإجابة تُعرف في الدنيا بطاعة الله واتباع سنة رسوله، أمَّا القول بغير عمل والادعاء بغير اتباع، فلا ينفع وقت الجد.

الأسئلة الثلاثة

من ربك؟

يجيب الفاجر: لا أدري، لا أدري.

(١) صحيح البخاري

فيسألاه: ما دينك؟

فيقول: لا أدري، لا أدري.

فيقولا له: من هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فلا يعرف اسمه، ويقول سمعتهم يقولون في الدنيا فقلت كما قالوا، فقط لسان يدَّعي بلا حب ولا اتباع، فأنّى له النجاة!

فيشهد الله عليه بالكذب ويأمر لَهُ بالعذاب، فرشٌ من النار وبابٌ مفتوحٌ إلى النار، فيقتحم قبره من حر النار وريحها النتن ثم تضمه الأرض ضمةً، فتكسر عظامه وتخلط أضلاعه.

ضِيقٌ وحرٌ ليس فيه من حر الدنيا إلا اسمه، يذوبُ الجلدُ والعظمُ من شدته، ورائحةٌ من قيح وصديد لا مثيل لها في القبح والسوء، وكلُّ ذلك مجرد بداية فما ينتظره أسوأ وأشد.

يأتيه في قبره وهو في هذه الحال الشديدة، رجل قبيح الشكل والملبس نتن الرائحة ويبشره بما هو أسوأ ويذكره بنفسه: «أنا عملك الخبيث».

ظلمه للناس، أكله الأموال، كل فرض استهان به، كل ذنب استصغره وأصرَّ عليه، كلُّ فرصة للتوبة فكَّر فيها باستخفاف وتركها، كل ذلك وأكثر يتمثلون له، يشمتون فيه، ويزيدونه عذابا.

يُقيض الله له من مخلوقاته من يعذبه، فيضربه بمطرقة في يده ضربةً من شدتها تحوله ترابًا، ثم يُعيدُه الله تارةً أخرى فيضربه الثانية، فيصرخ صرخةً يسمعها كل مخلوق إلا الإنس والجن، صرخةٌ لا من ألم الضربة وحدها، ولكن لِمَا عرف ما ينتظره من العذاب؛ فيدعو الله ألا يقيم الساعة أبدًا.

سجنٌ من نار يضيق على صاحبه حتى يسحق عظامه، يطل على عذاب لا يتخيله بشر، ورائحته من قيح وصديد، ولصاحبه من يقوم على تعذيبه، فمن يشتري هذا السجن ولو بمتع الدنيا كلها؟

اللهم أعذنا من عذاب القبر، ونجنا منها يا أرحم الراحمين.

صورتان بين يديك، ولك أن تختار منهما ما تشاء!

نعم، ما تشاء، فأنت اليوم حر في اختيارك، ولكنَّك مجبرٌ غدًا على النتيجة!

ثم يقضي العبد ما شاء له الله في روضته الفردوسية أو في عذابه الأليم إلى أن يأتي الموعد والمشهد العظيم (يوم القيامة) يوم يبعث الله كل من في القبور.

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨)»[١]

يأمر الله الملك إسرافيل -عليه السلام- الموكل بالصُور، والصُور شيءٌ يُنفخ فيه فيصدر صوتًا عظيمًا، وهذا لمجرد التقريب للأذهان وإلا فنفخة إسرافيل تقضي على كل من بقي حيًا من سكان السماوات والأرض والبحار.

«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)»[٢]

(١) سورة الزمر

(٢) سورة الرحمن

لا شيء، الكون كلُّه مجرد لا شيء، ولا يبقى إلا الله الواحد القهار.

ثم يبعث الله إسرافيل -عليه السلام- لينفخ في الصور نفخةً أخرى تُعيد كل شيء إلى الحياة، ولكنها حياة ليست كتلك التي عشناها أولًا، حياة أبدية لا موت فيها ولا عمل، ولكنَّها حساب على حياتك الأولى ثم نتيجتك النهائية.

المشهد الثالث: يوم القيامة

«يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)»[(١)]

اليوم الذي ينتظره المؤمنون ويخشاه الكافرون، اليوم الذي يحصُل فيه العاملون على جائزتهم ويدفع فيه الظالمون ثمن ظلمهم.

الدنيا في الأصل يا صديقي دار اختبار ولا تكتمل فيها العدالة، لكل واحد منَّا اختباره الخاص، ولكل منا حسابه المناسب.

لا وجود للأربعة وعشرين قيراطًا الموزعة على البشر بالتساوي، تلك التي طالما تكلَّموا عنها، فقد يُحرم أحدُهم حتى من قيراطٍ واحد ويكون هذا اختباره، وقد يُعطى الأخر مائة قيراط ويكون هذا اختباره، والله يفعل ما يشاء ويختار.

والاختبار لا يكون شرًا أبدًا، الشر هو أن تفشلَ فيه، أما النجاح مهما كانت صعوبة الاختبار، فأين الشر في الأمر؟

---

(١) سورة المطففين

وفي يوم القيامة تتجلى العدالةُ الكاملة، فمن كان اختبارهُ صعبًا، ترَّفَقَ به الربُّ العليُّ في الحساب، ومن كان اختباره سهلًا، يُحاسب على قدر سهولة اختباره.

فترى الفقراء الذين كان اختبارهم صعبًا في الدنيا، يدخلون الجنَّة قبل المرفهين من أهلها.

يقول صلى الله عليه وسلم:

«فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة»[1]

لم يكن عندهم من المال ما يُحاسبون عليه من أين اكتسبوه وفيما أنفقوه؟ فكان حسابهم يسيرًا سريعًا؛ فدخلوا الجنة أولًا، أما الأغنياء من أهل الجنة فسيلحقون بهم، ولكن بعد الحساب على نعمة المال التي حازوها!

وترى كل مبتلى صبر على ابتلائه ورضي بقضاء الله ولم يسخط، وعلم أن كل ما في الدنيا هو محض اختبار، وأنَّ ما في الأخرة هو خير وأبقى؛ فعاش الرضا ظاهرًا وباطنًا، فكان حقًا على الله أن يسعده ويجازيه، وقد حان وقت فرحه.

«إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)»[2]

صبر فكان أجره بغير حساب، حتى أن أصحاب العافية حين يرون عطاء الله لأصحاب البلاء، يتمنون لو أنهم كانوا مكانهم في الابتلاء.

---

(١) صحيح الجامع

(٢) سورة الزمر

يقول صلى الله عليه وسلم:

«يَوَدُّ أَهلُ العَافِيَةِ يومَ القِيَامَةِ حِينَ يُعطَى أَهلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَو أَنَّ جُلُودَهُم كَانَت قُرِّضَت فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيض»[1]

وترى المظلوم وهو يقتص من الظالم المتجبر، ويرى عقابه بعينيه، ويشفي الله صدره ويجزيه ويعوضه.

تلك عدالة الله الذي يعلم السر وأخفى، ولا يَخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

هل تعلم أن الله سمَّى يوم القيامة بأسماء كثيرة ذكرها -عز وجل- في كتابه؟

كل اسم منهم يحكي صفة من صفاته أو قصة سنحياها فيه، فأسماه:

اليوم الآخر

«لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»[2]

آخر أيام الدنيا، واليوم الذي تظهر فيه على حقيقتها، دار مستأجرة غادرناها إلى الدار المملوكة.

«بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)»[3]

(١) صحيح الجامع

(٢) سورة البقرة:١٧٧

(٣) سورة الأعلى

والعاقل من يشتري آخرته بدنياه، لا الذي يبيع آخرته بثمن بخس شهوات معدودة.

يوم الآزفة

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ»[1]

ومعنى الآزفة: القريبة، قريبة فلا يعلم موعدها إلا الله، يظنها الكثير بعيدة، ولو لا ظنهم هذا لأعدوا لها من صالح الأعمال ما استطاعوا.

وقيامة كل واحد فينا تقوم بموته، هكذا يقولون في الحكمة..

«من مات فقد قامت قيامته»

فهو كما سلف، يرى في قبره مقعده في الجنة أو -لا قدر الله- مكانه في النار.

يوم التغابن

«يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ»[2]

ومعنى الغَبَنُ: أن تُخدع في البيع والشراء.

فهو يوم التغابن؛ لأنه اليوم الذي يكتشف فيه الفجار خديعة الشيطان لهم في صفقة الدنيا، فقد جعلهم يخسرون آخرتهم بحثًا عن متعة دنياهم، فلا هم حصَّلوا متعة الدنيا، ولا هم فازوا بجنة الآخرة، بل ضنك في الدنيا ونار في الآخرة، فأي خسران وأي غبن.

---

(١) سورة غافر:١٨

(٢) سورة التغابن:٩

يوم التلاق

«رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»[1]

يوم يلتقي العبد بربه فيجزيه ثواب عمله وجزاء تعبه جنةً ونعيمًا، ويوم يلتقي الفاجر بربه فيحاسبه على ما فعل، لا يضل ربي ولا ينسى.

يوم يلتقي المظلوم بالظالم في لحظة تكون القوة والعزة فيها للمظلوم، فقد حان وقت القصاص، ويوم يلتقي الأولون والآخرون فنرى رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- والصحابة الكرام.

يوم التناد

يومٌ يكثر فيه النداء، فينادي أصحاب الأعراف (من تساوت حسناتهم وسيئاتهم ويكونون على جسر بين الجنة والنار) أصحاب الجنة ويهنئونهم بالفوز العظيم وينظرون إلى نعيمهم فيطمعون أن يدخلوا الجنة برحمة الله، وينادون أصحاب النار يلومونهم ويستعيذون بالله من مصيرهم؛ فيقبل الله دعاءهم برحمته ويجعلهم من أهل النعيم.

وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، كل ما وعدنا الله به تحقق، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟

---

(١) سورة غافر: ١٥-١٦

ويُنادي أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء، أقصى حلم لهم في هذه الحرارة والعذاب هو الماء، باعوا الجنة من أجل دنيا لم تغنِ عنهم حر العذاب ولو بشربة ماء!

وتُنادي الملائكة أصحاب الجنة، مبارك عليكم جنتكم التي عشتم لها وبها، فأورثكم الله إياها؛ جزاء بما كنتم تعملون.

يوم الخلود

«ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ»[1]

بداية مرحلة الخلود فلا موت بعدها، إما نعيم لا ينتهي أو عذاب مستمر.

ولو قارنت الدنيا بكلمة الخلود -ولو عاش الإنسان في الدنيا ألف عام- لوجدتها لا شيء، مجرد صفر وحيد لا قيمة له.

مهما كانت متاعب الدنيا وشهواتها فستنتهي ويخلد الصابر على تعبها في جنات النعيم، أما من استسلم لها فستسلمه إلى عذاب أليم.

وغيرها الكثير يا صديقي، وإن شئت ابحث وتعلم معنى كل اسم منها، فالقيامة هي: يوم البعث - يوم الجمع - يوم الحساب - الحاقة - يوم الحسرة - يوم الخروج - يوم الدين - الساعة - الصاخة - الطامة - الغاشية - يوم الفصل - يوم الفتح - القارعة - الواقعة - يوم الوعيد.

---

(١) سورة ق:٣٤

أحداث يوم القيامة

١. البعث

نفخ إسرافيل في الصور فقام الجميعُ من قبورهم لم يتخلف منهم أحد، جمعهم الله بقدرته في أرض المحشر، هل تريد رؤيتها؟

إذًا تعال معي إلى أرض المحشر لنرى المشهد!

مليارات من البشر يخرجُون من قبورهم للحساب، كل نسمة خلقها الله من لدن آدم إلى أن ورث الأرض ومن عليها.

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)»[١]

عُراة حُفاة مسرعين إلى حسابهم، نعم حفاة عراة!

نفس ما جال برأسك جال برأس أمنا الصديقة عائشة –رضي الله عنها– وسألت النبي

صلى الله عليه وسلم:

«يَا رَسُول اللهَّ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ،؟ قَالَ: يَا عَائِشَةُ الأَمرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُم ذلكَ»[٢]

لا يستطيع أحدهم أن ينظر إلى الآخر، ولا أن يهتَّم بأمره، فالمشهد عظيم ومخيف.

«يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)»[٣]

---

(١) سورة يس

(٢) صحيح البخاري.

(٣) سورة عبس.

أرض المحشر نفسها ليست كأرضنا التي عشنا عليها.

«يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)»[١]

لا الأرض كما كانت ولا السماء كما عهدناها.

يقول صلى الله عليه وسلم:

«يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»[٢]

لا مُلك لغيره، ولا وجود لمن أظهروا التحدي في الدنيا، لا الجبارون الذين ظلموا الخلق وتسلطوا عليهم، ولا المتكبرون الذين رفضوا الحق وأكلوا حقوق الخلق.

وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- أرض المحشر:

«يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد»[٣]

أرض بيضاء بها حمرة وكأنها رغيف خبز نقي، مستوية منبسطة، لا أثر فيها لجبل أو بناء أو صخور أو أودية، لا مكان للاختباء ولا سبيل للهرب.

---

(١) سورة إبراهيم.

(٢) صحيح مسلم

(٣) صحيح مسلم

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)»(١)

لا مرتفعات ولا منخفضات، أرض مستوية على مرمى البصر، يبدل الله الأرض، فلا المعالم ولا الصفات تشبه أرضنا التي نعيش عليها.

هل ترى الزحام؟ لا شيء يشبهه أبدًا، لكل واحد منَّا موضع قدمه فقط.

يقول -صلى الله عليه وسلم- عن أرض المحشر: **«فلا يكون لرجلٍ من بني آدم فيه إلا موضع قدميه»**(٢)

السماء ليست كالسماء!

«وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)»(٣)

يطوي الله السماء بما فيها من كواكب ومجرات، يجمع الله الكون كله بيمينه عز وجل.

يتحول لون السماء إلى الأحمر **«فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ»**(٤)

تذوب السماء وتقطر كالشمعة التي قضت نحبها تحت النار؛ فتذوب وتفنى..

---

(١) سورة طه

(٢) حلية الأولياء

(٣) سورة الزمر

(٤) سورة الرحمن

«يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)»[١]

لا شمس ولا قمر ولا نجوم، فالشمس قد انطفأ نورها والنجوم تساقطت فلا وجود لها.

«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢)»[٢]

شمسٌ في أرض المحشر، ولكنَّها ليست كشمس الدنيا، فليس في الآخرة مما كان في الدنيا إلا الأسماء.

شمس فوق الرؤوس مباشرة، الحرارة لا تُطاق، والعرق يغرق الأجساد، وكلٌ على قدر عمله، فهذا عرقه إلى كعبيه، وذلك عرقه إلى ركبتيه، وآخر وصل عرقه إلى خصره، ورابع قد وصل العرق إلى فمه.

يقول صلى الله عليه وسلم:

«تُدْنَى الشَّمْسُ يَومَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيل، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ في العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إلى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إلى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَكون إلى حِقْوَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجامًا وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى فِيه»[٣]

أول من تنشق عنه الأرض، ويخرج من قبره الشريف، هو النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة المعارج

(٢) سورة التكوير

(٣) صحيح مسلم

يقول: «**أنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي**»[1]، أي يُحشر الناس بعده.

ولكن هل ترى هذا التباين في صور الحشر؟!

على وجهه!:

هذا الذي هناك، نعم هذا الذي يمشي على وجهه! رفض السجود في الدنيا، رفض أن يضع وجهه على الأرض طواعية لله -عز وجل- حينما كان قادرًا على ذلك، فأمشاه الله على وجهه في أرض المحشر.

لا تتعجبْ، فكل ما نراه هنا لا علاقة له بما كان في حياتنا الأولى، كل القوانين التي كانت تحكم زالت ولم يبق إلا قانون واحد، **الجزاء من جنس العمل**، وما شاء الله كان؛ فهو الملك الذي لا إله إلا هو، ولا ملك اليوم إلا ملكه.

كيف يمشي على وجهه؟

أليس من جعله يمشي على قدمين بقادرٍ على أن يجعله يمشي على وجهه؟!

بلى، قادر.

أعمى:

وهذا الذي يمشي يتخبط لا يرى طريقه، حشره الله أعمى!

أظن أنك فهمت أنه كان في الدنيا بصيرًا يرى! ولكنه كان يرى بعينيه وأعمى بعيني قلبه، تأتيه آيات الله تدعوه من كل مكان، ولكنَّه

(١) صحيح الجامع

كان لا يراها متعمدًا! لبس الغمامة على قلبه وثبتها وسار وراء شهوات نفسه؛ فأصابه العمى عن السعادة في الدنيا، وحُشر يوم القيامة أعمى.

«وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)»[١]

نمل!:

انتبه، كدت أن تدهس أحدهم، هل تراهم؟

لا ليسوا نملًا، ولكنهم رجال حُشروا على صورتهم، ولكنهم في حجم النمل.

من هم؟ إنهم المتكبرون، هؤلاء الذين رفضوا الحق في الدنيا، جاءتهم رسلُ الله ودعاة الخير بالحق؛ فما كان منهم إلا أن استهانوا بهم وبدعوتهم، واتبعوا ما طاب لهم من أهوائهم، وامتلأت قلوبهم باحتقار خلق الله فلا يَرَوْنَ قيمةً إلا لأنفسهم ولمن شابههم، أمَّا غيرهم، فلا قيمة لهم.

وكما قلت لك: **الجزاء من جنس العمل**، فكما تكبَّروا بالأمس، واحتقروا الناس، حُشروا نملًا يدهسهم الناس بأقدامهم.

يقول صلى الله عليه وسلم:

«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان»[٢]

(١) سورة طه

(٢) صحيح الترغيب

بغير وجه!:

لا تفزع منه، فهذا الذي يُحشر وليس على وجهه لحم، فهو الذي يشتكي ربه إلى خلقه ويسأل الناس العطية، وعنده ما يكفيه.

يقول صلى الله عليه وسلم:

«ما يزال الرجل يسأل الناس؛ حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»(١)

سكب ماء وجهه في الدنيا، فقابل الله بغير وجه!

يحملون أوزارهم:

هل ترى هذا الصف العجيب؟ كل واحد يحمل على ظهره شيئًا.

هذا يحمل جملًا ،وهذا يحمل غنمًا، وذلك على ظهره فرس، وهؤلاء يحملون أموالًا وغيرهم الكثير.

«وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ»(٢)

والغلول: أخذ الشيء بغير حق، فكل من أخذ شيئًا بغير حقه يأتي يوم القيامة، وهو يحمله على ظهره، تخيَّل!

بلَّغَهم الله في الدنيا؛ فمن استجاب فقد نجا، ومن استهان؛ فهو يحمل الآن على ظهره ما استهان به، وسيقف به أمام الله!

---

(١) صحيح البخاري

(٢) سورة آل عمران

نورٌ ساطع:

هل ترى هذا النور الساطع؟

نورٌ يسطع من وجوه وأذرع وأرجل قوم كانوا يُحسنون الوضوء في الدنيا، ويسجدون لله الواحد القهار؛ فكان جزاؤهم نورًا في الآخرة، نور يمشون به بين الخلائق.

يقول رسول الله: «إن أمتي يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحجَّلين مِن أثر الوضوء، فمَن استطاع منكم أن يُطيل غرَّتَه فليفعل»[1]

غرًا: بياض يكون في مقدمة رأس الفرس.

محجلين: بياض يكون في أرجل الفرس .

ومعنى غرًا محجلين، يعني يسطع البياض من وجوههم وأطرافهم من أثر الوضوء.

مسك:

رائحة ليس كمثلها رائحة ولا من أفضل عطور الدنيا، أليس كذلك؟

إنها رائحة دماء! تخيّل!

نعم، دماء هؤلاء الذين صدقوا الله فجاهدوا في سبيله وضحُّوا بأرواحهم؛ فما ماتوا ولكنهم عاشوا أحياء عند ربهم يرزقون، ولما بُعثوا، جعل الله الدماء التي أريقت منهم في سبيله اللون لون الدم والريح ريح المسك.

(١) صحيح البخاري

يقول صلى الله عليه وسلم:

«كُلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُهُ المُسْلِمُ في سَبيلِ اللهِ، يَكونُ يومَ القِيَامَةِ كَهَيْئَتِهَا، إذْ طُعِنَتْ، تَفَجَّرُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، والعَرْفُ عَرْفُ المِسْك»[1]

السادة:

يا لجمال هذا الموكب، يحشرون إلى ربهم راكبين!

«يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا»[2]

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا يكون الوفد إلا ركبانًا».

يخرج هؤلاء المتقون من قبورهم ليجدوا في انتظارهم ملائكة الرحمن ليطمئنوهم ويبشروهم ويقدموا لهم ركوبة من ركائب الآخرة التي يعلم الله وحده ما هي عليه من الجمال والزينة.

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)»[3]

وفد المتقين الذين عاشوا في الدنيا، إذا جاءهم الأمر من ربهم **نفَّذوه بغير سؤال ولا فلسفة لا أصل لها**، وإذا جاءهم النهي أسرعوا، لا لتركه فقط، ولكن جعلوا بينهم وبينه طريقًا من المباحات التي تركوها مخافة الوقوع في الحرام.

---

(١) صحيح البخاري

(٢) سورة مريم: ٨٥

(٣) سورة فصلت

وفدٌ شريفٌ، لا يمشي، ولا يهان، ولا يخاف، ولا يحزن، كالسادة الذين جاءوا في الدنيا للقاء ملك من الملوك، فيُكرمهم ويُرضيهم ويُجزل لهم في العطاء، وما الركوب لسادة الآخرة هؤلاء إلا بداية لعطاء لا ينتهي ولا يتخيله بشر.

أصحاب الظل:

الكل غارق في عرقه والشمس فوق الرؤوس، ولكن ثمة مجموعة من السادة يستظلون بظل عرش الله الكريم فلا شمس ولا عرق.

من هم؟

حسنًا، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(١)

سبعة أصناف من الناس جعل الله لهم هذه الهدية الغالية، ظل عرشه العظيم!

إمام عادل: رجل ولَّاه الله أمر المسلمين، فرفق بهم وحكم بينهم بالعدل، فأخذ حق المظلوم من الظالم، الضعيفُ عنده قوي حتى يأخذ

(١) صحيح البخاري

له الحق، والقوي عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه، أقام الشرعَ والدين وسهَّل على خلق الله عبادة خالقهم، لم يُعط إلا بحق ولم يُعاقب إلا لجريمة، اتقى الله رغم شهوة الملك؛ فكان جزاؤه أن جعله الله من سادة الآخرة.

شابٌ نشأ في عبادة ربه: لم يلتفتْ -رغم قوته وشبابه- إلى نداءات نفسه الأمَّارة بالسوء، ولم يُفتن بما حوله من مغريات وشهوات، راقب ربَّه في السر والعلانية؛ فكان ظل العرش له جزاء.

رجلٌ قلبه معلق بالمساجد: وكأنَّه حين يُنهي صلاته ويخرج من مسجده يترك قلبه معلقًا فيه حتى يرجع فيُرد إليه قلبُه، يُحب الصلاة ويجد فيها حياته، لا كغيره ممن يُصلَّون بلا قلب ولا خشوع، عاش على ذلك ومات عليه، فصار في الآخرة إلى ظل عرش الرحمن كما كان يُظله في الدنيا سقف المسجد.

رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه: كل ما يجمعهم هو الحب في الله، لا نفاق ولا منفعة، لا غنى ولا فقر، حبٌ في الله فحسب، يدفع كل منهما الآخر إلى مزيد من الطاعة، فلا معصية ولا فجور، ولا تفرِّقهما إلا الغيرة على دين الله، حبٌ في الله وجائزته حب من الله، فصارا من أهل الظل.

رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال «إني أخاف الله»: منصب يخيف وجمال يغري وهي التي تدعوه! فمن يمنعه؟ لا شيء سوى حب الله، والخوف منه، والرجاء في رحمته وجنته.

قوة إيمان خَضَعت للاختبار ونجحت، وكما استظل هذا الشاب بحبِّ الله من حر شمس شهوته؛ جعله الله في ظل عرشه؛ فلا يناله حر شمس الآخرة.

رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه: يُخفي عمله الصالح حتى عن يده الأخرى، وهذا علاج الرياء، وكلُّنا له من أعمال البر ما يعلمه الناس، وأحيانًا يوسوس لنا الشيطان بتهمة بالرياء، وعلاج ذلك أن تعمل أعمالاً كثيرة بينك وبين ربك، لا يراك فيها أحد كصاحبنا هذا، أخفى عمله الصالح عن الناس وابتغى به وجه الله؛ فأخفى الله عنه حر شمس القيامة.

رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه: ذكر الله وحده بعيدًا عن الناس، فإذا به يستشعر من عظمة الله وقدرته ورحمته ومغفرته وعفوه ما يمس روحه، فما كان من عينيه إلَّا أن فاضتا بدمع الحب والشوق والرغبة والرهبة، بكى وحيدًا شوقًا للقاء ربه، فكان من القلائل.. السادة أصحاب الظل.

٢. الحوض

حرارةٌ وخوفٌ وظمأ، كان الخوف في الدنيا عند الكثيرين مرتبطٌ بالظلام، كان خيالنا يعرف كيف يتلاعب بنا جيدًا في الظلام، حتى نظن أننا نرى أشياء غير موجودة ونسمع أصواتًا لا أصل لها، ولكن الخوف هنا من شمس فوق الرؤوس، وزفير جهنم، وصوت تغيّظها، وحساب يقترب!

كلُّ واحد من أهل المشهد يعرف جيدًا ماذا فعل.

يتذكر كلُ ذنبٍ أصرَّ عليه، وكل غفلةٍ استسلم لها؛ فيشتد خوفه ويزيد عرقه.

عرقٌ وحرارةٌ وخوفٌ وظمأ، يوم طوله خمسون ألف سنة، تخيّل!

قال الله: «**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[1]

خمسون ألف سنة تمرُّ علينا ونحن ننتظر الحساب، هل تتذكر لحظات انتظار النتيجة في الدنيا، كانت أصعب من النتيجة نفسها! قلقٌ يدق باب القلب فيهزّه هزًّا، وكلَّما طال وقت انتظار النتيجة انهار دفاع القلب؛ فيدخل القلق، ويسكن القلب، حتى تصير كل دقة منه ضربةً توجع صدرَ صاحبها!

قلق وعرق وحرارة وخوف وظمأ، الظمأ قاتل، ولو كنَّا في الدنيا لِمِتْنا من العطش، ولكن هنا لا سطوة لقوانين الدنيا، قانون الآخرة هو الحاكم!

وعطشُ الفجار في أرض المحشر أشد وأصعب

يقول الله: «**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)**»[2]

وردًا تعني: عطاشًا، وفي وسط هذا الظمأ، كل واحد منا يحلم بالماء، كوب ماء لو طُلب منه ثمنًا له، لدفع فيه كل ما كان في الدنيا من متع

---

(١) سورة المعارج:٤

(٢) سورة مريم

وشهوات، بل يدفع فيه الدنيا كلها لو كانت ملكًا له، ولكن فات الأوان، فقط من دفع ثمن الماء في الدنيا طاعةً لربه ومقاومةً لشيطانه وجهادًا لنفسه، هو من سيشرب.

بينما نقف جميعًا في أرض المحشر، إذا بحوضٍ عظيم يظهر، حوضٌ لو أردنا أن نصف مساحته كما قدَّرها النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت كالمسافة يقطعها الراكب على فرسه مسيرة شهر بلا نوم ولا راحة، وعدد الأباريق فيه عدد النجوم في السماء، حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«حَوْضِي مَسِيْرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيْحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلا يَظْمَأُ أَبَداً»[1]

هل تتذكر هذا الدعاء الذي كنا كثيرًا ما نسمعه أو نقوله في الدنيا، **«اللهم اسقنا من حوض النبي شربةً لا نظمأ بعدها أبدًا»**، ولا أخفيك سرًا، كثيرًا ما كنت لا أفهم أهمية هذا الدعاء، ولا لماذا يدعو به البعض بهذه الحرارة، والآن فهمت.

تعال لنقترب منه ونرى ما يحدث!

النبي -صلى الله عليه وسلم- يقف أمام الحوض، ينتظر أهل المحشر، هل ترى ذلك الذي اقترب منه، فابتسم له وسمحت له الملائكة، فمرَّ ودخل إلى الحوض؟ ها هو يملأ الإبريق من ماء الحوض، هذا الماء

(١) صحيح البخاري

العجيب الذي ليس فيه من ماء الدنيا إلا الاسم، فهو أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ورائحته أحلى من المسك، من شرب منه لا يظمأ بعدها أبدًا!

هل ترى السعادة على وجهه؟ بداية الأمان في أرض المحشر بالشرب من حوض النبي، شرب واستجاب الله لدعائه الدنيوي الذي لطالما دعا به أو أمَّن على دعاء من طلبه.

لا أدري أيهما يدعو إلى السعادة أكثر، رؤية النبي وهو راض عنه أم الشرب من ماء الحوض على ظمأ؟

ما هذا الصوت؟

إنَّه أحدهم يحاول الوصول إلى الحوض، ولكن الملائكة تمنعه، النبي يدعوهم ليتركوه قائلًا لهم: «إنه مني»، ولكنهم يجيبونه: «إنك لا تدري ما أحدث بعدك» فيشيح النبي عنه بوجهه قائلًا: «سحقًا سحقًا، بعدًا بعدًا».

يُحال بينه وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأنه سعى إلى ذلك في الدنيا، وهو لا يدري!

أصرَّ على ذنوبه ولم يتب منها، كانت تأتيه السُنَّة؛ فإما أن يُنكرها أو يستهين بها، كان يتكلم في الدين بغير علم، يرفض منه ما صَعُب عليه ويأتي ما كان على هواه، بدَّل وغيَّر؛ فكان جزاؤه الطرد من الحوض.

ولا أدري أيُّهما أشد على النفس، ظمأ الحشر أم الطرد من حوض النبي!

يقول رسول الله:

«إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي»[1]

شرب من اتقى واتبع هدى النبي، وزاد ظمأ من تكبَّر عن سنته وغيَّر وبدَّل، ولكنَّ الخلق جميعهم ما يزالون في انتظار الحساب، وقد طال الانتظار.

٣. الشفاعة العظمى

وفي وسط هذا القلق والخوف واليوم ذي الخمسين ألف سنة، يمر الأمر على المتقين سادة المحشر كما كانت تأخذ منهم الصلاة المكتوبة يؤدونها في الدنيا.

«قِيلَ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: يَوْمًا كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، مَا أَطْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ؟! فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا»[2]

أما على غيرهم فيطول المشهد، سنون تمر، والجميع واقفون في خشية ومهابة ينتظرون الحساب، بلغ الخوف والقلق المنتهى حتى إن بعض أهل المشهد ودُّوا أن ينتهي اليوم ولو إلى النار.

(١) صحيح البخاري

(٢) صحيح ابن حبان

ثم يبدأ الجميع في البحث عن مخرج، ومن سوى أنبياء الله يستطيعون الشفاعة في هذا الموقف.

فيهرع الناس إلى آدم يسألونه «أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟»

«فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ».

غضبٌ لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، غضب يليق بالطغاة والمتكبرين والمتجبرين والظالمين.

فيذهبون إلى نوح -عليه السلام- ويقولون: «يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ».

فلا ينتظرون لحظة، وينطلق الجمع إلى إبراهيم قائلين: «يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى».

فيقولون لموسى عليه السلام: «مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ».

ما زالوا يبحثون عن الشفيع بلا كلل ولا ملل، ووصلوا إلى عيسى -عليه السلام- وقالوا: «يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ»

أولو العزم من الرسل وأحب خلق الله إلى الله وأقربهم إليه خائفون، فما بالك بمن في أرض المحشر، خوف يدفعهم أن يكملوا رحلة البحث عن الشفيع.

المقام المحمود: مقام الشفاعة العظمى الذي لا ينبغي لأحد إلا هو صلى الله عليه وسلم.

فيُسرِع الجميع إلى محمد عليه الصلاة والسلام: «يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟»

ويحكي لنا -صلى الله عليه وسلم- ما حدث: فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»[1]

يشفعُ -صلى الله عليه وسلم- لأهل المحشر جميعًا، لكل الناس، لمن آمن به ومن كفر، لمن صدَّق الرسل ولمن كذبهم، رحمة ما بعدها رحمة من رحمة الله للعالمين، محمد بن عبد الله، يسأل الله أن يعجِّل الحساب؛ فيقبل منه عز وجل، ويبدأ الحساب.

٤. العرض

«أنا آتيكم فأقضي بينكم»

هكذا يجيب الله -تبارك وتعالى- شفاعة نبيه.

كل الخلائق في أرض المحشر تنتظر على وجل وخوف، وإذا بهم يسمعون طقطقة مخيفة تخلع قلب كل من في المشهد.

السماء تتشقق، ووفود الملائكة تبدأ في النزول إلى الأرض، موكب الرب العظيم، أعداد هائلة لا يتخيلها بشر، أكثر من أهل الأرض أضعافًا مضاعفة، صفوف الملائكة تُحيط بكل من في أرض المحشر من كل الجهات.

---

(١) صحيح مسلم

«وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا»(١)

وكلَّما نزل وفد من وفود الملائكة، يُسرِع إليه الخلق ويسألونهم: «أفيكم ربنا؟»

فيقولون: «لا، وهو آت».

وهكذا يسألون كل فوج، حتى ينزل آخر فوج من الملائكة ومعهم يتنزل الرب العلي -سبحانه وتعالى- تنزلًا يليق بجلاله وكماله، فكل ما يخطر في ذهنك، فالله بخلاف ذلك.

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)»(٢)

يتنزل الله -عز وجل- في طاقات من الغمام، وحملة العرش يسبحونه ويقدسونه، قائلين:

«سبحان ذي المُلْكِ والملَكُوتِ، سبحان رب العرشِ ذي الجَبَروتِ، سبحان الحيِّ الذي لا يموتُ، سبحان الذي يُميتُ الخلائقَ ولا يَموتُ، سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكةِ والروحِ، قدُّوسٌ قدُّوسٌ، سبحان ربِّنا الأعلى، سبحان ذي السُّلْطانِ والعظمةِ، سبحانه أبدًا أبدًا».

يقول الله: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)»(٣)

تُشرق أرض المحشر بنور ربها الذي ليس كمثله نور..

---

(١) سورة الفجر: ٢٢

(٢) سورة الشورى

(٣) سورة البقرة

«**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**»[١]

كُلُّ الخلائق جاثية على ركبها، لا تستطيع الوقوف، خاشعة خائفة.

«**وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)**»[٢]

وتزيد هيبة الموقف، ويشتعل حر اليوم بحضور جهنم.

يقول عز وجل: «**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ**»[٣]

يأتي الله بها من حيث خلقها إلى أرض المحشر، تأتي عظيمة، لها سبعون ألف زمام (الزمام شيء يُجر به) يمسك كل زمام منها سبعون ألف ملك، أربعة مليارات وتسعمائة مليون ملك يجرونها في مشهد مهيب، وسبحان من هذا ملكه.

لا صوت في أرض المحشر، لا لنبي ولا ملك ولا لأي أحد، صمتٌ تام إلا من همس خفيف لا يسمع.

«**وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)**»[٤]

كل الوجوه استسلمت لخالقها، وقلوب الظالمين تكاد تخرج من أفواههم لمَّا علموا ما هم قادمون عليه!

«**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)**»[٥]

---

(١) سورة الزمر:٦٩

(٢) سورة الجاثية

(٣) سورة الفجر:٢٣

(٤) سورة طه

(٥) سورة طه

ثم يُنادي مناد نداءً تسمعه الخلائق كلها، فيقول الله عز وجل:

«يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إني قد أَنْصَتُّ منذُ يومِ خلقْتُكم إلى يومِكم هذا، أسمعُ كلامَكم، وأبصرُ أعمالَكم، فأنصِتوا إليَّ، فإنما هي صحُفُكم وأعمالُكم تُقرأُ عليكم، فمن وجَد خيرًا فلْيَحْمَدِ اللهَ، ومَنْ وجَد غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسَه»[1]

يبدأ الحساب بسؤال المرسلين وأقوامهم الذين أُرسلوا إليهم.

«يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ»[2]

يسأل الله رسله وهو أعلم بهم، هل بلَّغوا الرسالة وأدُّوا الأمانة، فيشهد رسل الله، نَعَمْ، قد بلَّغنا يا رب.

فتأتي أقوامهم فتكذبهم، ويقولون يا رب، ما جاءنا من نذير ولا رسول.

فيسأل الله الرسل: فمن يشهد لكم بأنكم بلَّغتم، فيطلب جميع الرسل شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمته!

فنشهد لرسل الله أنهم قد بلغوا، ويصدقنا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.

«وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»[3]

---

(١) تفسير الطبري

(٢) المائدة:١٠٩

(٣) سورة البقرة:١٤٣

كيف ونحن المسلمون لم نر هؤلاء الرسل، ولم نحضر دعوتهم؟!

والجواب:

بما أخبرنا الله في كتابه، وأعلمنا رسول الله في سنته.

ثم يُنادى سادة أرض المحشر ليدخلوا تحت ظل عرش الرحمن، وهم الأصناف السبعة الذي سبق لنا ذكرهم.

ويبدأ الحساب بالعرض على الله عز وجل.

ولكن قبل العرض على الله، يحدث أهمُّ حدث في يوم القيامة والذي لو صرنا من أهله، ما كفانا أن نقضي خلود الجنة سجدًا لله شاكرين على هذا الموقف.

مجموعة من أهل الموقف، ولكنهم رغم وقوفهم فيه فهم سادته، حُشروا مبشرين وركبانًا من ملائكة الرحمن، وغيرهم يمشي على قدميه أو على وجهه، الكل تحت الشمس وهم في ظل عرش الرحمن، والآن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب!

سبعون ألفًا مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاث مجموعات يختارهم الرب العلي وهو بهم عليم، يحثوهم بكفه -عز وجل- ولا يعلم عددهم إلا هو، يدخلون الجنة بلا عرض ولا حساب ولا عذاب!

يقول صلى الله عليه وسلم:

«وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وجل»[1]

---

(١) السلسلة الصحيحة

وصفهم -صلى الله عليه وسلم- أنهم على صورة القمر ليلة البدر، تشعر وكأن يوم القيامة المهيب كان لهم فرح وسرور وسعادة، ولِمَ لا وهم الذين عاشوا دنياهم استعدادًا لهذا اليوم.

٥. تطاير الصحف

وفجأة، تتطاير الصحف في أرض المحشر، كل ما فعلنا من خير أو شر في كتاب يطير فوق أعناقنا.

كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، حتى الكلام الذي لا ثواب فيه ولا عقاب عليه، حتى الضحكة والابتسامة والدمعة، كلُّ شيء مكتوب.

«وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا»(١)

حتى ما نسينا أننا قد فعلناه، لم ينسه الله ولا ملائكته.

«يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»(٢)

ينزل الكتاب ليتلقاه كل واحد منا، إما بيمينه فيفلح ويفرح، وإما بشماله فيهلك ويعذب.

والأمر في هذا الموقف جبري فلا حيلة لنا فيه، صحيفتك تعرف طريقها وأنت الذي رسمته لها بعملك في الدنيا.

(١) سورة الكهف:٤٩

(٢) سورة المجادلة:٦

هل ترى هذا الذي حاول أن يمسك كتابه بيده اليمنى، ووضع اليسرى وراء ظهره؟! ها هو كتابه يأتيه في شماله وراء ظهره، ألم أقل لك لا حيلة لنا!

كتاب باليمين لبعضهم، وكتاب بالشمال لآخرين، وقد حان وقت الوقوف بين يدي الله.

«يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ»(١)

يا فلان بن فلان، هلم إلى العرض على الله، نداء يسمعه كل واحد في أرض المحشر، كل واحد يُنادى باسمه للوقوف بين يدي الله، ملكٌ يسوق العبد إلى لقاء ربه، وملكٌ شاهد على عمله.

«وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»(٢)

كل الخلائق من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، سيعرضون فردًا فردًا.

«وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا»(٣)

لا وجود لتشابه الأسماء ها هنا، فكل من يُدعى يَعرف أنه المطلوب، ولا مفر ولا مهرب.

يقول رسول الله:

«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»(٤)

---

(١) سورة الحاقة:١٨

(٢) سورة ق:٢١

(٣) سورة مريم:٩٥

(٤) صحيح البخاري

ليس بينه وبين الله ترجمان، لقاء بين العبد وربه، ليحاسبه على ما فعل ويا لرهبة اللقاء.

٦. الحساب

أول من يُعرضون على ربهم ثلاثة، من هم؟

مُجاهد وقارئ ومُتصدق، بداية جميلة بأناس صالحين!

هل هذا ما تعتقده حقًا؟ إذًا، تعال لنشاهد ما يحدث لهم.

يسأل الله قارئ القرآن: فيم تعلَّمت العلم وقرأت القرآن؟

فيقول: قرأت فيك القرآن وتعلمت فيك العلم، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت ليقال قارئ، ما تعلم لله ولا قرأ لله، فيؤمر به فيُسحب إلى النار!

ويُؤتى بالمجاهد فيسأله الله: فيم جاهدت؟

فيقول: أمرت بالجهاد وجاهدت في سبيلك، قال: كذبت، تقول له الملائكة: كذبت، ولكنك جاهدت ليُقال هو جريء شجاع، فيُؤمر به فيُسحب إلى النار على وجهه!

ويُؤتى بالمتصدق الذي تصدَّق بماله فيسأله الله: فيم تصدقت؟

قال: أُمرت بالصدقة في سبيلك، فما تركت من سبيل تحب أن يُنفق فيه إلا أنفقت فيه.

قال: كَذَبت، وتقول الملائكة: كذبت، ولكنَّك تصدقت ليُقال جواد كريم وقد قالوا، فيُؤمر به إلى النار![1]

---

(١) صحيح مسلم

عملٌ لم يُبتغَ به وجه الله، بل كان رياءً وطلبًا لرضا الناس، كل منهم تاجر ببضاعته، ولكنه لم يُتاجر مع الله بل مع خلقه؛ فخاب وخسر!

صوت المنادي ينادي على أحدهم، فلان بن فلان، هلُّم إلى العرض على الله، يتقدم من بين الصفوف، ليُعرض على ربه وفي يده كتابه.

كتابُه في يمينه، عبدٌ مؤمنٌ قضى حياته يجاهد نفسه، وكلَّما وقع اجتهد ثم قام، لم يستصغر ذنبًا أبدًا، بل كان يقاوم ذنبه، فإذا أصابه ذنبه وغلبه شيطانه؛ تاب واستغفر، عبدٌ لطالما كان يخشى نتيجة ذنبه، ويرجو رحمة ربه!

يُدني الله عبده منه ثم يستره من أعين الخلق، فلا يراه من أهل المشهد أحد، ثم يبدأ الرب -سبحانه- يذكِّر العبد بذنوبه، والعبد يتذكر ولا يُنكر، ويُقر بذنبه الذي يعرفه جيدًا.

ذنب كذا يوم كذا حين غلبتني نفسي، وذنب كذا الذي وقعت فيه مرارًا وكلَّما تبت منه وقعت فيه ولكني كنت صادق النية في التوبة، كل ذنوبه تمر أمامه وربه يُذكِّره، وهو مقرٌ بها حتى يوقن أنه من أهل النار لا محالة.

فإذا به يسمع الرحيم الغفور يقول: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ويُعطى كتاب حسناته بيمينه.

«فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)»[١]

---

(١) سورة المطففين

يطير العبد في أرض المحشر من السعادة، يبحثُ عن أهله، أخيرًا حاز الجائزة التي عاش لها، نجا من الحساب وأصبح بينه وبين الجنة القليل، ينادي في كل أهل الموقف، تعالوا، انظروا نتيجتي، لقد نجحت وفزت!

كنت أعلم أني سألاقي ربي ويُجازيني، كنت أومن بلقائه، خفته في الدنيا فأمَّنني اليوم، فزت.. فزت!

«فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)»(١)

وهذا آخر، يتقدم للوقوف بين يدي الله للحساب.

فيسأله الله عن عمله، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك ورسلك وصُمت وصلَّيت وتصدقت، وكم حججت بيتك واعتمرت، ويُثني على عمله ما استطاع ثم يقول يا رب، وإنك أمَّنتني من الظلم فلا أقبلُ شاهدًا عليّ إلَّا من نفسي.

فيقبل الجبَّار طلبه، فيختم على فمه فلا يستطيع الكلام ثم يأمر أعضاءه لتنطق شاهدة عليه، تنطق الأعضاءُ رغمًا عنها استجابة لأمر الله، فتعترف اليد بذنوبها وتشهد القدم بكل ما سارت إليه من المعاصي وتُدلي العينُ باعترافاتها عن كل نظرة حرام، اعتراف كامل، ومن نفسك كما طلبت.

ثم يُطلق الله لسانه، فما يكون منه إلَّا أن يعاتب أعضاءه قائلًا: **بعدًا لكن وسحقا، فما كنت أجادل إلا عنكن.**(٢)

---

(١) سورة الحاقة

(٢) صحيح مسلم

«الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»[1]

«وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)»[2]

ظنَّ أنه يستطيع خداع ربه! كيف وقد أشهد عليه نفسه وأعضاءه وهو عن ذلك غني، فهو أعلم بفعل العبد، وحديث نفسه، وما هو أخفى من ذلك.

فلان بن فلان، هَلُّم إلى العرض على الله.

يتقدَّم، وهو يتمنى ألا يفعل، ولكن لا مفر!

يقف أمام ربه، وهو يعلم مصيره من كتابه الذي وقع في شماله.

فيقول له الله:

«أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟»[3]

يا فلان ألم أمنحك كرمي وعطائي في الدنيا؟

ألم أُنعم عليك بشتى النعم؟

ألم أجعلك سيدًا وزوجًا؟

ألم أسخِّر لك من الدواب كذا وكذا؟

---

(١) سورة يس:٦٥

(٢) سورة فصلت

(٣) صحيح البخاري

ألم أجعلك ترأس وتملك وتنعم؟

يعدد الله نعمه على العبد، والعبد يسمع، ويكاد يذوب خجلًا ولا يجد جوابًا.

فيقول العبدُ: «بلى يا رب»، يُقرُّ بكل نعم الله عليه.

فيقولُ اللهُ عز وجل: «أفظَنَنْتَ أنك مُلاقيَّ؟»

هل كنت تظن أنك ستلقاني، وتقف بين يدي؟

فيقول العبد، وقد تيقن من مصيره: «لا»، ومع هذه «اللا»، يتذكر كل شيء، كل نصيحة سمعها ولم يّعْمَلْ بها، كل فرصة جاءته ليتوب فلم يغتنمها، كل رسالة بعثها الله إليه ليرفع الغشاوة عن قلبه؛ فلم يستجب!

نسى الله وانشغل بشهواته عن رضاه.

فيقول الله: «فإنِّي أَنْسَاكَ كما نَسِيتَنِي».

كما لم تستجب، كما أصررت على البعد، كما رفضت اتباع أوامري ونواهي، كما نسيت لقائي وحسابي، جاء وقت نسياني لك، فلا رحمة ولا مغفرة ولا نجاة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فيَنْظُرُ العبدُ إلى كتابه بشماله، وتسمع له صراخًا في أرض المحشر وهو يقول:

«وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)»[١]

(١) سورة الحاقة

لا مال ولا سلطان ولا عاصم اليوم من أمر الله، لحظة ندم وقت لا ينفع الندم.

انظر إلى هذا الذي يضحك، ويدور في أرض المحشر سعيدًا!

وقف أمام الله، وإذا به يرى في كتابه صغار ذنوبه ولا يرى كبارها، وجعل الله -عز وجل- يُذكره بالصغائر، وهو يخشى حضور الكبائر، فإذا بالرب الغفور الرحيم يأمر بأن تبدل سيئاته حسنات، فقد تاب منها وآمن وعمل صالحًا.

فإذا بالعبد يقول: «يا رب، لي ذنوب كبار لا أراها مكتوبة ها هنا».

طمع لَّما رأى عفو ربه وواسع مغفرته، وقد طمع في كريم.

فقال له الله الكريم: «**فإنَّ لكَ مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسَنةً**»[1]

«**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**»[2]

وهكذا يا صديقي، يُحاسب المولى -تبارك وتعالى- عباده فردًا فردًا، فمنهم شقيٌ وسعيد، فائز معذور مغفور له برحمة الله وعفوه وكرمه، أو مهزوم مُجازى على فجوره وظلمه وبعده عن الله.

ثم يأمر الله بنشر ديوان المظالم ورد حقوق العباد.

---

(١) صحيح الجامع

(٢) سورة الفرقان: ٧٠

٧. ديوان المظالم

لطالما سأل المظلومون: يا رب، ظُلمنا فمتى القصاص؟

متى يا رب نرتاح؟ متى تشفي صدورنا ممن ظلمنا؟ انتهت الدنيا ولم نحصل على حقوقنا، فهل ضاعت؟

وها قد جاءت لحظة الإجابة التي تمنوها، لحظة العدل المطلق ورد الحقوق.

هل ترى هذا الظالم وقد التف حوله من ظلمهم؟

يقفُ جميع المظلومين حول من ظلمهم، وكل منهم يطالب بحقه.

يا رب، هذا الظالم شتمني، سرقني، ضربني، خاض في عرضي، اغتابني، قتلني، كل واحد يعرض مظلمته، والله أعلم بهم.

هيا أيها الظالم قُمْ بدفع الثمن! ولكن يا رب، لا درهم معي ولا دينار، لا ذهب ولا فضة، فكيف أدفع؟

ادفع من حسناتك وخذ من سيئاتهم! كل من له حق يأخذ من حسنات الظالم حتى يستوفي حقه، فإذا فنيت حسنات الظالم، فنيت تمامًا فلم تبقَ له حتى ولو حسنة واحدة، فإذا به يأخذُ من سيئات من ظلمهم.

تفنى حسناته؛ فيُفلس، وهذا هو الإفلاس الحقيقي، عمل طوال عمره.. صام وصلى وقام وزكّى وحج واعتمر، ولكنه ظلم خلق الله؛ فأفلس من كل حسنة عملها، فبئس الإفلاس.

ينتهي رد المظالم كلها، فلا يبقى مظلوم إلا ورأى بنفسه عاقبة الظالم، حتى الوحوش والبهائم والنمل يقتص المظلوم منها من الظالم

فيقول الله لهم: كونوا ترابًا؛ فيكونوا!

فينظر إليهم الكافر، ويقول: يا ليتني كنت منهم فأصير ترابًا، ولكن عذرًا يا هذا، فلا فائدة لندمك.

بعدها يأمر الله -عز وجل- بوضع الميزان.

٨. الميزان

«وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ»[١]

يقول رسول الله: «**يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة يارب لمن يزن هذا، فيقول الله تعالى لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك**»[٢]

ميزان يزن حبة الخردل وبها يحاسب العبد، ولو وضعت فيه السماوات والأرض لوسعهن، ميزان لا نعرف له مثيلًا، فكما قلت لك: ليس في الآخرة مما كان في الدنيا إلا الأسماء.

---

(١) الأنبياء:٤٧

(٢) صحيح الترغيب

قال الله:

«فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)»[١]

الذرة لها وزن وبها تسعد أو تشقى، فسبحان من لا تعزب عنه مثقال الذرة.

«فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)»[٢]

كل عبد أمام ميزانه، توزن أعماله وسجلاته بل ويوزن هو نفسه، فيأتي الرجل العظيم فلا يزن عند الله جناح ذبابة، ويأتي الهزيل فيزن عند الله جبل أحد، فالوزنُ هنا للإيمان والقلب لا للجسم، ويا ليتنا عملنا لهذا في الدنيا.

كيف تُوزن الأعمال؟

يجعل ربي لكل عمل وزن على القدر الذي قدَّره.

الحسنات توضع في كفة والسيئات في كفة، والنجاة في حسنة واحدة تزيد والهلاك في سيئة واحدة ترجح، وهنا نعلم جميعًا قيمة كل حسنة نظرنا إليها باستخفاف وقيمة كل سيئة أسميناها صغيرة، يا رب سلم.

العبد ينظر وينتظر المصير، عيناه على كفتي الميزان، تُرى أيُّهما سترجح؟

ورحمة الله الواسعة تتجلى في هذا الموقف، فكم من عبد ترجح كفة سيئاته، ولكن لِمَا علم الله من اجتهاده في توبته وجهاده لنفسه وصدق محبته وخشيته، فإذا به يُسامحه ويُعفو عن ذنبه.

---

(١) سورة الزلزلة

(٢) سورة القارعة

وأما الكافر فلا نجاة له.

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ»[1]

إذًا، أين تذهب حسناتهم وأعمالهم الطيبة؟

يُجزى الكافر بأعماله الطيبة في الدنيا، يُوسَّع له في رزقه، ويُنصر على عدوه، ويذيع صيته بين الناس، وغيرها من المكاسب الدنيوية، أمَّا في الآخرة فلا وزن لما عمل.

يقول صلى الله عليه وسلم: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**»[2]

وبعد رجحان كفة الحسنات أو السيئات، تأتي الدرجات والدركات!

الجنة يا صديقي مائة درجة، بين الواحدة والأخرى كما بين السماء والأرض، فكلَّما رجحت الحسنات، ارتفع العبد في الدرجة.

وكذلك النار دركات، كل واحدة أشد من أختها في العذاب، فكلَّما قلَّ رجحان كفة السيئات، كان عذابُ العبد أخف، وأخفُّ أهل النار عذابًا، رجل توضع تحت قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه، تخيّل!

وبعد أن ينتهي الوزن، يأمر الله فيُحشر كل عبد مع أشباهه، فالمؤمن مع أهل الإيمان والطائع مع زمرة الطائعين، والعاصي يُحشر في جمع العصاة والمنافق مع من هم مثله، وهكذا.

---

(١) سورة آل عمران:٩١

(٢) صحيح مسلم

فرق تقف بانتظام لا خلط فيه، فلا هذا مكان ذاك، ولا موضع إلا وفيه صاحبه.

ثم يأمر الله أن يحشر كل كافر مع ما كان يعبد من الآلهة الباطلة.

هل تراهم؟! هؤلاء الذين عبدوا الشمس، وأولئك الذين عبدوا القمر، وأمَّا هذا الجمع فكانوا يعبدون الأصنام، وهكذا يا صديقي.

«احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)»[١]

فيأمر الله بهم جميعًا؛ فيُساقون إلى جهنم، يتساقطون فيها، يُحطم بعضهم بعضًا، ولا يبقى في أرض المحشر إلا من كانوا يعبدون الله وحده، مؤمنهم وفاجرهم ومنافقهم.

فيأتيهم الله -عز وجل- في الصورة التي يعرفونها ويقول: أنا ربكم، فيسجد له كل من آمن به وسجد له طواعية وإخلاصًا في الدنيا، أما الآخر فيجعل الله ظَهْرَهُ طَبَقًا لا ينحني، فلا يستطيع السجود.

«يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ»[٢]

ثم يأمر الله -عز وجل- ويُنصب الصراط على جهنم.

٩. الصراط

الصراطُ جسرٌ يُنصب فوق جهنم، وعليه يمر كل من بقي للوصول

(١) سورة الصافات

(٢) سورة القلم:٤٢

إلى الجنة، أحدُّ من السيف وأدقُّ من الشعر، وهو السبيل الوحيد للنجاة، عليه خطاطيف وأشواك كل منها موكل بصاحبه فلا يُخطئه أبدًا.

«وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)»[1]

كلنا سنمر على جهنم فوق الصراط، ولكن قبلها يُعطي الله لكل واحد من العباد من النور على قدر عمله وطاعته في الدنيا.

انظر إليهم، منهم من أعطاه الله نورًا كالجبل العظيم يسعى بين يديه، ومنهم من يُعطى ما هو أعظم من ذلك، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من يُعطى أقل من ذلك، ومنهم من نُورُه على قدر إبهام قدمه، يضيء مرة ويخبو مرة.

«يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»[2]

يَصلُ الجمع إلى الصراط، المؤمن والمنافق، ويظن المنافق أنه سينجو كما خدع الناس في الدنيا، فأظهر الإيمان وأخفى الكفر.

يضرب الله بالظلمة قبل الصراط، ويُطفأ نور المنافقين، ويبقى نور المؤمنين.

ظلام دامس، حتى نار جهنم نفسها لا تضيء الصراط، فهي سوداء لا نور فيها.

---

(١) سورة مريم

(٢) سورة الحديد:١٢

ينادي المنافقون المؤمنين، انتظرونا حتى نسير بنوركم، فيرد المؤمنون أن عودوا إلى مكان النور، فاحصلوا على حصتكم من النور كما حصلنا عليها.

يُخدعون اليوم -بإذن الله- ممن كانوا يخدعونهم بالأمس، فينطلقون فلا يجدون النور، فيعودون إلى الصراط، وإذا بسور عظيم يحول بينهم وبين المؤمنين، وظلامٌ حالك يحيط بهم، ولا مفرَّ لهم من المرور على الصراط.

«يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ»(١)

فيُنادي المنافقون المؤمنين، أين أنتم؟

لماذا تركتمونا ها هنا بلا نور؟

ألم نكن معكم، نُصلي ونصوم ونزكي ونحج، ونعبد كما تعبدون؟!

فيقول المؤمنون: بلى كنتم معنا بأجسامكم، ولكن الكفر كان يملأ قلوبكم! خدعتمونا في الدنيا، وظننتم أنكم ستخدعون الله اليوم، جاء أمر الله وهذا جزاؤكم اليوم فلا عودة ولا مفر.

«يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ»(٢)

---

(١) سورة الحديد:١٣

(٢) سورة الحديد:١٤

يمر الموحدون من الأمم كلها على الصراط، ويمر المسلمون أولًا، لا تسمع همسًا من هول الموقف إلا من دعاء الأنبياء لأقوامهم: «يا رب سلم سلم».

وبقدر عمل كل منهم، يكون نوره وسرعة مروره، هذا الذي هناك، مرَّ وما رأيناه، فكان مروره كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالحصان القوي السريع، ومنهم من يمرُّ كركاب الإبل، ومنهم من يمشي، ومنهم من يزحف، ومنهم من تخطفه الكلاليب والخطاطيف؛ فتلقي به في جهنم.

فيسقطُ المنافقون في جهنم ومن لم يُغفر له من العصاة الذين زادت سيئاتهم عن حسناتهم، فيخلد المنافقون فيها بما أبطنوا من الكفر، أما عصاة الموحدين فيُطَّهروا فيها على قدر عصيانهم ثم يُدخلهم الله الجنة بإذنه.

أما الناجون الناجحون، فمنهم من ينجو بلا خدش ولا لفحة نار، ومنهم من ينجو وقد خدشته الكلاليب والخطاطيف، ولفحته النار على قدر ذنبه.

انظر إلى هذا الأخير، يحبو ويكاد أن يقع فيها وتلفحه النار ثم يُكمل حبوًا ثم تلفحه، وهكذا حتى ينجو.

كل من في المشهد الآن هم الناجون، من سعدوا سعادةً لا شقاء بعدها أبدا، الذين وجدوا ما وعدهم ربهم حقا.

١٠. القنطرة

يجمع الله وفد السعادة على القنطرة المؤدية إلى الجنة ليطهر الله ما في قلوب المؤمنين تجاه بعض إخوانهم، نعم في ديوان المظالم كل أخذ حقه ورُدَّت إليه مظلمته بالحسنات والسيئات، ولكن حتى ذلك لا يكفي لتنقية القلب وتطهيره من الغل والحقد تجاه الظالم.

فجعل الله القنطرة كي تتصافى القلوب ويُنزع الغل منها بإذنه، فما من سعيدين من أهل الجنة كانت بينهم في الدنيا خصومة إلا نزعها الله من قلبيهما، وأبدلهما صفاء الأخوة والحب فيه، حتى لا يشقى أحدهم برؤية أخيه في الجنة، فلا يليق الشقاء بالسيد السعيد، بل يفرح بلقاء أخيه ويسعد بصحبته.

«وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِين»[١]

وقبل دخول المؤمنين الجنة، وبعد أن تيقنوا من النجاة، إذا بهم يجادلون الله في إخوانهم الذين استحقوا العذاب فيقولون: «رَبَّنا كانُوا يَصُومُونَ معنا ويُصَلُّونَ ويَحُجُّونَ»، لا يريدون دخول الجنة بغير إخوانهم وأهليهم.

فيقبل الله الكريم الجميل الرحيم العَفُو شفاعتهم بفضله وكرمه، فيقول لهم:

«أَخْرِجُوا مَن عَرَفْتُمْ».

فيخرجون منها خلقًا كثيرًا بإذن الله ثم يقولون: «رَبَّنا ما بَقِيَ فيها أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنا به».

---

(١) سورة الحجر:٤٧

فيأمر الكريم الرحيم العفو الملائكة فيقول: «ارْجِعُوا فمَن وجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ دِينارٍ مِن خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ».

فيُخرجون منها الكثير من الخلق ثم يقولون: «رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها أحَدًا مِمَّنْ أمَرْتَنا».

فيقول الرحيم الرحمن جل جلاله: «ارْجِعُوا فمَن وجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ نِصْفِ دِينارٍ مِن خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ».

فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: «رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها مِمَّنْ أمَرْتَنا أحَدًا».

فيقول العفو الغفور: «ارْجِعُوا فمَن وجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ مِن خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ».

فيخرجون خلقًا كثيرًا ثم يقولون لله: «رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها خَيْرًا».

«إنَّ اللهَّ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أجْرًا عَظِيمًا»(١)

كرمٌ عظيمٌ من الرحمن الرحيم، يُشَّفِعُ المؤمنين والأنبياء والملائكة، ويقبل منهم حتى لا يبقى في النار من حمل في قلبه ذرة من الخير، ربٌ يرحم بالذرة، فما أرحمه وأكرمه.

ولكن يا صديقي، هل تقف رحمة الله عند هذا الحد؟

لا والله، بعد أن شفع الجميع يقول الله عز وجل: «بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فيُخْرِجُ أقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا، فيُلْقَوْنَ في نَهَرٍ بأَفْوَاهِ الجَنَّةِ، يُقَالُ له: مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ في حَافَتَيْهِ كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ».

---

(١) سورة النساء: ٤٠

قبضة الله تُخرج من النار أضعافًا مضاعفة، وقد احترقت جلودهم من نار جهنم، فيأمر بهم إلى نهر من أنهار الجنة (ماء الحياة)، فينبتون كالبذرة تخرج من الأرض نباتًا وليدًا جميلًا لا عيب فيه، يُطهرون ويُجملون ويُجهزون لدخول الجنة، وهم في بريق اللؤلؤ، فيدخلون الجنة برحمته ويسميهم أهل الجنة: (عتقاء الرحمن).

وقبل أن نتجولَ قليلًا في الجنة، تعال لنأخذ لمحةً سريعةً عما كان فيه هؤلاء من العذاب، وأعدك بعدم الإطالة؛ فالقلب لا يتحمل، ولكن تعال نعلم لنعمل.

المشهد الرابع: النار

النار مستقر الكافرين والمنافقين الأبدي، وفيها يُعذب عصاة الموحدين الذين استحقوا العقاب قدر ذنوبهم حتى تنالهم الشفاعة أو تنتهي عقوبتهم.

سوداء مظلمة، لها سبعة أبواب فوق بعضها كل باب، يخفي وراءه ما الله أعلم به من العذاب، ويعرف صاحبه الذي سيدخل منه.

كل طائفة ستدخل من بابها الذي كتب الله لها.

«وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ»[1]

---

(١) سورة الحجر:٤٣-٤٤

دركات بعضها فوق بعض، وكلَّما نزلت في الدركات زاد العذاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يهوي الحجر إلى قعرها سبعين سنة، ولا يصل إليه.

نارها وحرّها لو جمعنا كل الحطب على وجه الأرض منذ آدم فأشعلناه نارًا، فذلك جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، بل أقل.

هواؤها السموم، رياح حارة تأكل الجلود وتخترق المسام، وكأنها تحرق الروح.

يتفاوت فيها العذاب على قدر الجريمة، فمنهم من ناره إلى الكعب، ومنهم من تصل إلى ركبتيه، ومنهم من هو أكثر من ذلك، وهكذا.

يقول صلى الله عليه وسلم: «**منهم مَن تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم مَن تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم مَن تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم مَن تأخذه النار إلى ترقوته**»(١)

جلود المعذبين سميكة ليست كجلودهم في الدنيا، كلَّما احترقت بدَّلهم الله جلودًا غيرها؛ ليستمر عذابهم إلى ما شاء الله.

«**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**»(٢)

لبسهم فيها من نار، النار ملبسهم وحولهم ومن تحتهم من فوقهم.

---

(١) صحيح مسلم

(٢) سورة النساء:٥٦

«فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ»[١]

«لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ»[٢]

أكلهم فيها على حسب دركاتهم، فمنهم من يأكل الغسلين وهو القيح والصديد الذي ينزل من أجساد المعذبين.

«وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)»[٣]

ومنهم من يأكل الضريع، نباتٌ له شوك يقطِّع الأمعاء، فيزيدهم عذابًا إلى عذابهم، ويا ليته يقيهم الجوع.

«لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)»[٤]

ومنهم من طعامه الزقوم. والزقوم خبيث الشكل، وكأنَّه رأس الشيطان الذي لا نعرف له شكلًا، ولكن يَسهُل أن تتخيل مدى القبح، كالحديد المذاب، إذا أكلوه يغلي في بطونهم غليًا، خبيث الطعم والرائحة حتى أن قطرةً منه لو نزلت على الأرض لأفسدت على البشرية لذة طعامهم وشرابهم ومعيشتهم.

«إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥)»[٥]

(١) سورة الحج:١٩

(٢) سورة الأعراف:٤١

(٣) سورة الحاقة

(٤) سورة الغاشية

(٥) سورة الدخان

أمَّا شرابهم فيها، الحميم والغساق.

والحميم ماء شديد الحرارة يُمزق الأمعاء، فلا يروي العطش بل يزيد العذاب، أما الغسَّاق فهو صديد أهل النار، خليط لا بديل عنه لشربهم وبئس الشراب.

«وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)»[1]

«هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧)»[2]

هم فيها مقيدون بالأغلال، في أعناقهم والسلاسل في أيديهم وأرجلهم، مسجونون في حفر ضيقة، أغلال وسلاسل من نار لا نستطيع تخيلها، وحفر تأتيهم النار فيها من فوقهم ومن أسفل منهم.

«وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[3]

«وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا»[4]

فإذا أراد أحدُهم دفع النار عن نفسه، لم يجدْ إلا وجهه يقابل به حرَّها وعذابها.

«أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ»[5]

---

(١) سورة محمد

(٢) سورة ص

(٣) سورة سبأ:٣٣

(٤) سورة الفرقان:١٣

(٥) سورة الزمر:٢٤

من عذابهم فيها، الضرب بمقامع من حديد، لو حاول الإنس والجن حمل الواحد منها ما استطاعوا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

«**وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)**»[١]

وتُسلَّط عليهم ثعابين وعقارب وحشرات ليست كتلك التي في دنيانا، اللسعة الواحدة منها يظل ألمها حيًا أربعين سنة.

أمَّا عذابهم النفسي، فحدِّث ولا حرج، يبدأُ مع سقوطهم في النار.

«**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)**»[٢]

تسألهم ملائكة النار: ألم تأتكم الرسل؟

ألم يخبروكم عن هذا اليوم ويحذروكم منه؟

فيجيبوا بالحق، بلى جاءنا، ولكننا ظلمنا أنفسنا ولم نتبعهم.

يُنصب المنبر لإبليس، فيخطب فيهم خطبته التي يتبرأ فيها منهم، ثم يتبرأ كل من عمل بغواية الناس ممن أغواهم.

«**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)**»[٣]

يُضاعف العذاب للفريقين، بما عملوا وظلموا.

---

(١) سورة الحج

(٢) سورة الزمر

(٣) سورة البقرة

«كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ»(١)

يصرخون فيها من شدة العذاب وينادون مالك (خازن النار)، ويطلبون منه أن يشفع عند الله، ليقضي عليهم ويموتوا.

«يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ»(٢)

أربعون عامًا لا يجيب مالك صراخهم، حتى إذا أجابهم قال: لا مخرج ولا مفر، إنكم ماكثون هنا إلى الأبد.

«إِنَّكُم مَّاكِثُونَ»(٣)

يستغيثون بالملائكة خزنة جهنم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم يومًا واحدًا من العذاب، مجرد يوم بلا عذاب هو حلمهم وأقصى أمانيهم.

«وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ»(٤)

فتجيبهم الملائكة: بعد تكذيبكم الرسل وكفركم بالله، ادعوا كما شئتم، ولكن اعلموا، لا استجابة لكم ولا مفر من العذاب.

«قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»(٥)

---

(١) سورة الأعراف

(٢) سورة الزخرف:٧٧

(٣) سورة الزخرف:٧٧

(٤) سورة غافر:٤٩

(٥) سورة غافر:٥٠

أنفس خبيثة ناصب أصحابها أوامر الله ونواهيه العداء، كان يأتيهم الأمر فلا يفعلونه، وكان يصلهم النهي فلا ينتهون عنه، حتى استحقوا العذاب فكانوا من أهله، وتخيَّل يا صديقي، أنَّ الله أخبرنا في كتابه أنه لو عفا عنهم وأعادهم إلى الدنيا في فرصة أخرى، لاقترفوا نفس ذنوبهم ولعصوه مرة أخرى ولاستحقوا العذاب.

«وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)»[١]

وسبحان من خلقها وعظَّمها وجعل عذابها شديدًا، وذكرها لنا وأخبرنا عنها وجعلنا وكأننا نراها، حتى نتعظ من مصير أهلها، ونخشى أن نكون منهم ونطمع في جنته وما فيها من النعيم.

ولو كان عذابها خفيفًا أو لا نعلم عنه شيئًا، لربما تجرَّأنا عليه استخفافًا به فنُحرم الجنة وما بها من ألوان السعادة والمتعة، فكان من حكمته -سبحانه وتعالى- أن جعل العذاب شديدًا كي نفر منه، ونلجأ إلى جنته، دار النعيم والرضا الأبدي.

وتعال نبدأ من حيث انتهينا قبل أن نبدأ كلامنا عن النار.

المشهد الخامس: الجنة

يصل وفد المتقين السعداء من رجال ونساء الجنة إلى أبوابها، ثمانية من الأبواب وكل باب منهم يشتاق إلى أصحابه فيدعوهم للدخول منه، أهل الصيام يُدعون من باب الريَّان، وأهل الصلاة يدخلون من باب

(١) سورة الأنعام

الصلاة، وأهل الصدقة من باب الصدقة، وأهل الجهاد من باب الجهاد.

ومن السادة السعداء من يُدعى من أبواب الجنة الثمانية، وكلٌ على حسب قدره.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

«فمَن كانَ مِن أهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِن بَابِ الصَّلَاةِ، ومَن كانَ مِن أهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِن بَابِ الجِهَادِ، ومَن كانَ مِن أهْلِ الصِّيَام دُعِيَ مِن بَابِ الرَّيَّانِ، ومَن كانَ مِن أهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِن بَابِ الصَّدَقَةِ، فَقالَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: بأَبِي أنْتَ وأُمِّي يا رَسولَ اللَّهِ ما علَى مَن دُعِيَ مِن تِلكَ الأبْوَابِ مِن ضَرُورَةٍ، فَهلْ يُدْعَى أحَدٌ مِن تِلكَ الأبْوَابِ كُلِّهَا، قالَ: نَعَمْ وأَرْجُو أنْ تَكُونَ منهمْ»[1]

تفتح أبواب الجنة ليظهر ما خلفها مما أعدَّ الله من النعيم لعباده الصالحين، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتذكَّر هذا الوصف الرباني كلَّما تكلمنا عن شيء من جمالها، فمهما كان الوصف ومهما جمح الخيال، فلا مجال لنصل إلى الجمال والروعة والمتعة التي أعدَّها الله لعباده الصالحين.

«فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)»[2]

صفوف الملائكة الكرام تتلقى السادة السعداء في موكبِ احتفال بقدومهم، وتبشرهم بخلود أبدي في النعيم الذي أعده الله لهم.

---

(١) صحيح البخاري

(٢) سورة السجدة

«وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)»[١]

يضع السيدُ الكريمُ أولَّ قدم له في الجنة ومعها يسعد سعادة لا شقاء بعدها أبدًا، فلا كبر ولا مرض، ولا ملل ولا شقاء ولا هم، لا شيء إلا السعادة وفقط.

هل ترى أشكالهم؟ طول فارع، كل منهم على طول آدم عليه السلام ستون ذراعًا في السماء (حوالي: ستة وثلاثون مترًا، تخيّل!).

الكحل يُزين أعينهم كأجمل ما يكون، جردًا مردًا (أي بلا شعر ينبت على أجسامهم أو وجوههم).

جمالهم كجمال يوسف عليه السلام، شباب جميعهم فلا كهل فيهم ولا مريض، أعمارهم بين الثلاثين والثلاث والثلاثين.

يقول صلى الله عليه وسلم: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ جُرْدًا، مُرْدًا، مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلاَثِينَ أَوْ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً»[٢]

أما عن سيِّدات الجنة من نساء الدنيا الصالحات فلا وصف لجمالهن، لو اطَّلَعت الواحدة منهن إلى الدنيا لأضاء جمالُها ما بين السماء والأرض، ولملأ طيبها الساحر كل مكان، ولكان ما على رأسها من حرير تضعه بغير اكتراث أحلى وأجمل وأغلى من الدنيا وما فيها.

«وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٣]

(١) سورة الزمر

(٢) السلسلة الصحيحة

(٣) صحيح البخاري

يُهدى كل منهم إلى بيته، فهو أعرف ببيته في الجنة منه ببيته في الدنيا.

هل ترى الطريق الذي نسير فيه؟

الترابُ ها هنا الزعفران، ذلك العشب الغالي الثمن في دنيانا اليوم، هو مجرد تراب في الجنة.

حصى صغير يُزين أرضَها، ولكن هل لاحظت لمعانه؟ هذا الحصى من اللؤلؤ والياقوت.

هذا ما تسير عليه أقدام السادة السعداء، الزعفران واللؤلؤ والياقوت.

فماذا عن منازلهم؟

حول المنازل تجري أنهار عجيبة لا أخدود لها، نهرٌ معلقٌ في الهواء بلا حواف تحيطه، يجري ولا يعيق حركة السادة ولا يضيِّق عليهم طريقًا بل يمتعهم بجميل جريانه، وبطرب خريره، وروعة ما يحويه.

«مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى»[1]

أربعة أنواع من الأنهار كما ترى، أنهارٌ من ماء لا يتغير طعمه ولا رائحته أبدًا، لا يحتاج إلى تصفية أو إزالة للشوائب، فلا ماء يُشبهه، ولا نقاء مثل هذا النقاء.

(١) سورة محمد:١٥

وأنهار من لبنٍ لا يحمض أبدًا، وطعمه صافٍ كما لم نذقه من قبل في الدنيا، فهو مخلوق لهذا النهر هدية لأهل الجنة، لم يأتِ من بقر أوغنم أو ما شابه.

وأنهارٌ من خمر نزع الله منها كل ما كان في خمر الدنيا من سوء، فخمر الجنة لذيذ الطعم، عطر الرائحة، لا يُذهب العقل بالسكر ولا يؤثر بالسوء على صاحبه.

وأنهارٌ من عسل مصفى، عسلٌ لا كعسل الدنيا خرج من بطون النحل قد يُعجبُك طعمه أو لا يعجبك، عسلُ الجنة خلقه الله للسادة السعداء على غير مثيل في اللون والطعم والرائحة والشكل.

ونأتي إلى قصور السادة، بُنيان الجنة أحجاره واحدة من ذهب والأخرى من فضة، وبينهما المسك يربط البنيان ببعضه.

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما سُأل عن قصورها:

«لبنةٌ من فضَّةٍ ولبنةٌ من ذَهَبٍ، وملاطُها المسكُ الأذفرُ، وحصباؤُها اللُّؤلؤُ والياقوتُ، وتُربتُها الزَّعفرانُ»[1]

ارتفاعُ القصر مائة ذراع في السماء.

أمَّا عن فرش القصر فتخيل قصرًا من ذهب وفضة، بم يُفرش؟!

«مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ»[2]

بطانة الفرش الذي يتكئ عليه السيد من الحرير الغليظ المطعم بالذهب، هذه البطانة فما بالك بالفرش نفسه.

---

(١) صحيح الترمذي

(٢) سورة الرحمن: ٥٤

ولكل سيد منهم خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلًا وعرضها مثل ذلك، له فيها من النعيم ما الله به أعلم.

وكلما زادت درجة السيد في الجنة، زاد جمال قصره وألوان النعيم فيه، حتى أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر أقوامًا في الجنة يسكنون غرفًا يراها أهل الجنة لعلوها وجمالها وبهائها ولمعانها وكأنها نجوم في السماء.

«إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة كما تراءون الكوكب في أفق السماء»[1]

ويُحيط بقصور السادة السعداء أشجار وحدائق، الشجرة الواحدة يَمشي في ظلها الراكب على فرسه مائة سنة، ساق الشجرة من الذهب، وتُنبِت من فاكهة الجنة -التي لا مثيل لها- ما الله به عليم.

«ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب»[2]

يجلس السيد منهم في حديقته، فيشتهي الفاكهة، فيدنو منه غصنُ الشجرة ليأكل منه ما شاء، ويتلذذ بفاكهته التي أعدَّها الله له، حتى إذا انتهى من طعامه، ارتفع الغصنُ إلى مكانه كما كان.

«فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)»[3]

وإذا اشتهى الطيرَ من طيور الجنة، نزل له مشويًا أو مطهيًا كما يشتهي ويحب، يرفع جناحيه حتى يأكل منه كما يحلو له، فإذا انتهى طار كما كان.

«وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)»[4]

---

(١) البخاري ومسلم

(٢) صحيح الترمذي

(٣) سورة الحاقة

(٤) سورة الواقعة

فإذا اشتهى شرب الماء، شربه من عيون الجنة التي تجري يمينه وشماله، يتلذذ بطعم مائها الذي ليس كمثله ماء، لذةٌ خالصةٌ حتى في شرب الماء إذ ليس في الجنة عطش.

«**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ**»[1]

وبعد الأكلِ والشرب، فلا ألم في المعدة ولا رغبة في الخلاء، في الجنةِ لا بول ولا غائط، ولكن رشح كالمسكِ تفيض به جلودهم فتزيدهم بهاءً وطيبًا.

«**تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بطنه**»[2]

أمَّا عن هذه الشجرة التي لا مثيل لها في الجمال والروعة، فهي شجرة ملابس أهل الجنة، لا لم أفقد عقلي من جمال ما نحن فيه وإن فعلت فلا لوم عليّ، هذه شجرة طوبى، تنبت ثمارًا يخرج منها لبس السادة.

يلبسون فيها الحرير المذهَّب وأساور الذهب والفضة واللؤلؤ، أسماء كالأسماء التي نعرفها، والفرق شاسع، فلا تبلى ولا يذهب بهاؤها، ولا يقل لمعانها وضوؤها.

«**أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)**»[3]

---

(١) سورة المرسلات:٤١

(٢) الترغيب والترهيب

(٣) سورة الكهف

يطوف عليهم الخدم بآنية الشراب، خدمٌ كاللؤلؤ المنثور من جمالهم وبهائهم يحملون أكوابًا من الذهب والفضة بها من الشراب ما هو لذة للشاربين.

«يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)»[١]

ولِأقل أهل الجنة منزلةً ألف خادم، كل واحد منهم بقوم بعمل غير صاحبه!

«إنَّ أدنَى أهلِ الجنَّةِ منزلةً مَن يسعَى عليهِ ألفُ خادم، كلُّ خادم على عملٍ ليسَ عليهِ صاحبُهُ قال: وتلا هذهِ الآيةَ (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا)»[٢]

وللسادة أزواجٌ من الحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون، المكنون الذي لم تره عين، ولم تصل إليه يد، فزاد جمالًا وبهاءً وروعةً.

«وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ»[٣]

كل واحدة منهن لا ترى إلا زوجها، هو سيدها وحبيبها، لا تسعى إلا لسعادته ولا ترضى إلا برضاه.

«فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ»[٤]

---

(١) سورة الواقعة

(٢) صحيح الترغيب

(٣) سورة الواقعة:٢٢-٢٣

(٤) سورة الرحمن:٥٦-٥٨

ومن نعيم السادة السعداء في الجنة، سحابةٌ تمر عليهم، فإذا بها تسألهم: ألا تشتهون شيئا فأُمطره عليكم؟

فيشتهي كل منهم ما شاء من ألوان النعيم، فتمطره عليه حتى يرضى.

نعم، أيُّ شيء يشتهيه أحدهم تمطره عليه، فقط عليه أن يحلم!

«وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)»(١)

أدناهم منزلة -وما فيهم من دني- من يملك عشر أمثال كل ما كان في الدنيا من ملك ونعيم ومتعة.

أما أعلاهم فقال عنهم الله:

«أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر»(٢)

نعيم لا يمكن أن يتخيله بشر، أعده الله خصيصًا لسادة السادة، فهم أسعد السعداء وأعلاهم قدرًا.

هل تظن نعيمهم يقف عند هذا الحد؟

إذًا تعال يا صديقي، أحدثك عن يوم المزيد.

يوم المزيد هو يوم الجمعة في الجنة، كلُّ من في الجنة من رجال ونساء من السادة السعداء يلبسون أفضل ثيابهم ويتهيأون للقاء.

لقاء من؟

لقاء الله عز وجل.

---

(١) سورة الإنسان

(٢) صحيح مسلم

يقول -صلى الله عليه وسلم- واصفًا اللقاء:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ، قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»[1]

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ (٢٦)»[2]

الحسنى هي الجنة، والزيادة رؤية وجه الله الكريم.

يرون ربَّهم كما نرى القمر ليلة البدر، يجمعهم الله جميعًا في روضة من رياض الجنة، ويكون لكل منهم مجلسًا يليق بقدره، فمنهم من هو على منابر من نور، ومنابر من مسك، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ياقوت (الزبرجد والياقوت من الأحجار الكريمة)، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم (وما فيهم دني) على كثبان المسك والكافور لا يرون أن أصحاب الكرسي بأفضل منهم مجلسًا.

فما منهم من أحد إلا ويكلم الله ويكلمه -سبحانه وتعالى- ويقول له باسمه:

«يا فلان بن فلان، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ »، فيذكره الله ببعض ذنوبه.

فيقول العبد وقد علم ذنبه: «بلى، يا رب، أفلم تغفر لي؟»

فيقول الله: «بلى، فبمغفرتي بلغت منزلتك هذه».

---

(١) صحيح مسلم

(٢) سورة يونس

حوارٌ بين العبد وربه، الذي لطالما أحبَّه واجتهد في طاعته وتجنَّب نواهيه، ربُّه الذي له صلى وصام وحج واعتمر، ربُّه الذي لا نعيم في الجنة يفوق نعيم رؤيته والنظر إلى وجهه.

وبينما هم في زيارة الله -تبارك وتعالى- إذ تغشاهم سحابة فتمطر عليهم طيبًا لم يجدوا مثل ريحه قط، أجمل حتى من كل ما تطيَّبوا به في الجنة، وإن شئت فاقرأ قول الله: «**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)**»[١]

كلَّما ظنُّوا أنهم قد وصلوا إلى قمة النعيم، وجدوا في انتظارهم نعيمًا أعظم، ولِمَ لا والجنة صُنع الله وهديته لعباده المتقين.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى: «قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما شئتم»، عطاء فوق العطاء، ونعيم بعد نعيم.

فيأتون سوقًا قد ملأته الملائكة، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب، لا بيع فيه ولا شراء، بل يشتهي السيد ما شاء ويحمل ما يُعجبه، لا تنتهي بضاعته ولا تفسد خيراته أبدًا! والثمن دُفِعَ مقدمًا في الدنيا بطاعة لله في أمره ونهيه، والرضا بعطائه ومنعه، والإيمان بقضائه وقدره.

وبعد زيارة ربهم، يعود كلٌ منهم إلى قصره، فما إن يعود حتى يُرَّحب به: «مرحبًا وأهلًا، لقد جئت، وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه».

فيقول: «إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار عز وجل، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا».

---

(١) سورة ق

شبابٌ لا ينتهي، ونعيم لا ينفد، ومتعة لا تنقطع، وحياة أبدية لا نهاية لها! كل لحظة أحلى من التي قبلها، لا ملل ولا تعب لا حقد ولا حسد، رضا بالله وعن الله ومن الله، ولو لم يكن فيها من نعيم إلا رؤية وجه الله، لكفى.

فاللهم اجعلنا من أهلها وسكَّانها برحمتك يا أرحم الراحمين.

وبهذا انتهت رحلتنا إلى الدار الآخرة، وصدقني لا شيء أصعب من أن تُحاول أن تصف غيبًا لم تره عين، فأسأل الله أن يغفرَ لي ما كان من تقصير عن عمدٍ أو سهو.

عدنا إلى حياتنا الدنيا!

والآن، دعني أسألك: لو تخيلنا واحدًا من أهل النار عاش عذاب القبر وأهوال القيامة، وانتهى به المقام في جهنم -عافانا الله- ثم إذ به يعود إلى الدنيا ويُعطَى فرصة أخرى، فماذا كان يفعل؟

أدعوك يا صديقي أن تتخيل نفسَكَ في كل صورة تكلمنا عنها، حلوها ومرها، من أول لحظة الموت وانتهاء بالنار والجنة، ثم أجب على السؤال السابق، وكأنك أنت صاحب الموقف الذي أنعم الله عليه بالفرصة فأعاده إلى الدنيا، وانظر في إجابتك واجعلها لك قانون حياة، إذا أردت النجاة من النار والفوز بالجنة.

أغلق عمرُ الكتابَ وجعل ينظر إليه وهو يقول في نفسه: «رسالةٌ أخرى من الله وفرصة جديدة للنجاة من النار، كم أنت كريم يا ربي».

وضع الكتاب جانبًا، وقام إلى حاسوبه المحمول، وجعل يكتب اسمه في كل صورة من الصور التي عاشها في الكتاب.

«يا روح عمر الطيبة اخرجي إلى رضا من الله»

«يا روح عمر الخبيثة اخرجي إلى غضب من الله»

اللهم اجعلها الروح الطيبة المطمئنة

«يا عمر من ربك؟ ما دينك؟ ومن الذي بعث فيكم؟»

«ربي الله وديني الإسلام وبعث فينا محمد صلى الله عليه وسلم».

«هاه هاه لا أدري، لا أدري، لا أدري».

اللهم وفقني إلى حياة، تجعلني ممن يجيبون.

وهكذا وضع نفسه في كل صورة خطوة بخطوة، يرجو من الله جميلها ويستعيذ به من سيئها، حتى انتهى إلى أهم سؤال:

ماذا لو كان من أهل النار وأُعطي الفرصة وعاد إلى الدنيا، ماذا كان سيغير في حياته؟

أي ذنب كان سيتوب منه ويقاوم العودة إليه؟

أي طاعة كان سيعسى للحفاظ عليها؟

وجعل يكتب ويكتب، يدون قرارات عاهد الله أن ينفذها قدر طاقته، وأن يستعين به عليها، استمر على حاله تلك حتى قبيل الفجر بلحظات قليلة.

نزل إلى المسجد ثم صلى الفجر وكان دعاء سجوده كله: «**اللهم إني أسألك الجنة، اللهم أجرني من النار**».

حسنًا يا صديقي، لن أطيل عليك اليوم أكثر من ذلك، ولكني لم أحب أن أقطع القصة لنكملها في يوم آخر، وظني أنك توافقني الرأي، فقد صرت أعرفك جيدًا.

وظني -أيضًا- أنَّك لا تحتاج أن أذكر لك الواجب العملي لليوم، ولكن دعني أذكرك به، نحتاج أن نفعل كما فعل عمر، وأن نكتب نسختنا الخاصة من كتاب الآخرة، نضعها دائمًا أمام أعيننا، تذكرنا كلَّما نسينا هدف الحياة الأول والأخير، الجنة!

بقي لنا لقاء أخير، ولا أستطيع أن أصف لك وقع كلمة «الأخير» هذه على نفسي، ولكن كما يُقال لكل بداية نهاية..

على كل حال، لا تتأخر كثيرًا، سأنتظرك بشوق!

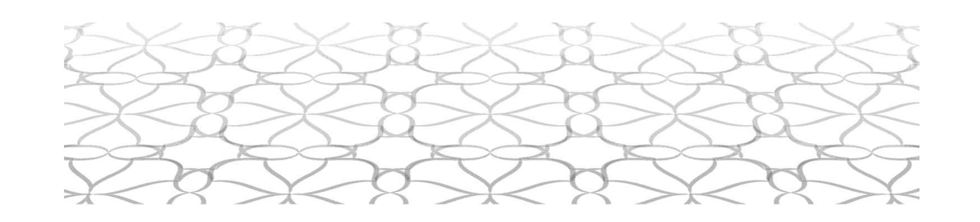
كتاب الآخرة

(اكتب صورك الخاصة)



اليوم الخامس

زاد الرحلة



لقد جئتَ في وقتك تمامًا، فقد كنت على وشك إغلاق الحقيبة.. حقيبة السفر.

لا يا صديقي، لم أكن لأسافر قبل أن أراك وأودعك، وأترك لك زاد رحلتك!

هل تعلم؟ أنا لا أحب السفر أصلًا، إحساس وداعك لمن تحب ولو لأيام قليلة يؤذيني، أتخيل كل مرة تأهبت فيها للسفر لو أني أستطيع حينها وضع أولادي وزوجتي وأهلي وأصدقائي معي في الحقيبة، لكان من الممكن أن أحب السفر.

ولا أحبُّ تحضير حقيبة السفر أيضًا، ذلك الكهفُ الذي يحوي سر الحياة.

هل تراني أبالغ؟

يا صديقي، يكفي أن تمرَّ عليك أمك وأنت تُحضّر حقيبتك، لتطلب منك أخذ المصباح الكهربائي المشحون مسبقًا، فترفض أنت بمنطق:

«لِمَ سأحتاجه، وأنا مسافر إلى مكان متحضر لا تنقطع فيه الكهرباء؟»

ثم تصل إلى وجهتك وتجدهم يعلنون خبر انقطاع الكهرباء في هذه البلد طوال فترة إقامتك فيها، فتنظر إلى كهف الأسرار (حقيبة السفر)، وتسمع صوتَ أمك يوبخك:

«ألم أخبرك أن تأخذ المصباح الكهربائي؟»

الحمد لله، فقد صرت أعتمد في تحضير حقيبة السفر على زوجتي، فلا مجال للخطأ، الزوجات لا يُخطئن يا هذا!

ولكني ما زلت لا أحب السفر، ولكن كُتب علينا السفر يا صديقي، شئنا أم أبينا.

لو لم تترك مكانك أبدًا فأنت في سفر، فالدنيا دارُ سفر كما قال صلى الله عليه وسلم، أما الآخرة فدار المُستقر.

يقول صلى الله عليه وسلم: «**كن في الدنيا كأنك غريبٌ، أو كأنك عابر سبيلٍ**»[1]

مجرد عابر سبيل يحمل حقيبته على ظهره، ومعه الزاد الذي يكفي رحلته.

قد بدأنا رحلتنا إليه -سبحانه- منذ أربعة أيام، وهيَّا بنا كي نتذكرها! أعرف أنك تذكرها جيدًا، ولكن لا مانع من المراجعة.

أن ترى بعين قلبك، فتعرف حقيقة الدنيا، وأنها لا وزن لها عند الله، هي ممر للآخرة لا أكثر.

أن تختار الطريق، فاختيار الطريق الصحيح ومعرفة عقباته وكيف تتخطاها، هو سبيلُك لتصل إلى مبتغاك.

أن تحبَّ الله، فإذا أحببته تعلقت برضاه، فيصبح حبه محركًا لك لتعمل بلا كلل ولا ملل.

أن تعيشَ الآخرة، فمعرفة الهدية والعقاب لا مثيل لها في التأثير على نفس العامل؛ فيعمل رغبةً في الفوز بالهدية والنجاة من العقوبة.

بقي لك عندي الزاد الذي يجب أن تحملَه طوال رحلتك حتى تلقاه!

نعم، فالرحلة إليه -سبحانه وتعالى- لا تنتهي إلا بوصول العبد إلى آخرته فيلقى جزاءه بإذن الله.

---

(١) صحيح ابن ماجه

الصحبة

وحدة أبدية خير من صديق سوء

«اختر الصديق قبل الطريق»

لا أتذكر أين سمعت هذه النصيحة، ولكن كلَّما مرَّ الوقت، اكتشفت كم هي صادقة.

من المؤكد أن الصحبة تُذهب ملل الطريق، وتُعين على صعوباته، بل أحيانًا تُنقذ المرء لو حاد عن الطريق أو تاه عن وجهته.

ولكنها في نفس الوقت لو كانت صحبة سوء، قد تكون سببًا في الضياع وفقدان الطريق؛ فتفشل الرحلة التي من أجلها نشأت الصحبة.

وعند اختيار الأصحاب فلا مجال للمجاملات ولا الذكريات، ولا وزن إلا للتقوى والإعانة على الطريق.

نبدأ الصداقات ونحن أطفال صغار ولا نعرف لها سببًا، مجرد صداقة للعب والمتعة، وعندما نكبر قليلًا يبدأ اختيارُ الأصدقاء يخضع لبعض المعايير، فمثلًا، منَّا من لا يُصاحب إلا هؤلاء أصحاب الفكاهة الذين يفهمون الحياة جيدًا، يُجيدون الاستمتاع بها وبما فيها من شهوات.

ومنَّا من يُصاحب المتفوقين في دراستهم، الذين يعرفون طريق النجاح والتفوق.

وهكذا، كلٌ منا يختار حسب أهدافه المرحلية، ثم نكبر أكثر وتستمر هذه الصداقات معنا دون مراجعة!

فلا يُراجع الواحد منَّا نفسه لِمَ صادق فلانًا؟

ولِمَ تستمر صداقتهم إلى الآن؟

لو قلت لأحدهم يا فلان، إن صديقك هذا صديق سوء فلِمَ تُبقي على صحبته؟

فتجد أغلب الردود التي تحصل عليها: «هو صديقي منذ زمن»..

«لقد تربينا سويًا»..

«إنه يعرف عني أكثر من أهلي»..

فإن قلت: «ولكنه يُبعدك عن الله، ويُعلمك السيء من الأقوال والأفعال!»

لوجدت الرد: «أولاً، هو ليس كما تظن، نعم هو فيه كذا وكذا من السوء، ولكنَّه أبيض القلب! وثانيًا، لي شخصيتي المستقلة، ولستُ طفلًا كي أتأثر به».

وإذا نظرتَ إلى حاله بغير تدقيق ولا مجهود، لوجدت تأثره بصديق السوء واضحًا.

ولِمَ لا، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخَالِل**»[1]

ضغطُ الأصدقاء والمجتمع من حولنا كفيل أن يصنع منَّا مسوخًا لم نكن نظن أن نكونها أبدا.

في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان هناك رجل يسمى (عقبة بن أبي معيط)، دعا عقبة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى طعام، فلما حضر النبي دعاه إلى الإسلام وقال: «يا عقبة لا آكل حتى تشهد أنه لا إله إلا الله وأني رسول الله»، فشهد عقبة بذلك وأسلم.

كان لعقبة صديق حميم يُحبه، اسمه (أبي بن خلف)، وكان على سفر، فلمَّا عاد أبي، وسمع بإسلام عقبة ذهب إليه، وما زال يلومه ويضغط عليه حتى قال له: «لا أرضى عنك حتى تذهب فتبصق في وجه محمد».

فما كان من عقبة الذي يُحب صاحبه إلا أن ارتدَّ عن إسلامه، وذهبَ فبصق على وجه النبي الشريف، وعاشَ على كفره حتى هلك في غزوة بدر.

كان من الممكن أن يكون صحابيًا، ولكن إغواءَ صديق واحد كان كافيًا ليموت على كفره، ويخسر الدنيا والآخرة.

قصة من زمن النبي تبيُّن لك أثر الصديق، وظني أنك تعلم غيرها الكثير من قصص زماننا هذا والتي تحمل نفس المعنى بل أسوأ، ولا ينكر أثر الصديق إلا مكابر.

---

(١) مشكاة المصابيح

يأتي عقبة يوم القيامة يعضُّ على يديه من الندم، رأى مآل كفره رأي العين، وشاهد سوء عاقبة اتباعه لصاحبه، فيندم حيث لا ينفع الندم.

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩)»[١]

وليس عقبة وحده من سيفعل، ولكن كل من ظلم نفسَه بصحبة السوء سيندم يوم القيامة، وسيذكر أي فلان فيهم أوصله إلى هذا الحال.

ولهذا أدعوك يا صديقي أن تضع اسم كل أصدقائك في خانة فلان، وانظر هل ستسعد يوم القيامة بصحبته أم أنَّه سيكون عدوك الذي دفعك إلى جهنم دفعًا!

«الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)»[٢]

المتقون من أصدقائك هم من سيشفعون لك يوم القيامة، لتنجو من النار أو لتُرفع درجتك في الجنة.

قال صلى الله عليه وسلم: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[٣]

فاحذر أن تكون اليوم حريصًا على صداقة عدوك يوم القيامة.

أسمعُ ما يجول بداخلك يا صديقي: «لو تركت أصدقاء السوء لن يبقى لي صديقٌ، وكم بحثت عن الصالحين فلم أجد، فهل أعيش وحيدًا؟»

---

(١) سورة الفرقان

(٢) سورة الزخرف

(٣) صحيح الترغيب

الأصل أن يلتحق المرء بصحبة الصالحين، وإن لم يجد فوحدة أبدية خير من صديق سوء، ومن يصبر على وحدة لله يلقَ أجرًا عظيمًا!

قبل بعثة النبي كان هناك رجل يُدعى (زيد بن عمرو بن نفيل) نظر زيد في أديان العرب فلم يجد فيها ما كان يبحث عنه من دين يوافق فطرته التي تدعوه إلى عبادة الله وحده.

لم يجد في كل الناس صديقًا معينًا ولا رفيقًا يصحبه في رحلته إلى الله، فبحث حتى اهتدى إلى بقية من دين إبراهيم ما زال بعض الناس يعرفونها.

فلمَّا سمعها وجدها أقرب شيء إلى ما اهتدت إليه روحه، فقرر اعتناقها وعبادة الله بها، وكان زمانه زمان فترة، فلا أنبياء، ولا وعّاظ، ولا مصلحون، كل من حوله مشركون.

عَبَد الله على دين إبراهيم وكان الموحد الوحيد في جزيرة العرب كلها، حتى مات على ذلك، فلما بُعث النبي -صلى الله عليه وسلم- جاءَ ابن زيد للنبي، وسأله قائلًا:

«يا رسول الله، أبي في الجنة أم في النار؟»

فأجابه صلى الله عليه وسلم: «زيد بن عمرو بن نفيل يُبعث يوم القيامة أُمَّةً وحده».

رجلٌ واحد اختار الله وسار وحيدًا في الطريق، فجعله الله يوم القيامة أمَّةً.

فاختر صحبة الطريق الصالحين أو سر في الطريق وحدك.

الابتلاء

حقيقة الإيمان تظهر بالاختبار

طالما قررت العودة إليه والسير في الطريق، فلابد أن تعلم أنك ستُبتلى.

«أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)»[١]

الإيمان بلا ابتلاء يسهل أن يدّعيه كل أحد، ولكن حقيقة الإيمان تظهر بالاختبار.

ومع الاختبار تتضح النوايا، ويظهر استعدادُ المرء للتضحية من أجل هدفه الأسمى ودار نعيمه.. «الجنة».

ولكل منا ابتلاءه الخاص، فلا تقارن نفسك بغيرك ولا تتمنّ اختبارًا

(١) سورة العنكبوت

غير اختبارك الذي كُتب لك، وعلى قدر صعوبة الاختبار أو سهولته يكون الحساب والجزاء.

فصاحب الابتلاء السهل حسابه أصعب، وصاحب الابتلاء الصعب حسابه أسهل، والذي يُحاسب هو الله العدل الحكيم، فلا تنشغلْ بالاختبار، وانشغل بالنجاح فيه.

من الناس من يُبتلى في أول الطريق إلى الله بأكثر ذنب يحبه، فجأة تُيسر له أسباب الوصول إليه، ويُعرض عليه الذنب بكثرة وبأبهى صوره على الإطلاق، ويأتيه كما كان يحلم به بالضبط، ويضغط عليه شيطانه وتراوده نفسه، فهل يُبصر الاختبار ويعلم أنه يُبتلى فيصبر ويقاوم فينجح ويفلح؟ أم تُعمي الشهوةُ قلبه فيقع من أول خطوة؛ فيعود إلى غفلته؟

ومنهم من يُبتلى في رزقه، ترك عمله المحرم ابتغاء وجه الله وانتظر العوض، فابتلاه الله بضيق الرزق ولم يُعوض، بل زادت معاناته.

منهم من يفهم أنه اختبار، فيقرر الصبرَ على الرزق حتى يرى اللهُ منه خيرًا، فينجح في اختباره ثم يفرج الله عنه!

فصبر ولم يزد الأمر إلا سوءًا، ابتلاء وراء ابتلاء، ولا فرج يلوح في الأفق، فينبت عند بعضهم السؤال، هل يبغضني الله حتى يبتليني هكذا؟!

مُعادلة أن القرب من الله = دنيا

مُعادلة أبعد ما تكون عن الصحة يا صديقي.

الله قد يعطي الدنيا لمن يبغض ويمنعها عمَّن يحب، أعطاها لفرعون موسى الذي قال: أنا ربكم الأعلى، وذكر لنا القرآن كبره:

«وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٥١)»[١]

فكانت عاقبته في نهاية الأمر، الغرق هو وجنوده.

وأعطاها سبحانه لقارون الذي حُكي عنه:

«إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ»[٢]

المفاتيح يعجز عن حملها الأقوياء فما بالك بالكنوز نفسها، ورغم ذلك انتهى به الأمر أن خسف الله به وبداره الأرض.

ومنع منها -سبحانه وتعالى- بعضًا من أنبيائه المصطفين، فعُرضت الدنيا على محمد -صلى الله عليه وسلم- فرفضها، وكان يمر الشهرُ وراء الشهرِ ولا تُوقد في بيت النبي نار للطهي، فلا يوجد شيء ليُطهى!

وابتلى نبيه أيوب في بدنه وماله وأهله، فأصابه المرض حتى يُقال أنه فقد القدرة على تحريك أطرافه، وتقرَّح جسده، وتقيح، وتركه كل أهله وأصحابه إلا زوجته ورجلين من إخوانه.

ثماني عشرة سنة في ابتلاء لا يتحمله بشر، ولكن صاحبَ الإيمان الحقيقي تحمَّل، حتى عندما اشتكى كانت شكواه شكوى محب يتضرع لسيده، فقال يصف ابتلاء ثماني عشرة سنة:

---

(١) سورة الزخرف

(٢) سورة القصص:٧٦

«وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)»(١)

مسني الضر، سمَّى ابتلاءه العظيم مسًا من الضر، فما كان من الله إلا أن كشف عن عبده الضر، فبرأ من مرضه، وعاد إليه أهله ورزقه من المال الكثير.

«فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤)»(٢)

ولو لم يكشف ضره لحكمة يعلمها سبحانه، لكان لزامًا على العبد الصالح أن يصبر على قضاء ربه ويطمع في جزائه في الأخرة.

«بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)»(٣)

لو أعطاك الله الدنيا فهذا ليس دليل رضا، ولو منعك منها فهذا ليس دليل سخط، ونحن نعبد الله لأنه الإله الحق المعبود المستحق للطاعة والعبادة لذاته، لا عبادة البقشيش.

تعرف البقشيش؟ عندما يُسدي أحدهم إليك خدمةً مدفوعة، فتترك له بعض المال تحيةً له على مجهوده، هناك أيضًا من يعبد الله وهو ينتظر البقشيش، أنا صلَّيت إذًا أنتظر الرزق والوظيفة، أنا تحجبت فمتى يأتي الزوج الصالح الذي سيسعدني، وهكذا في كل عبادة، فلو لم يأتِ الطلب، تجد بعضهم يعود إلى نقطة البداية أو أسوأ!

(١) سورة الأنبياء

(٢) سورة الأنبيا

(٣) سورة الأعلى

العبد الصادق يعبد الله ليَرْضَى لا ليُعْطِي، فإن أعطى أو منع، فله الحمد وله الحكمة البالغة -سبحانه وتعالى- يفعل ما يشاء ويختار.

فتجَّهز للابتلاء، وكنْ عبْدًا صادقًا يُرضي ربه.

الصبر

إنما النصر صبر ساعة

ولا أقصد هنا الصبر على البلاء، ولا الصبر على الطاعة، ولا الصبر عن المعصية فقد سبق وتكلَّمنا عن كل هذا، ولكني أقصد الصبر على ضعفك.

يقول صلى الله عليه وسلم: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطّائين التوابون**»[1]

وهذه القاعدة ليست لتبرير الذنوب والتمسك بها كما يفعل البعض، ولكنها تذكرك ببشريتك وضعفك.

يُنسب للإمام الشافعي قول: «سيروا إلى الله عُرجًا ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة، فإن انتظار الصحة بطالة».

---

(١) رواه الترمذي وحسنه الألباني

أول خاطرة سيضعها الشيطان في عقلك إذا قررت أن تبدأ الطريق:

«كيف تبدأ الطريق بكل هذه الذنوب والعيوب؟ تصلي وأنت تفعل كذا وكذا! تتحجبين وأنتِ تعلمين عن نفسك كذا وكذا! تتوب من بعض ذنوبك وأنت لا تستطيع أن تتركَ البعض الآخر! يا لنفاقكم وسوء أدبكم مع الله، يجب أن تتخلَّصوا من كل ذنوبكم أولًا حتى تبدأوا الطريق».

ينصحك بانتظار حالة من الملائكية لن تصل إليها، ولو بعد مائة عام.

أو يدخل لك من طريق آخر: «أي منافق أنت، كم مرة وعدت الله ألَّا تعود إلى ذنوبك فعدت؟ وكم مرة قاومت الذنب ففشلت؟ أنت منافق، خسيس النفس لا أمل فيك!»

فيدفعك إلى كراهية نفسك، وفقدان الأمل فيها.

والصحيح يا صديقي أن تبدأ الطريق بغض النظر عن حالك وكم ذنوبك ومعاصيك، ابدأ واجتهد في التوبة قدر طاقتك، ولا تتصالح مع ذنب أبدًا، ولا تقبله مهما وقعت فيه.

كلُّنا نقع في الذنوب، حتى أطهر واحد تظن أنك تعرفه ولا ترى منه إلا الصلاح والتقوى فهو يقع في الذنوب، ولكنَّه مستور بفضل الله.

الفرقُ بين صالح وطالح، هو أن الصالحين بينهم وبين أنفسهم يعترفون بذنوبهم يقاومونها فيدخلون معها في حرب ضروس، ينهزمون حينًا وينتصرون أحيانًا أخرى، حتَّى يصلوا إلى حال تقل معه ذنوبهم وتتباعد أوقات وقوعهم فيها، يتخلصون من أكثرها إلى الأبد، ويعودون إلى بعضها مرة أخرى، فيعيدون الكَرَّة ويُعلنون الحرب عليها من جديد، وهكذا يعيشون أبدًا.

يعرفون أن الحرب مع الشيطان لا تنتهي إلا بالموت، ولو هزمهم الشيطان في جولة، عادوا وانتصروا عليه في جولات، يزاحمون سيئاتهم بالحسنات، يَصْبِرون على ضعفهم، ويقبلون بشريتهم، فلا يتهاونون مع أنفسهم عند الخطأ، ولكن لا يجلدون أنفسهم، ومهما تعثَّروا لا يفقدون الأمل أبدًا.

يعرفون أن الله ينظر إلى قلوبهم، ويرى اجتهادهم في الوقوف مرة أخرى مهما وقعوا، وأنهم على الطريق مهما كانت الظروف ومهما زادت العقبات.

لا يلتفتون إلى الماضي لو حاول شياطين الأنس والجن أن يُذكروهم به، بل دائمًا ينظرون أمامهم إلى الهدف الأسمى الذي لا هدف لهم غيره، **رضا الله والجنة.**

يعلمون أن الله يغفر الذنوب جميعًا، كبيرها وصغيرها، ولا يَمَلُّ من الغفران للعبد حتى يملّ العبد من العودة إليه والاستغفار، ولو عاد ملايين المرات لقبله -سبحانه وتعالى- فلا يملون الاستغفار أبدًا.

فهموا أن النصر على الشيطان، والفوز برضا الله في كلمة واحدة: **الصبر!**

الصبرُ على ضعف النفس ووقوعها في الذنب مرة بعد مرة

الصبرُ على إعادة المحاولة والعودة إليه في كل مرة يسقطون فيها.

فقط من يصبر، يصل.

فاصبرْ يا صديقي، وكن مع الصالحين.

استعن

لا بد للعبد من استعانة

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»(١)

أَمرَكَ الله أن تقولها مرةً في كل ركعة في اليوم، على الأقل سبع عشرة مرة في صلاتك إن لم تصلِ إلا الصلوات المكتوبة، وإن صلَّيت تطوعًا زادت المرات على قدر ركعاتك.

قانون وضعه الله لنا، وجعلنا نردده حتى لا ننساه، وأغلبنا لا يفعل شيئًا إلا نسيانه.

كلُّ من وقع في الطريق ثم لم يَقُمْ مرة أخرى، كان بسبب أنه لم ينتبه لهذا القانون الرباني، **لا بد للعبد من استعانة.**

---

(١) سورة الفاتحة:٥

لا شيء يهدم الطريق من بدايته، ولا يجعل العبد فريسةً سهلةً لنفسه ولشيطانه، كأن يقع في فخ الاعتماد على نفسه، لا على الله ومعيته وقدرته.

«أريد أن أتركَ من الذنب كذا وكذا، وأن أفعل من الطاعات كذا وكذا».

فتجد الصوت في داخلك.

«نعم أنت تستطيع، كم واجهت من المواقف والصعوبات، فاستطعت تخطيها بنجاح، أنت قوي الشخصية وتستطيع فعل ما شئت».

فتبدأ الطريق، وسرعان ما تتوالى السقطات، فتشعر بالهزيمة وخيبة الأمل، وتعود من حيث أتيت.

وحده الله يقدر أن ينصرك في جهادك لنفسك وشيطانك، وحده الله يقدر أن يقيلك من عثرتك ويقيمك على الطريق مرة أخرى، وحده الله يقدر أن يغيِّر حالك إلى حال كنت لا تظن أن تصل إليه أبدًا.

ولكن حتى تحصل على هذه المعية والتأييد، فواجبٌ عليك أن تخرج من حولك وقوتك إلى حوله وقوته.

قف بين يديه وادعه واعترف له بضعفك وعدم قدرتك!

اطلب منه المدد والعون على نفسك وشيطانك وحبك للشهوات.

فِرّ إليه كلَّما وقعت، واشتكِ له سوء حالك.

لا تترك بابَ الله مهما حدث، مهما اخطأت أو ظلمت نفسك، مهما حِدْتَ عن الطريق أو جرفتك أمواج الباطل، فعند الله تجد الرحمة والعفو والمغفرة والقدرة التي ليست إلا عنده.

كثير من الخلقِ لو رآك على ضعف، يرحمك ويعفو عن خطئك في حقه، ويغفر ظلمك له، ولكنه لا يقدر على تغيير حالك، أما الله فيقدر.

من أسماء الله الحسنى الجبَّار، ومِنْ معاني هذا الاسم الجليل، أن الله يُغيّر لمن شاء من عباده نواميس الكون.

نارٌ تحرق كل شيء، ولكن الله يجعلها بردًا وسلامًا على خليله إبراهيم عليه السلام.

بحرٌ متلاطم الأمواج يغرق السفن العملاقة فما بالك بالبشر الضعفاء، يجعله ربي لموسى ومن معه أرضًا ممهدةً يمرون عليها ويُغرق مَنْ خلفهم، فرعون وجنوده!

حوتٌ جعل ربي بطنَه مُسْتقرًا لنبيه يونس، حتى إذا شاء أخرجه حيًا لا خدش فيه.

وغير ذلك من المعجزات لأنبيائه وعباده الصالحين إلى وقتنا هذا.

ربٌّ قادر على كل ذلك وأكثر، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يحيي الموتى بعدما أَرِمُوا، **ألا يقدر أن يحيي روحك؟ بلى، والله يقدر.**

ولو قال قائل إن المعجزات ماتت بموت الأنبياء، قل له: بل أنت الذي تحتاج أن تعرف ربك، فرب المعجزات التي تدَّعي موتها لو شاء أحياها لعبده المتوكل عليه المستعين به.

فتوكَّل على الحي الذي لا يموت، وقلها بكل ما أوتيت من حاجة روح إلى جوار ربها ومعيته. «**إياك نعبد وإياك نستعين**».

إلى اللقاء

يبدو أنَّ وقتَ الرحيل قد حان!

شكرًا لك على استضافتك لي طوال هذه الأيام الخمسة.

كم كنتَ كريمًا جميل الروح كما كنت أتوقع، بل أكثر.

ولكن قبل أن أغادر، أريدُ منك تعهدًا آخر، هل تذكر التعهد الذي وقَّعت عليه في أول لقاء لنا؟

أنا أيضًا سأفتقدك، هل نلتقي مرة أخرى؟

لا أعلم، قادر ربي أن يجمعنا مرةً أخرى، ولكن إن لم نلتقِ، فاعلم أني أحبك في الله.

لا أظن أني سأنساك، وأرجو من الله ألا تنساني.

أول مرة تسألني عن اسمي منذ أول لقاء لنا، اسمي «**عمر**»!

هيَّا، أريد أن أرى توقيعك على التعهد قبل أن أودعك.



أتعهد أنا الموقع أدناه أن أبدأ رحلتي إلى الله على بصيرة، فلا أطمع في الدنيا ولا أنخدع بزخرفها الزائف، وأن أختار طريق الحق الذي يرضيه، وأن أجاهد في رضاه نفسي وشيطاني، فلا أستقل ذنبًا أبدًا، ولا أستهين بطاعة أبدًا، وأن أحبَّه كما ينبغي لجلاله وكماله وجميل صفاته سبحانه وبحمده، وأن أرجو رحمته وجنته فأعمل لها، وأن أخشى عذابه وبطشه فأنتهي عن عصيانه، ولا أنسى زاد الرحلة من الصحبة الصالحة والاستعداد للابتلاء والصبر على نفسي وحسن التوكل عليه!

نعم المولى ونعم النصير.

التوقيع: ....

المحتويات

اليوم الرابع

للتواصل مع الكاتب:

Amir instagram

Amir page

Amir profile



Group



Twitter

